مجلة المجمع العلمي العراقي



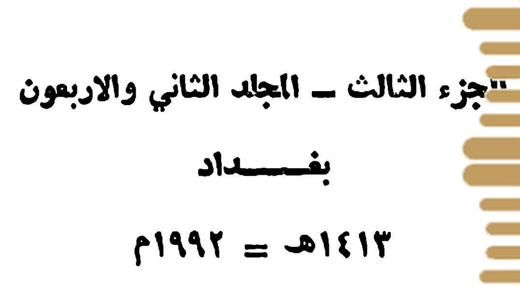
الجزء الثالث ـ المجلد الحادي والاربعون

بغـــداد

١٤١٣هـ = ١٩٩٢م

مجلة المجمع العلمي العراقي





الجزء الثالث ـ المجلد الثاني والاربعون

بغـــداد

١٤١٣هـ = ١٩٩٢م



مجلة المجمع العلمي العراقي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

هيـــأة التحرير



توجـه الرســائل والبحــوث الى مدير التحريــر

البحوث المنشورة في المجـلة تعبر عن آراء اصحابها .

المقـالات لا تـرد الى اصحـابها نشرت او لم تنشر .



العنوان : الوزيرية / بريد الأعظميـة / ص.ب ٤٠٢٣

بغـداد ـ العـراق

أقوال العرب ومؤلفاتهم
في خصـائص الشعوب والبلدان

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع

المدن وخصائصها في العالم الاسلامي :

وحّدت الدولة الاسلامية البلاد الواسـعة التي إنضوت تحت لوائها وازالت الحواجز القديمة التي كانت بين الدول المتعادية قبل الاسلام ، كما زعزعت النظم الاقطاعية الجامدة ، ونشرت الحرية التي ارتكزت عليها المبادىء الاسلامية وتشبعت بها الهيئـة الموجهة للحكم من الخلفاء والولاة والقـواد العرب ومستشاريهم ، فاباحت بموجبها حرية العمل والتنقل ، وأدت هـذه الحرية والاختلاط الى تمازج مختلف النظم والحضارات ، والى اضـعاف التقاليد المحلية الناجمة عن العزلة •

غير أن تنوع الأحوال والظروف الطبيعية ، وتباين المصالح بين مختلف الأقاليم والأماكن ، وضعف سبل المواصلات والاتصال أدى على مر الزمن الى بروز خصائص محلية لبعض الاقاليم ، كما ان عدداً من الدوافع السياسية والاجتماعية دفعت بعض هذه الامـاكن الى التفاخر بخصائصـها التاريخية او الطبيعية ، وزاد من قـوة ظهور هـذه الخصـائص محدودية حـرية التنقل والتجارات التي تعين على انتشار المعرفة بتلك الخصائص •

مصادر المعلومات :

وترجع الأصول الأولى لملاحظة هذه الخصائص الى السنوات الاولـى لتكوّن الدولة الاسلامية حين كانت تـرد وفود الامصار الى الخليفة فتعرض أحوال أهلها ، أو تقدم السلع الى الامصار الرئيسة •

ان اول ما روي لنا عن خصائص المدن هي ما ذكرته الوفود ، كذكر وفد البصرة لعمر الأحوال الضنكة لمدينتهم ، أو وصف الخليفة عمر للكوفة تقديراً لأهلها وحثا على الهجرة اليها ، أو وصف بعض الولاة خصائص الأقاليم التي

ولوها ، كوصف عمرو بن العاص لمصر ، هذا فضلا عن رغبة بعض الخلفاء معرفة خصائص الأقاليم والاستفسار عنها كالذي فعله عمر بن الخطاب مع كعب الأحبار .

وقد أدى استقرار الأمصار الى نمو روح الجماعة بين أهلها والى شعورهم بمصالحهم الخاصة المشتركة ، والى طابعهم الخاص المميز لهم عن أهل الامصار الاخرى بالرغم من تشابه أصولهم القبلية والنظم السائدة فيهم . وأبرز ما ظهرت فيه بين الكوفة والبصرة اللتين كان لكل منهما موقف سياسي يخالف الاخرى ، فان أهل الكوفة قاموا بدور كبير في فتوح العراق التي حدثت في خلافة عمر ، وساهموا في المعارضة للخليفة عثمان ، وأيدوا الامام علي الذي اتخذ الكوفة قاعدته ، أما البصرة فلم يقم أهلها بفتوح كبيرة في أوائل خلافة عمر بن الخطاب ، ثم ازدادت فتوحهم في أواخر خلافة عمر وفي خلافة عثمان ، ثم صارت مركزا لمتحدي الخليفة علي الذي قضى عليهم في موقعة الجمل ، ولم يكونوا متحمسين في تأييده ، وكانوا من حيث العموم عثمانية واسهموا في القضاء على المختار في الكوفة .

المؤلفات في الخصائص :

وعندما نشط التأليف والتدوين عند العرب والاقاليم ، كان مما عنوا به تدوين ما تتميز به بعض المدن والأقاليم وعنونوا مادونوه عناوين متعددة، منها «خصائص» و «فضائل» و «مفاخر» و «مثالب» ، ولكل من هذه التعابير مدلول لغوي خاص استخدمه العرب للدلالة على ما يقصدوه ؛ فكلمة « خصائص » تدل على صفات خاصة تتسم بها المدينة أو الاقاليم ولا يشترط ان تتفرد بها وحدها ، وكلمة « فضائل » يقصد بها ما تميزت به المدينة وخاصة بما يتصل بالدين كقدسية أرضها أو من أنجبتهم من المعنيين بالدين ، أما «المفاخر» فهي وصف لما تميزت به على غيرها من أمور جيدة ، و «المثالب» هي ذكر للعيوب .

ويتصل بهذا الميدان ما روي من«مفاخرات»بين اكثر من مكان تذكر فيه خصائص المكان وميزاته ويشار الى عيوب المكان الاخر ونقائصه •

والجوانب التي تذكر في هذه المدونات تعبير عن المثل العليا المقبولة عند الناس ، وهي بلا ريب غير ثابتة وانما منوعة ومتطورة ، وقد لا تقتصر على جانب واحد ، فتشمل عدة جوانب ، فقد تشمل خصائصها الجغرافية وأرضها ، ومنتوجاتها ، ورجالها ، واسهامها في الفكر والحضارة ، أو في المصنوعات التي تنتجها ، وهي تعبر عن الاوضاع القائمة عندما ابديت عليها الملاحظات ، ولذلك فان تحديد مصدر القول وتعيين زمنه هو أمر مهم ، علما بأن كثيراً من المظاهر التي ذكرتها النصوص استمرت أمداً غير قصير •

والابحاث في خصائص البلدان ليست مرادفة لخصائص الشعوب ، فأن هذه تبحث في الشعوب حيثما كانوا ، فهي لاتقتصر على مدينة أو تنحصر في مكان ، اما خصائص المدن والاقاليم وترتكز على المكان وتبحث ما تميز به من منتوجات ومصنوعات ، ويتطرق بعضها الى خصائص أهله ورجاله المتأثرة بالأحوال الاقليمية وليس بالموروثات العرقية ، غير أنها في تطرفها الى ذلك تدرسها ضمن نطاقها العام للمكان ، وبذلك تتميز عن دراسة مفاخر الأفراد أو مثالبهم والجماعات التي تدرس لذاتها وليس لصلتها بالمكان •

تعبر مدونات الخصائص عن « الاقليمية ، وعن تميز كل منطقة من مدينة أو اقليم بسمات معينة على اختلاف أهلها عن الأحوال في المناطق الأخرى ، وأغلبها تعبر عن التباين والتنافس المحلي السلمي •

وصلتنا نصوص غير قليلة ، بعضها مقتصر على خصائص مدينة معينة ، وبعضها مقارنات بين مدينتين ، تذكر فيها خصائص كل منها ، وبعضها يجمع خصائص عدة مدن • وأغلب ما وردنا في ذلك يتعلق بما لأهل كل مدينة من مميزات خلقية ، أو ما تميزت به من منتوجات زراعية أو حيوانية أو صناعية ؟ وبعضها يذكر من اشتهر من علمائها ، ولاريب في أن هذه

المعلومات بلدانية ، غير أنها تنفرد بسمات خاصة تميزها عما كتبه البلدانيون والجغرافيون الذين ألفوا كتبا عامة ذكروا فيها أوصاف عدد من المدن وما تميزت به كل منها من أحوال طبيعية أو سكان أو منتوجات دون أن يقدروا أهمية هذه المنتوجات بالنسبة للعالم الاسلامي مما تهتم به النصوص التي ذكرت خصائص المدن .

ان بعض هذه النصوص يمكن تحديد تاريخه من معرفة قائلها أو أقدم مصدر ذكرها ، غير أنه يصعب تحديد عدد منها ، خاصة وأن المؤلفين العرب إهتموا بنقل النصوص المتقنة التي تروق لهم مع اغفال المصدر الذي نقلوا عنه، ولهذا الاغفال أثر في صعوبة تحديد تطور هذه الخصائص، فمن المعلوم ان المدن ، شأن أية مؤسسة أخرى ، تعرضت لتطورات واسعة من النمو والضمور، ومن ميادين الاهتمام ، ومعرفة القائل الاول للنص يحدد زمن ظهور هذه الخصائص التي قد لاتبقى ثابتة الى الأزمنة المتأخرة التي تنقل كتبها تلك النصوص من دون تحديد زمنها أو ماحدث عليها من تطورات تالية ، وأكثر ما روي عن العرب وصف أمصارهم وخاصة الكوفة والبصرة ، أما غير العرب فرووا بجانب ذلك خصائص مدن ايران وأقاليمها بجانب وصفهم لأحوال العرب.

وأغلب النصوص التي وردتنا قصيرة محكمة ، يذكر كل منها ما للمدينة أو المدن من خصائص بعضها مميزات وبعضها عيوب، ويرجع أقدمها الى أقوال نقلت عن أفراد أبرزهم الأحنف بن قيس ، وكعب الأحبار ، وابن القِرّية وخالد بن صفوان ومحمد بن عمير العطاردي وابي بكر الهذلي وابن عياش وقد نقل كثيراً من أقوالهم ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» والجاحظ في عدد من كتبه وخاصة كتابي « البلدان » و « البيان والتبيين » ، وابن الفقيه الهمداني في كتاب « البلدان » والنويري في كتاب «نهاية الارب» .

وردت في المصادر ثلاث مفاخرات في أقاليم المشرق ، هي مناظرة بغداد وهمدان ، وقد نقلها ابن الفقيه في كتابه «البلدان» (٢٢٧) ، والمفاخرة بين

بغداد وإصبهان وهي تكون قوام كتاب «حكاية ابي القاسم» التي ينسبها عبود الشالجي الى التنوخي ، ومفاخرة ابن زولاق بمصر في كتابه عن «الموازنة بين مصر وبغداد» •

أما المفاخرة بين الكوفة والبصرة ، فقوامها نصوص متفرقة تختلف في سعتها ومادتها ، منسوبة الى رجال من أهل المدينتين عاش جلهم في زمن الراشدين والأمويين ، وفيها معلومات زاخرة عن الأحوال العمرانية وعن اسهامها في الفتوح والحركات السياسية والفكرية ؛ وبالنظر لأهمية معلوماتها وتفرقها ، فقد رأينا ان نفردها بفصل خاص •

وذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست» عددا من كتب فضائل البلدان ومنها «فضائل بغداد وصفتها» ليزدجرد بن مهبنداد (١٨٥) و « خصائص بغداد وأخبارها» لأحمد بن الطيب السرخسي (٣٦٦) •

وذكر أيضا «كتاب» مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة للمدائني (١٥٢)، و «فخر أهل الكوفة على أهل البصرة» للهيثم بن عدي (١٤٦) ، وفضل المدينة على مكة (٢٣٨) ، و «فضائل مكة على سائر البقاع» لابي زيد البلخي (١٩٩) ، و«فضائل مصر» للجمحي (١٦١) وكافة هذه الكتب مفقودة ولم يشر اليها أحد سوى كتاب يزدجرد بن مهبنداد الذي نقل كثيرا منه ابن الفقيه في الفصل الذي كتبه عن بغداد في كتابه «البلدان» ، كما ألمح الى بعض محتواه ابن زولاق في كتابه عن فضائل مصر ، غير ان في مقدمات بعض كتب المدن نصوص عن خصائص المدينة موضوعة البحث ، كالذي نجده في تاريخ بغداد للخطيب ، وكتاب البلدان لليعقوبي و «فضائل اصبهان» للمافرخي ، و «أخبار أصفهان» لابي نعيم •

وذكر الطوسي في كتابه «الفهرست» كتابين عنوان كل منهما «فضل الكوفة» أحدهما لأحمد بن محمد بن عقدة الحافظ (٢٨) والثاني لعلي بن الحسين بن فضلة (٩٥) ، وذكر أيضا كتاب «فضل قم والكوفة» لسعد بن

عبدالله القمي (٧٥) •

وأورد كل من ابن الفقيه الهمداني في كتابه «البلدان» ، والخطيب البغدادي في المقدمة الخططية لكتابه « تاريخ بغداد » نصوصاً متشابهة عن بغداد وما قيل فيها من مدح وذم •

ونشير الى ما كتبه عن العراق وبغداد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان، والخطيب البغدادي في مقدمة كتابه «تاريخ بغداد ، والاشارات التي ذكرها ابن ابي الحديد عن خصائص العراق في كتابه «شرح نهج البلاغة» •

وعن مصر يضم كتاب نشر بعنوان «فضائل مصر» منسوب الى الكندي، معلومات تطابق ما في كتاب منسوب لابن زولاق الذي ذكر ابن ظهيرة في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» ان ابن زولاق قال في كتابه الكبير في تاريخ مصر ؛ هذا كتاب عملت فيه عملا من عيون أخبار مصر وفضائلها وضيعها كتبت بالموازنة بين مصر وبغداد (٧١) وذكر ابن ظهيرة في مكانين من كتابه اسم كتاب ابن زولاق «الموازنة بين مصر وبغداد» (٣١ ؛ ٢٤٣) وقد نقل ابن ظهيرة عن ابن زولاق معلومات كثيرة عن مدن مصر ومنتوجاتها ، وهي معلومات لاتوجد في مخطوطة باريس من كتاب ابن زولاق ، وهي النسخة الوحيدة الباقية فيما أعلم •

بحث الجاحظ في كتابه (التبصر بالتجارة) منتوجات عدد من الأقاليم ، ومنها الجواهر النفيسة (٨-١٢) ؛ والطيب والعطور (١٢-١٣) والمنسوجة (١٤ - ٢٠) وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والامتعة وبحث في كتاب « البلدان » الذي وصلنا مختصره عن فضائل قريش وآل أبي طالب ، ثم بحث في مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة •

وبحث عدد من البلدانيين ، وأبرزهم اليعقوبي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، وابن الفقيه • اقاليم بلاد العالم الاسلامي وكثير من مدنهم ، وتميز اليعقوبي باهتمامه في المدن ببحث خططها وتركيبها السكاني ،

وبذكر بعض منتوجاتها ٠ غير أن المطبوع من كتاب اليعقوبي معتمد على نسخة فريدة ناقصة ، ولم تكتشف حتى الآن مخطوطة اكمل منها ، او نصوص منقولة عنها وفيها معلومات تضيف الى المطبوع ٠

اما الاصطخري فقد وصف في كتابه « المسالك والممالك » اقاليم بلاد الاسلام وكثير من مدن كل اقليم ، وفيه اشارة الى منتوجات الاقاليم ، وصناعة وسكان بعض المدن التي ذكرها ، وكان كتابه معتمد ابن حوقل الذي نقل مادة الاصطخري مع اضافات عن الموصل والمغرب ، وقد ارتاب عدد من الأقدمين بصحة نسبة الكتاب الى الاصطخري ، وعزوه الى ابي زيد البلخمي، ولكن هذا لا يمس صحة المعلومات التي حددت فيه والتي تمثل الاحوال في اواسط القرن الرابع ٠

ونظم المقدسي مادة كتابه « أحسن التقاسيم » على اساس الاقاليم ٠ وذكر معلومات غنية عن احوال ومنتوجات عدد كبير من الاقاليم والمدن التي وصفها ٠

اما ابن الفقيه فقد وصلتنا من كتابه « البلدان » نسختان غير كاملتان طبع احداهما دى غوية ، وطبع الثانية بالتصوير فؤاد سزكين عن اصلها الفريد المحفوظ في مشهد وتتفق النسختان في بعض المعلومات ، وتنفرد كل منهما بمعلومات عن خصائص بعض البلدان ، وخاصة البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، وواسط ، وسر من رأى ٠ وقد كشفت قطعة صغيرة منه في احدى مدن اسيا الوسطى ، كما نقل عنه ياقوت نصوصاً لا توجد في النسختين المطبوعتين ٠

ومع ان كتاب الفقيه في البلدان ، الا انه لم يرتب مادته تبعاً للاقاليم ، كما انه اورد معلومات واسعة عن خصائص الشعوب وبعض المدن والمناظرات الاولى بين بعض المدن ، وخاصة بين الكوفة والبصرة ، وبين بغداد وهمدان ٠

بحث ابن الفقيه في خصائص بعض الامم ومنها الروم والنوبة ، والبجة، والترك ، والهند وبعض شعوب اوربا ، كما ذكر معلومات واسعة عن بعض

اقاليم ومدن العالم الاسلامي بما في ذلك مدن اقاليم المشرق ، والعراق ، وجزيرة العرب ، والمغرب واورد كثيراً من المفاخرات بين البصرة والكوفة ، وعجائب بعض المدن ، والمنتوجات الزراعية والصناعية ، وما يضاف وينسب الى بعض المدن والاقاليم ، وخصائصها* .

وبحث الثعالبي في « لطائف المعارف » خصائص ومحاسن ومساوىء عدد من أقاليم ومدن العالم الاسلامي ، كما بحث في كتابه « ثمار القلوب » ما خص به عدد من اقاليم ومدن العالم الاسلامي ، وخاصة مدن شبه جزيرة العرب ، وما خصت به بعض هذه الاقاليم والمدن من احوال ومنتوجات • ونقل فيما اورده ، كثيراً عن الجاحظ وخاصة من كتابه « البلدان » •

وبحث النويري في كتابه (نهاية الأرب) خصائص ومنتوجات عدد من الأقاليم ومعلوماته فيها تطابق تقريبا ماذكره الثعالبي في «لطائف المعارف» عنها مما يدل على ان الثعالبي كان مصدر النويري الذي لم يضف شيئاً على ما اقتبسه •

وخصص عمر بن الوردي في كتابه « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » فصلا في خصائص البلدان وذكر فيه خصائص كل من الشام ومصر واليمن والبصرة والكوفة وبغداد والاهواز وفارس وأصفهان والري وطبرستان وجرجان ونيسابور وطوس وهراة ومرو وبلخ وسجستان وبست وغزنة والهند وسمرقند والصين والتبت وخوارزم •

تباين خصائص أهل الأقاليم وتناقضها :

ترجع أقدم النصوص التي وصلتنا عن خصائص المدن والأقاليم الى زمن الخليفة عمر بن الخطاب وتنسب الى كعب الأحبار ، فقد ذكر النويري « ان

* انظر تفاصيل أوفى في كتاب « الأدب الجغرافي عند العرب » لكراتشوفسكي وكتاب الجغرافية البشرية للعالم الاسلامي « لميجيل » .

عمر بن الخطاب سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكنتها ، فقال : ان الله تعالى لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشيء :

فقال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك
وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك
وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك[1] .

ونقل عن محمد بن حبيب ما يشبه هذا القول من دون أن يحدد قائله أو زمنه فقال «لما خلق الله الخلق جعل معهم عشرة أخلاق : الايمان ، والحياء ، والنجدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ، والشقاء .

فقال الايمان أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء وأنا معك
وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك
وقال الكبر أنا لاحق بالعراق ، فقالت النعمة وأنا معك
وقال الغنى أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وأنا معك
وقال الفقر أنا لاحق بالبادية ، فقال الشقاء وأنا معك[2] .

وروى المدائني ان الحجاج هو الذي قال : لما تبوأت الأمور منازلها
قالت الطاعة أنزل الشام قال الطاعون وأنا معك
وقال النفاق أنزل العراق قالت النعمة وأنا معك
وقالت الصحة أنزل البادية قالت الشقوة وأنا معك [3] .

يروى ابن الفقيه عن عمرو بن أوس أن عمر بن الخطاب أراد أن يقدم الى الكوفة فكتب اليه كعب الحبر : يا أمير المؤمنين لا تعجل فانه قد بلغني أن بها الداء العضال وبها تسعة أعشار الشر ، وبلغني أنه اذ كل شيء ينطق أجتمع ثمانية أشياء في واد . الايمان والحياء والهجرة والموت والفناء والعي

---

(١) نهاية الارب ١/١٩٢ .
(٢) نهاية الارب ١/٢٩٢ .
(٣) عيون الاخبار ٢٢٢٨ ، النويري ١/٩٢ .

والشقاء والصحة ، فقال بعضهم لبعض تعالوا نتصرف في الارض فتفرقوا في البلاد :

فقال الايمان أنا الحق بأرض اليمن ، فقال الحياء أنا معك
قال الهجرة أنا الحق بالشام ، قال الموت أنا معك
قال الغناء أنا الحق بأرض العراق فانها أرض واسعة ، فقال الغنى أنا معك .
قالت الصحة ما تركتم لي شيئا من البلاد الا وقد أخذتموه ، قال الحق بالبرية ، فقال الشقاء : أنا معك (٤) .

وروى المدائن عن عاصم في اسناد له بعض هذا القول ولم يوضح الاسناد فقال :

قال الطاعون لنا الحق بالشام ، فقال الخصب انا معك
وقال الجوع انا الحق بأرض البادية ، فقالت الصحة وأنا معك
وقالت النعمة أنا الحق بأرض العراق ، فقال السقم أنا معك (٥) .

اقتصرت بعض النصوص على ذكر ما تميزت به بعض الامصار وكان أقدمها متصوراً على أقاليم الحجاز والشام ، والعراق ، غير أن بعضها شمل خصائص الأمصار العربية ، ثم امتدت بعض النصوص لتشمل أيضا خصائص أقاليم بلاد العرب ، ثم الأقاليم المفتوحة .

ومن أقدم هذه النصوص ما رواه محمد بن حبيب عن ابن مورع الكلبي عن صعصعة بن صوحان ، حيث قال « دخل صعصعة بن صوحان العبدي على معاوية فقال له يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة واياك والحمل على قوم لقوم ، قال : البصرة واسطة

---

(٤) البلدان ١٨٦ ــ ٧ .
(٥) التعازي ٨٢ ، ثمار القلوب ٥٤٧ .

العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها » .

قال فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ، وفطان ذوي الأحلام ، الا ان بها أخلاقاً تسنع ذوي الامر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة .

قال اخبرني عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس الى فتنة ، واضعفهم عنها ، وأقلهم عناء فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلفون الفسقة الفجار[٦] .

روى ابن الفقيه جواب ابن القرية على تساؤل الحجاج عن أقاليم جزيرة العرب وفيها بعض الاختلاف عما رواه ابن شاكر ، فذكر :

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال : أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن عمان : قال : حرّها شديد ، وصيدها عتيد ، وأهلها بهائم ليس بها رائم ،

قال فأخبرني عن البحرين : قال كناسة بين مصرين : كثيرة جبالها ، جهلة رجالها ،

قال فأخبرني عن مكة : قال : رجالها علماء ، وفيهم جفاء ، ونساؤها كساة عراة .

قال فأخبرني عن المدينة ، قال : رسخ العلم فيها ثم علا وانتشر في الآفاق

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال:أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد ، وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن البصرة : قال : حرها شديد ، وماؤها مالح ، وحربها صالح ، مأوى كل تاجر وطريق كل عابر

---

(٦) مروج الذهب ٢/٣ .

قال فأخبرني عن واسط ، قال : جنة بين حماة وكنة تحسدانها ودجلة والزاب يتناوبان عليها

قال فأخبرني عن الكوفة ، قال : سفلت عن برد الشام ، وارتفعت عن حر اليمن ، فطاب ليلها وكثر خيرها

قال فأخبرني عن الشام ، قال : عروس في نسوة جلوس كلهن يزفنها ويرفدنها

وذكر أنه قال عن مكران « ماؤها وشل ، وتمرها دقل ، وسهلها جبل ، ان كثر بها الجيش جاءوا ، وان قلوا ضاعوا

وذكر ان خراسان « ماؤها جامد ، وعدوها جاهد ، وبأسهم شديد ، وشرهم عنيد [٧] .

ومما يرجع الى زمن الحجاج بن يوسف نص ينسب لزادان فروخ أجاب فيه الحجاج عندما قال له «اخبرني عن العرب والأمصار ، فقال اصلح الله الأمير : أنا بالعجم أبصر مني بالعرب ، قال لتخبرني قال فسل عما بدا لك :

قال أخبرني عن أهل الكوفة ، قال : نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من ضيافتهم وسماحتهم

قال فأهل البصرة ، قال : نزلوا بحضرة الخوز فأخذوا من مكرهم وبخلهم

قال فأهل الحجاز ، قال نزلوا بحضرة السودان فأخذوا من حمقة عقولهم وطربهم

فغضب الحجاج فقال له : اعزك الله لست حجازيا انما أنت رجل من أهل الشام

قال فأخبرني عن أهل الشام ، قال : نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفهم وصناعتهم وشجاعتهم [٨]

(٧) البلدان ٩٢ ــ ٩٣ .

(٨) البلدان لابن الفقيه ١١٤ .

ولعل هذا القول هو الذي نقله النويري دون ان يذكر مصدره فقال :

جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة
وجاور أهل الكوفة أهل السواد فأخذوا عنهم السخاء والغيرة [٩]
وروى المدائني أن عبدالله بن عمر قال :
أهل الحجاز أسرع الناس الى فتنة
وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق في معصية خالق
وأهل العراق أسأل الناس عن صغيرة ، وأركبهم لكبيرة ، يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم[١٠] .

وروى عن سعيد بن عبدالعزيز وسليمان بن موسى قولهم : إذا كان علم الرجل حجازيا ، وخلقه عراقيا ، وطاعته شامية ، فناهيك به [١١] .

وأشار الجاحظ الى فقه الحجاز ، ودهاء العراق وطاعة اهل الشام[١٢] .
وقال سفيان بن عيينة : اذا أردت الحديث الصحيح الاسناد الجيد فعليك بأهل المدينة ، واذا أردت النسك فعليك بأهل مكة

واذا أردت المغازى فعليك بأهل الشام[١٣]
ويروى أن أبا جعفر المنصور قال لمالك :
وأما أهل الشام فأهل جهاد وليس فيهم كثير علم
وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم ، وأنت عالم الحجاز[١٤] .
نسبت الى أيوب بن القرية أقوال أجاب بها الحجاج في وصف أهل

---

(٩) النويري ٢٩٥/١ .
(١٠) انساب الاشراف ٣٧٨/٥ .
(١١) تاريخ دمشق ٣٠٨/١ .
(١٢) لطائف المعارف ٦١/١٥٩ ، ثمار القلوب ٢٤٦ .

أقاليم اسلامية ذكر فيها الأقاليم الأربعة التي ذكرتها المصادر السابقة ، وأضاف اليها ثلاثة أقاليم من الجزيرة هي عمان والبحرين واليمامة . كما اضاف اليهـا الجزيرة وفارس ، فقال :

أهل الحجاز أسرع الى فتنة ، وأعجزهم عنها ، ورجالها حفاة ، ونساؤها كساة عراة

وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ، ولزوم الجماعة
وأهل عمان عرب استنبطوا
وأهل البحرين نبط استعربوا
وأهل اليمامة أهل جفاء واختلاف اراء
وأهل فارس أهل بأس شديد وعز عتيد
وأهل العراق أبحث عن صغيرة ، وأضيعهم لكبيرة .
وأهل الجزيرة أشجع فرسان وأقتل للاقران
وأهل الشام أطوعهم لمخلوق ، وأعصاهم لخالق
وأهل مصر عبيد لمن غلب ، اكيس الناس صغارا ، واجهلهم كبارا

ان هذه النصوص تختلف في عدد الاقاليم التي ذكرتها ، وفي خصـائص أهلها فرواية النويري قصرت على الشام ومصر ، والبـادية ، وروايـة ابـن الفقيه أغفلت مصر ، وذكـرت اليمن والعراق ، اضـافة الى الشام والبادية ، ورواية ابن حبيب شملت اليمن ، والشام ، والعراق ، ومصر والبادية والصفات التي ذكرها ابن حبيب عشرة متناقضات لكل اقليم متناقضان .

ويتفق من ذكر البادية ان فيها الفقر والشفاء ، وان مصر فيها الغنـى والذل ، واليمن فيها الايمان والحياء . اما الشام فان نص ابن الفقيه يذكر ان

---

(١٣) تاريخ دمشق ١/٣١٦ ، البلدان للهمذاني ٤٨٧ .
(١٤) تاريخ دمشق ١/٢٧١ .

فيها الهجرة والموت ، ونص النويري أن فيها العقل والفتنة ، أما ابن حبيب فينص ان فيها النجدة والفتنة ٠

وأما العراق فان نص ابن الفقيه يذكر ان فيه الغني والعي ٠

روى عن عبدالله بن عباس (رض) انه قال :(١٥)

ان الله تعالى خلق البركة عشرة اجزاء ، فتسعة منها من قريش ، وواحد في سائر الناس

وجعل الكلام عشرة أجزاء فتسعة منها في العرب وواحدة في سائر الناس

وجعل الغيرة عشرة أجزاء فتسعة منها في الاكراد وواحدة في سائر الناس

وجعل المكيدة عشرة أجزاء فتسعة منها في القبط وواحدة في سائر الناس

وجعل الجفاء عشرة أجزاء فتسعة منها في البربر وواحدة في سائر الناس

وجعل النجابة عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس

وجعل الصناعة عشرة أجزاء فتسعة منها في الصين وواحدة في سائر الناس

وجعل الشهوة عشرة أجزاء فتسعة منها في النساء وواحدة في سائر الناس

وجعل العمل عشرة أجزاء فتسعة منها في الانبياء وواحدة في سائر الناس

وجعل الحسد عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس

وقسم البخل عشرة أجزاء فتسعة منها في الفرس وواحدة في سائر الناس

وقسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس

وقسم الطرب عشرة اجزاء فتسعة منها في السودان وواحدة في سائر الناس

وقسم الشبق عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس

---

(١٥) النويري ٢٩٣/١ ٠

الاهتمام بخصائص البلدان في العصر العباسي :

تابع العباسيون الأوائل الاهتمام بخصائص الأقاليم ، فنقل الطبري عن اسحاق بن موسى بن عيسى قوله : حدثت عن عبدالله بن الربيع قال : قال ابو جعفر لاسماعيل بن عبدالله صف لي الناس فقال :

أهل الحجاز مبتدأ الاسلام وبقية الناس
وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين
وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة
وأهل خراسان فرسان الهيجاء واعنّة الرجال
والترك منابت الصخور وأبناء المغازي
وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عجابيهم
والروم أهل كتاب وتدين ، نجاهم الله من القرب الى البعد
والأنباط كان ملكهم قدرنجا فهم لكل قوم عبيد[١٦] .

ومن خصائص المدن أقوال في العصر العباسي الأول
فقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة :
قمي من رعون ، ويماني من جنون ، وواسطي من غفلة ، وبصري من جدل ، وكوفي من كذب ، وسوادي من جهل ، وبغدادي من مخرقة ، وخوزي من لؤم ، وطبري من رزق[١٧].

وقال الجاحظ في كتاب الامصار :

(١٦) الطبري ٣/٤٠٢ ـ ٣ .
(١٧) النويري ١/٢٩٥ .

الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والرقة ببغداد ، والعجائب بمصر[١٨] .

وقال ابو حامد القاضي : اعياني ان أرى خراسانياً ذكياً وطبرياً رزيناً ، وهمدانياً لبيباً وبصريا ركيكا ، وكوفيا رئيسا ، وبغداديا سخيا ، وموصليا لطيفا ، وشاميا خفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبدويا ظريفا[١٩] .

وردت من العصر العباسي نصوص عن صفات أهل مدن واقاليم الهضبة الايرانية : ويذكرون بالذات او باسم البلد ومقصودهم أهلها .

فقد حكى عن الجاحظ انه قال : كنا نعلم في المكتب كما نعلم القرآ احذروا : حماقة أهل بخارى ، وغل أهل مرو ، وشغب أهل نيسابور ، وحسد أهل هراة ، وحقد سجستان . وقال في كتاب الامصار :
.. الطرمدة بسمرقند ، والغي بالري ، والجفاء بنيسابور ، والحسد بهراة ، والمرؤة ببلخ ، والبخل بمرو .

وكان يقال : أربعة لا تعرف في أربعة
السخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة في النبط ، والغم في الزنج[٢٠] .

ونقل نشوان بن سعيد عن كتاب الأخبار للجاحظ كلاماً في خصائص الأمم ، فذكر أن أهل الحرف ليس فيهم تفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا معهما خش الخطأ وافراط النص مثل الذي تجد في أديانهم وفي عقولهم عند اختيار الاديان .

ثم ذكر اختصاص العرب في البيان ، واللغة ، وقيافة الاثر ، والشعر

(١٨) النويري ١/٢٩٤ .
(١٩) النويري ١/٢٩٤ .
(٢٠) النويري ١/٢٩٤ .

وصدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وبعد الفهم والمعرفة بمساقط النجوم والعلم بالأنواء وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء ، كما أن لهم خط العربية ، والحفاظ لأنسابهم ، وانعدام العى فيهم ، وحرمة الامهات ، وروعة اللسان ، والبديهة ، والعجب بالخيل وايثارها وارتباطها[٢١] .

ثم ذكر خصائص اهل الهند في الحساب والنجوم والخط الهندي ، وفي الطب ، وحفظ التماثيل ، ونحت الصور مع التصاوير بالاصباغ ، والشطرنج ، وصفة السيوف ، وانواع من الرقص والخفة .

وخصائص الروم في الطب والحكمة والتنجيم وأصول اللحون وصنعة القرسطون وكيان الكتب والتصوير .

أما فارس فمعروفة بالسياسة وترتيب الامور والعلم[٢٢] .

(٢١) الحور العين ٢٢ ــ ٢٢٦ .
(٢٢) الحور العين ٢٢٧ ــ ٨ .

مفاخرات الكوفة والبصرة

تأسست الكوفة والبصرة في زمن متقارب ، وكان الغرض من تأسيسها ايجاد قاعدة لاقامة المقاتلة وعيالاتهم وأن تكون مركزا اداريا يرأسه أمير يمثل الخليفة الذي يوليه ، ويشرف على ادارة المناطق التي فتحها مقاتلة المصر.

والمقاتلة الذين استوطنوهما من عرب الجزيرة الذين احتفظوا بتنظيماتهم القبلية بعد تعديلها بما يناسب الأوضاع الجديدة من تثبيت سلطة الخلافة العليا ، والتوجه العام للفتوح وتثبيت الأمن والنظام ، وقد سكن في كل من الكوفة والبصرة أفراد عشائر واحدة من أهل الحجاز ، وتميم وبكر وعبدالقيس ، وحنيفة ، وكلها عشائر ديارها في الحجاز وفي هضبة نجد .

غير أن الكوفة تفردت عن البصرة بمن سكنها من طي ، وأسد ، وفزارة ، وتغلب ، وبجيلة ، وأزد السراة ، والعشائر اليمانية أما البصرة فتفردت بمن سكنها من أزد عمان ، علماً بأن عدد بني عبدالقيس فيها أكبر من عددهم في الكوفة .

وأدى استقرار العشائر في كل مصر الى تداخلات بينهما طفت على الخلافات القديمة ، وزاد في صهرهما إدراكهما أهمية عملها في توسيع الدولة الجديدة وتثبيتها وتوجيهها .

غير أن الظروف قضت بأن يضطلع أهل كل منهما بواجبات خاصة ، فأهل الكوفة حملوا الواجب الأكبر في مقارعة جيوش الملك الساساني ، فدحروا تلك الجيوش ، وقضوا على ملك الساسانيين ، وبسطوا سلطان الدولة على العراق والأطراف الوسطى والشمالية من الهضبة الايرانية ، وعلى قسم كبير من أراضي الجزيرة الفراتية ، وقد اتموا هذه الأعمال الكبيرة في زمن خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان بن عفان . ويسّر لهم انجاز

ذلك أعدادهم الكبيرة منذ بدء القتال مع الفرس في زمن خلافة ابي بكر أوائل زمن خلافة عمر ، وجلب لهم موارد كبيرة من جباية الأقاليم التي فتحوها والتي كانت تصرف في عطاء المقاتلة . غير أن أعمالهم الحربية تناقصت في زمن خلافة عثمان .

وكانت كثرة سكانها والدور الكبير الملقى على مقاتلتها في الفتوح دافعا لان يصفها عمر «سيدة الأمصار وجمجمة العرب» ، ووصفها بأنها قبة الاسلام ، وقيل انها «كنز الايمان وجمجمة الاسلام وسيف الله ورمحه»[1].

أما مقاتلة البصرة فكان عددهم في البداية أقل من عدد مقاتلة أهل الكوفة ، وكانت جبهتهم ثانوية ، غير أنه سرعان ما ألقى عليهم واجب فتح الأهواز ، ثم التوجه في زمن خلافة عثمان الى فتح أقاليم الهضبة الجنوبية بما فيها فارس وكرمان ومكران ، كما قاموا بفتح خراسان ، وقد تم ذلك بتزايد عدد المقاتلة في البصرة بمن هاجر اليها من مناطق الخليج العربي خاصة.

وكان تمايز جبهات فتوح كل من المصرين ، وادراك مقاتلتهما الواجب المطلوب منهما تحقيقه ، وكثرة الحركات الحربية من أسباب عدم حدوث احتكاك بين أهلهما .

غير ان الاستقرار والتمازج بين أهل كل مصر أوجد تفاهما خاصا بدأ يتغلب تدريجيا على الروابط القبلية ويميز كل مصر .

وقد بدأ أول احتكاك سياسي بين الكوفة والبصرة في معركة الجمل حيث اتخذت عائشة ومن كان معها البصرة قاعدة لهم ، وكان ذلك من اختيار عائشة وليس بدافع كره أهل البصرة لعلي ، وقد دفعت الأحوال أكثرهم لتأييد عائشة ، برغم ان فريقا منهم اعتزل ، وفريقا مال الى علي وقاتل في صفه .

---

(١) فتوح البلدان ١٦٤/١٦٦ .

وقد اعتمد عليّ في القضاء على حركة عائشة ومسانديها على أهل الكوفة الذين انضم عدد منهم اليه بحكم كونه الخليفة المنتخب ، وليس لخصومة أهل البصرة ، غير أن الأحوال دفعت الى خلق خلاف بينهما . ومع أن أصحاب الجمل لم يحضوا بتأييد عام مطلق من أهل البصرة ، وانما وقف فريق منهم على الحياد ، وانضم اليه فريق آخر ، كما أن القتال كان بدافع كره علي ، الا أن الخليفة علياً خطب يهاجم أهل البصرة وكان مما قاله :

« يا أهل البصرة ، يا بقايا ثمود ، ويا جند المرأة ، ويا أتباع البهيمة ، رغا فاتبعتم ، وعقر فانهزمتم ، أما والله اني لا أقول رغبة فيكم ، ولا رهبة منكم ، غير أني سمعت رسول الله (ص) يقول : تفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم الارضين قبلة ، قارؤها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، وعالمها أعلم الناس ، ومتصدقها أعظم الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة . منها الى قرية يقال لها الابلّة أربعة فراسخ ، يستشهد عند مسجد جامعها أربعون ألفاً ، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر »[٢] .

ووصفهم أيضاً « دينكم نفاق ، واخلاقكم رقاق ، وماؤكم زعاق »[٣].
وذكر أن البصرة « لتغرقن أو لتحرقن الا بيت مالها ومسجدها » .

وقد اتخذ الامام عليّ مقامه في الكوفة بعد معركة الجمل، ومع أنه قاتل معه في صفين عدد من أهل البصرة، وانخزع عنه عدد من أهل الكوفة ، وكونوا اعظم جيشه في الكوفة ، الا ان البلبلة التي حدثت بعد قبوله التحكيم أدت الى انشقاق عدد من أهلها عنه ، كما ان مقاتلته المنشقين من الخوارج، ضعفت فيهم الاندفاع القتال مع عليّ ، واستطاع معاوية أن يبسط سيطرته على مصر

---

(٢) عيون الاخبار ٢١٦/١ ، ابن الفقيه ١٧ (مخطوطة مشهد) .
(٣) عيون الاخبار ٢١٧/١ ، ابن الفقيه ١٧ (مخطوطة مشهد) .

والحجاز ثم اليمن وأدى ضعف حماسة أهلها في الاستجابة لدعوة علي في قتال معاوية الى استيائه منهم فخطب مقرعاً لهم وقال :

« ما هي الا الكوفة أقبضها وأبسطها ، ان لم تكوني الا أنت أعاصيرك فقبحك الله .. وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم أما حكم فالحق .. وخيانتكم.. وفسادكم.. أللهم أني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم ، وابدلهم بي شراً مني ، اللهم امت قلوبهم لما يمات المالح في الماء ، أما والله لعددت ان لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم »[٤] .

ولابد أن هذه الحوادث كان لها أثر في غلبة العثمانية على موقف أهل البصرة ، وغلبة العلوية على أهل الكوفة . مما وسّع شقة الخلاف بينهما ، ولكنه لم يؤثر في مجرى الحوادث السياسية ، لأن معاوية عمل على رأب الصدع وجمع «الجماعة» التي انضوى اليها المصران ، وتركزت المعارضة المسلمة في الخوارج ومنهم من أهل الكوفة والبصرة واهل الجزيرة .

وبعد وفاة يزيد حدث تفكك فيالوحدة التي عمل زياد وابنه عبيدالله على تثبيتها ، وبعد تطورات سيطر المختار على الكوفة باسم الشيعة ، واضطهد أشراف الكوفة ، وقرب الموالي ، فتزعزعت مكانتهم ولجأوا الى البصرة التي كان يحكمها مصعب بن الزبير باسم أخيه عبدالله ثم تقدم مصعب بجيش قوامه مقاتلة أهل البصرة ، وقضى على المختار وحركته ، وأعاد الوحدة السياسية الى العراق بمصريه البصرة والكوفة .

وشاركت كل من البصرة والكوفة في حوادث سياسية مشتركة أبرزها مقاومة الخوارج ، وتأييد حركة عبدالرحمن بن الاشعث . وتفردت الكوفة

---

(٤) شرح نهج البلاغة ١/ ١٨٠ .

بموقفها المؤيد لثورات العلويين من دون أن تسهم بدور فعـال في انجاحهـا ، فبالاضافة الى أنها كانت مقام علي بن ابي طالب ابان خلافته ، فان أهلهـا عرفوا بتأييدهم للعلويين ، وحب آل البيت واعتمد الحسين على التأييد الذي أظهروه له ، كما قام فيهم المختار باسم آل البيت ، واتخذ زيد بن علي الكوفة مكاناً له في ثورته على الامويين ، كما كانت الكوفة مركز الدعوة العباسية في مراحلها السلمية الاولى عندما كانت تدعو لجعل الخلافة في آل البيت • كما أن الجيوش العباسية بعد أن أفلحت في السيطرة على خراسان وتقدمت لانتزاع الخلافة من الامويين ، اتخذت مركزها في الكوفة ، ومنها أرسلت الجيوش للقضاء على الخلافة الاموية في الجزيرة الفراتية والشـام ومصر ، وفي تصفية الأمويين في واسط ، وكان مقام أبي جعفر المنصور فيها العامـل الأكبر في عدم توسع ثورة محمد النفس الزكية في العراق •

ومع أن كافة ثورات العلويين التي اعتمدت على تأييد أهل الكوفة لم تحض بالنجاح ، الا أن أهل الكوفة ظلوا معروفين بولائهم لآل البيت ، وكان هذا من أسباب نقل الخلفاء العباسيين مقرهم الى الأنبار ثم الى بغداد بعـد أن أسسوها • علما انه لم يتخذ أي من أولاد علي وأحفاده الكوفة مقامـاً له وان الحركة الفكرية في الكوفة ، ونمو علم الحديث فيها يظهر ان السيطرة في هذه الحركة كانت لأهل السنة ممن يتعاطف مع العلويين ولا يتعصبون لهم•

وظل أهل البصرة من حيث العموم منحرفون عن آل البيت ومؤيـدون للعثمـانية ، وقد وصفهـم محمـد بن ابراهـيم الامـام بأنهم « عثمـانية تدين بالكف ، تقول كن عبدالله المقتول ولاتكن عبدالله القاتل »، ولم يعرف عنهم غير انضمامهم الى عبدالرحمن بن الاشعث عندما قدم البصرة ثائـرا، وقد توجهت معارضتهم الى الخوارج الذين قاموا بحركاتهم خارجها ، واسهم البصريون في القضاء عليها ، علما بان مقاتلتهم تابعت اعمالها في القضاء على

الثورات وبالاسهام في الفتوح وخاصة في جنوب الهضبة الايرانية وفي السند ، كما أمدّوا المقاتلة في خراسان بالرجال .

المفاخرة في الفتوح

كان دور كل من أهل الكوفة والبصرة في الفتوح موضوعا في المفاخرات بينهما ، وقد أشار اليه ابن الفقيه في فصله الواسع عنهما ، فذكر مناظرة جرت في حضرة ابي العباس بين ابي بكر الهذلي ، وكان بصريا ، وابن عياش وكان كوفيا ، ومناظرة اخرى بحضرة المأمون بين أحمد بن يوسف ، واحمد بن هاشم ، وأضاف الى ذلك أقوالا كثيرة وصف معالم كل منهما وأقوال في مدحهما وذمهما ، وتناولت أمورا كثيرة من خصائص كل منهما [5] .

فخر الكوفيون في فتوحهم الاولى ، فقال ابن عياش في حضرة ابي العباس « نحن اعلم بالفتوح ، نحن نفينا كسرى عن البلاد وابرنا جنوده وابحنا ملكه وفتحنا الاقاليم [6] .

ونقل الهمداني عن مصدر لم يذكر اسمه ، أن اهل الكوفة « قالوا : ولنا فتوح وأيام ، فمن فتوحنا الحيرة وبانقيا والفلوجتين ونستر وبغداد وعين التمر ودومة والأنبار ، وما فتحوا مع خالد بن الوليد في مسيرهم الى الشام ، المصيخ وحصيد وبشر وقراقر وسوى وأراك وتدمر ، ثم شاركوا أهل الشام في بصرى ودمشق ، هذا كله في خلافة ابي بكر ، ثم كان من آثارهم في خلافة عمر يوم جسر أبي عبيد ويوم مهران ويوم القادسية ويوم المدائن وجلولاء وحلوان ، هذا كله قبل أن ينزلوا الكوفة ، ثم نزلوها ففتحوا الموصل وأذربيجان وتستر وماسبذان ورامهرمز وجرجان والاينور ؛ ولهم

---

(٥) ابن الفقيه ١٦٧ ؛ وانظر : الجليس الصالح للمعافي النهرواني ، ٤٤٦ .
(٦) ابن الفقيه ١٦٧ — ٨ .

مع أهل البصرة نهاوند ، ولهم بعض الري وبعض اصبهان ، ولهم طميس ونامية من طبرستان » •[7]

الأحوال الجغرافية :

وقد امتدت المقارنة بين البصرة والكوفة الى الأحوال الجغرافية لكل منهما • وأقدم نص وصل الينا في ذلك عن خصائص البصرة مع الماح الى مقارنتها بالكوفة هو قول الأحنف بن قيس عندما قدم في وفد أهل البصرة الى الخليفة عمر ، حيث قال « إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وانا نزلنا سبخة نشّاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها : ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرع ولا ضرع ، تأتينا منافضا وميرتنا في مثل مرىء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما يربق العنز ، يخاف بادرة العدو وأفل السبع ، فالا ترفع خسيستنا وتجبز قافلتنا تكن كقوم هلكوا » •

فالحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء ، وكتب الى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهراً •[8]

وقد روى الطبري هذا الكلام بصيغة فيها بعض الاختلاف عما رواه البلاذري فقال « إن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الفاسقة من العيون العذاب والجنان والخصاب ، فتأتيهم ثمارهم ولم تخضد، وانا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشّاشة زعقة نشاشة ، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج ، يجري اليها ما جرى في مثل مرىء النعامة دارنا فعمة ، ووظيفتنا ضيقة ، وعددنا كثير ، وأشرافنا قليل ، وأهل البلاء فينا

(٧) ابن الفقيه ١٦٥ •
(٨) فتوح البلدان ٣٥٥ ، وانظر ابن الفقيه : البلدان ١٨٩ ، ١٦٦ ، ٣٥٥ •

كثير ، ودرهمنا كبير ، وقفيزنا صغير ، وقد وسّع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها ، فنظر الى منازلهم التي كانوا بها الى ان صاروا الى الحجر فنفلهموه وأقطعهموه ، وكان سائر ما كان لآل كسرى في أرض البصرة على حال ما كان في أرض الكوفة ينزلونه من أحبوا ويقتسمونه بينهم ، لا يستأثرون به على بدء ولا ثنى ، بعدما يرفعون خمسه الى الوالي ، فكانت قطائع أهل البصرة نصفين نصفها مقسوم ، ونصفها متروك للعسكر وللاجتماع ، وكان أصحاب الألفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة الاف ، وكانوا بالكوفة ثلاثين الفا ، فالحق عمر اعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الألفين حتى ساواهم بهم ، الحق جميع من شهد الأهواز » .[٩]

ان نص الطبري يفعل في الأحوال السكانية ومعالجة عمر لها وهو يذكر المقارنة مع الكوفة ، في حين يذكر البلاذري المقارنة مع أهل الامصار .

غير أن النصين يتفقان على ما كانت عليه منطقة الكوفة من الأعمار وكثرة الموارد الزراعية ، ووفرة المياه العذبة .

المياه

تفردت البصرة بكون المنطقة التي تأسست فيها كانت في حينها منعزلة نسبياً بما يحيطها من البطائح في الشمال ، والصحراء في الغرب ، والبحر في الجنوب، ومنطقة الأحواز بما فيها من سباخ وحمى في الشرق ، وأكثر أرضها ملحية سبخة ، ولم تكن قربها مدن كبيرة كالتي كانت قرب الكوفة أو دمشق أو الفسطاط ، ولم تتوفر فيها عند التأسيس المنتوجات الزراعية والصناعية ،

(٩) الطبري ١ / ٢٥٣٩ — ٢٥٤٠ ؛ والمقصود من « أصحاب الألفين » الذين عطاؤهم الفى درهم في السنة ؛ وانظر عن العطاء واضافة كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » .

ولم تكن في منطقتها حركة تجارية واسعة ، ولم تكن اهميتها العسكرية الكبيرة توازي احوالها الاقتصادية المتدنية . والواقع أن القوات الاسلامية التي قاتلت فيها في مطلع أيام الفتوح لم تكن كبيرة كالتي قاتلت في جبهة الكوفة والجبهات الاخرى ، غير أن عبء القتال عليها كان كبيراً ، كما أن عددها سرعان ما تزايد فتطلب معالجته ، وهو ما نبّه عليه الأحنف وأدركه عمر فعمل على معالجته .

قال محمد بن عمير بن عطارد « إن الكوفة قد سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وعمقها ، فهي مرينة جريعة عذبة ثرية ، اذا اتتها الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رصراص الكافور ، واذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد ووروده وياسمينه وأترجه ، وماؤنا عذب ، وعشبنا خصب » .[١٠]

اما مشكلة الماء فهي ذات جانبين أحدهما أن البصرة تأسست بعيدة عن مجرى شط العرب ، وهو النهر الرئيسي ، والثانية هي ملوحة مائها . وقد عولجت مشكلة البعد بشق نهري الابلّة ومعقل ليوصلاها بشط العرب ، أما الملوحة فظلت مشكلة مستعصية العلاج ، خاصة وان الأمطار فيها قليلة .

وقد أشارت عدة أقوال الى أحوال الماء في البصرة ، فقال الخليفة علي بن ابي طالب «أرضكم أبعد الارض من السماء ، وأبعدها من الماء ، وأسرعها خرابا وغرقا » [١١] .

وقال محمد بن عمير العطاردي لعبدالملك بن مروان ان الكوفة «جاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها» [١٢] .

---

(١٠) عيون الاخبار ١/٢٢٠ .
(١١) عيون الاخبار ١/٢١٧ ، ابن الفقيه : البلدان ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(١٢) عيون الاخبار ١/٢٢٠ ، مروج الذهب ٣/١٥١ .

وكان زياد بن أبي سفيان يقول «مثل الكوفة كمثل اللهات يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة كالمثانة يأتيها الماء وقد تغير وفسد» [١٣] ، ولعل ابن عياش اقتبس هذا القول فأجاب به ابا بكر الهذلي عندما فاخره عند أبي العباس السفاح حيث قال «انما البصرة من العراق بمنزلة المثانة من الجسد ، ينتهي اليها الماء بعد تغييره وفساده ، مضغوطة قبل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز وأقلها خيرا ، مضغوطة من فوقها ببطيحتها ، وان كانوا يستعذبون ماءهم ، ولولا ذلك ما انتفعوا بالعيش ، ومضغوطة بالبحر الاخضر في أسفلها، وانما أهل البصرة بمنزلة الرسل لنا ، ومحل الكوفة محل اللهوات واللسان من الجسد ، وموضعها في صدور الارضين ينتهي اليها الماء ببرده وعذوبته ويتفرق في بلادنا ، ويجوز بالعذبة الزكية : الفرات ودجلة ، والبصرة من العراق بمثابة المتانة من الحسد [١٤]».

ولاريب في أن وصول المد اليهم أعانهم على الري وميزهم على الكوفة حيث «ان الماء يغدو عليهم اذا غدوا الى ضياعهم فيأخذونه اذا أرادوا ، وان استغنوا عنه حجبوه[١٥] ، غير أن اكثر ما يأتي من البحر ماء مالح « وبحسبك أن السمك في نهرها لايصبر على ملوحة الماء حتى ينتقل ، فاذا كان سمك البحر لايصبر فكيف ينبغي لذوي العقول ان يفخروا به» [١٦] .

وكان أهل البصرة يعانون من نقص الماء العذب للشرب «فلم ينقطع أعناقهم من العطش ، كلا يشربون حروتين الا بالمنجنون والابل ، فان عطب بعير أو انكسرت منجونة أو ابطأ الموكل بذلك تعطلت السقايات . وانما يقيم لهم الماء ساعة في أول النهار وساعة في آخره ، وما أخذ من أهل البصرة يشرب

---

(١٣) لطائف المعارف ١٦٧ ، عيون الاخبار ١ / ٢٢٠ .
(١٤) ابن الفقيه ١٦٨ .
(١٥) ابن الفقيه ٣٢ (مخطوطة مشهد) .
(١٦) ابن الفقيه ٢٨ (مخطوطة مشهد) .

الماء العذب الا أن يتصدق به عليه ، ومتى كثر عليهم الماء خافوا الغرق وضربوا الفساطيط على المكان الذي يخشونه ، وإن قل عطشوا حتى يمزجوا الماء بالخل من ملوحته ، وان المريض منهم ليقال له ماتشتهي ؟ فيقول الماء العذب ، وهم يسمون ماءنا (الكوفة) الحي ، واذا قدم الغائب وكان طريقه على الماء العذب أخذ منه ليفرقه هدايا على أقاربه وأهله وأخوانه .

ونقل عن ابن عيّاش في مفاخرته لأبي بكر الهذلي أمام ابي العباس السفاح : انما الكوفة مثل اللهاة من البدن ، يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده[١٧] .

وذكر ابن الفقيه « لم يزل أهل البصرة يشربون الماء المالح حتى وليها عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز فحفر لهم نهراً من البطيحة معهم يسمونه نهر ابن عمر وفيه يقول بشّار في شعر طويل :

لا نشرب الماء إلا قال قائلنا
نعم الأمير فداه السمع والبصر
روّى من العذب هامات مودة
قد كان ازرى بهن الملح والكدر

وقد أجمل المسعودي قضية ماء الكوفة والبصرة فقال « ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارها .

منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا : ماؤكم كدر زهك زفر، فقال أهل البصرة من أين يأتي ماءنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحة صاف ، وهما يمتزجان وسط بلادنا ، قال الكوفيون من طباع الماء العذب

(١٧) ابن الفقيه ٢٨ (مخطوطة مشهد) .

الصافي اذا خالط ماء البحر صار جميعا الى الكدورة ، وقد يروق الانسان ماء اربعين ليلة فاذا جعل منه شيئا في قارورة ازبد وتكدر .

وقد افتحر أهل الكوفة بمائهم الذي هو الفرات على ماء دجلة وهو ماء البصرة ، فقالوا ماؤنا أعذب المياه واغذاها ، وهو اصح للاجساد من ماء دجلة ، والفرات خير من النيل ، فأما دجلة فان ماء يقطع شهوة الرجال ويذهب الصهيل الخيل ويذهب بصهيلها ، ولا يذهب بصهيلها الا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وان لم يتدسم النازلون عليها أصابهم نحول في عظامهم ويبس في جلودهم . وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكاد يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والركاء لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها إذ ليست بماء واحد لمصب الأنهار اليها كالزابين وغيرهما ، وسبيل المشروب غير المأكول ، لان اختلاف المأكل غير ضار ، واختلاف الأشربة والنبيذ وغيره من الأنبذة اذا شربه الانسان كان ضاراً ، واذا كان فضيلة ماءنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرةو هو يختلط بماء البحر ومن الماء المستنقع في اصوله القصب الهروى ، وقد قال الله تعالى « هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج « والفرات أعذب المياه عذوبة ، وانما أشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء .

وقد اتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا أخبار الزمان ، وكذلك أتينا على خواص الأرض والمياه فصول السنة وانقسام الأقاليم وما لحق بهذه المعاني في ما سبق من كتبنا على الشرح والايضاح ، وذكر في هذا الكتاب من جميع ذلك ايضا .(١٨)

المنتوجات الزراعية :

ذكر الأحنف أن البصرة تأسست في رقعة ضيقة يحصرها البحر من الشرق والصحراء من الغرب ، وأن أرضها سبخة غير منبتة ولا تكون مراعي للمواشي

(١٨) مروج الذهب ٣/٣٣٠ - ٣٣٢ .

« ليس لنا زرع ولا ضرع » • وانها تستورد حاجاتها من الغذاء وغيره من مسالك ضيقة •

غير أن الضرورات العسكرية قضت بابقاء المدينة حيث تأسست ، ودفعت الى معالجة هذا العيب الخطير الناجم من عدم توفر المنتوجات الزراعية الضرورية لاعالة أهلها ، وقد تم ذلك بعمل جدي واسع في إعمار الأراضي الواقعة على ضفاف شط العرب وفي اطراف البطيحة ، وقد بدأ هذا العمل منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب ، وتوسع في زمن خلافة عثمان ومعاوية ، فشقت الأنهار[1] ، وكسحت السباخ[2] ، واستعملت الأسمدة الحيوانية[3] فوفرت للناس ما يحتاجونه من المواد الغذائية ، وقال خالد بن صفوان « نحن منابتنا قصب ، وانهارنا عجب ، وثمارنا رطب ، وأرضنا ذهب » •

وذكرت المفاخرات « رطب البصرة ، ليس في الدنيا اكثر ولا الذمنة »[4] كما ذكرت فيها رطب الآزاد[5] •

اما الكوفة فذكرت من تمورها المشران والذسيان والهيرون والآزاد والعنبر[6] ، كما ذكر رطب المشان[7] وذكر من اعنابها الرازقي والسوناي والخمري[8] •

التجارة :

واشتغل اهل البصرة بالتجارة التي تطورت كثيرا بعد تكون الدولة

---

(١) انظر : فتوح البلدان ٣٥٦ فما بعد .
(٢) عن كسح في القرن الثالث الهجري انظر : الطبري ٣ /١٧٤٦ فما بعد .
(٣) ابن الفقيه ١٩ ، ٣٦ (المخطوط) ، عيون الاخبار ٢١٧/١ ، البيان والتبيين ٢ / ٩٣ .
(٤) ابن الفقيه ٣٣ (المخطوط) عيون الاخبار ٢٢١/١ .
(٥) ابن الفقيه ١١٦ .
(٦) ابن الفقيه ١٧٥ .
(٧) ابن الفقيه ١٦٦ .
(٨) ابن الفقيه ٣٣ .

الاسلامية ، التي وحدت بلاداً واسعة وأزالت الحواجز المعرقلة ، وارتفع مستوى معيشة السواد الأعظم ، وظهرت مراكز جديدة للاستهلاك ، فكانت دافعاً لانماء الصناعة والعمل والتنقل والنشاط الاقتصادي والتجارة مما كان يقرّه الاسلام وتشجعه الدولة .

وصارت البصرة مركزا لتجارة خراسان وأقاليم جنوب الهضبة الايرانية، وخاصة مع بلاد الحجاز ، ومع العراق ومصر . واشتغل أهلها بالتجارة البحرية .

وقد أنمى كل ذلك الثروة في البلاد ، ولكنها ثروة لاتقوم على منتوجات البصرة ، وانما على المتاجرة مع الأقاليم المنتجة وبذلك تفوقت في هذا الميدان على الكوفة . وقد أشارت بعض نصوص المفاخرات الى ذلك فيروى ان الخليفة علي بن ابي طالب لما قدم البصرة وانتصر في موقعة الجمل خطب الناس وكان مما قاله انه سمع الرسول (ص) يقول انه ستقوم البصرة «وتاجرها أعظم الناس تجارة»[٩] .

وذكروا أن أهل البصرة «أبعد في الارض آثارا ، وأكثر فتوحاً وأبلغ خطيبا ، وأكثر دينا »[١٠].

ووصف خالد بن صفوان الابلّة فقال «ما رأينا أرضا مثل الأبلّة أقرب مسافة ولا أعذب نطفة ولا أوطأ مطية ، ولا أربح لتاجر ولا أحفى لعابد»[١١].

ويروى المسعودي أن الأحنف بن قيس قدم الكوفة في زمن ولاية مصعب بن الزبير ، فجعل يفاخر بالبصرة ، فقال له عبدالملك بن عمير « الكوفة اغذى وأمأ وأفسح وأطيب ، فقال رجل والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة

(٩) عيون الاخبار ٢١٦/١ .
(١٠) ابن الفقيه ١٩ (المخطوطة) .
(١١) عيون الاخبار ٢٢١/١ .

صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لهـا ، فاذا ذكرت حـاجتها فكف عنها طالبها ، وما أشبه البصرة الا بعجوز ذات عوارض موسرة فكف عنها طالبها .

فقال ، الأحنف : أما البصرة فان أسفلها قصب ، وأوسـطها خشـب ، وأعلاها رطب ، نحن أكثر ساجاً وعاجا وديباجا ، ونحن أكثر قندا ونقدا»[١٢].

ويروى أنه قال «نحن أبعد سرية ، وأعظم منكم بحرية ، وأغذى منـكم بريـة »[١٣] .

ويروي هشام بن محمد الكلبي عن ابي عبدالله النخعي أن الحجاج وفد على عبدالملك ومعه أشراف أهل المصرين وتذاكروا عنده البلدان فقال خالد بن صفوان «أصلح الله الامير نحن أوسع منهم (من الكوفة) برية ، وأسرع منهم في السرية ، وأكثر منهم قندا وعاجا وساجا ، ماؤنا صفو ، وخيرنا عفو ، لايخرج من عندنا الا قائد وسائق ونـاعق .

فقال الحجاج أصلح الله أمير المؤمنين اني بالبلدين خبير وقـد وطأتهما جميعا .. أما البصرة فعجوز شمطاء ذفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينـة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة . فقال عبدالملك فضلت الكوفة على البصرة »[١٤] .

ولما تذاكروا عند زياد البصرة والكوفـة قال زيـاد «لو ظلت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها»[١٥] .

---

(١٢) مروج الذهب ٣/٣٣٠ – ١ .
(١٣) عيون الاخبار ٢/٢١٧ ، البيان والتبيين ٢/٩٣ .
(١٤) عيون الاخبار ١/٢٢٠ ، ٣/١٥١ ، لطائف المعـارف ١/٣٥٧ ، ١٠٦ ، ابن الفقيه ١٩٩ .
(١٥) عيون الاخبار ١/٢١٦ .

الازدهار المادي والمعاشي :

وقد أشارت المفاخرات الى ثروة أهل البصرة ورخص الأسعار فيها ففي المناظرة أمام ابي العباس السفاح فخر أهل البصرة بأنهم «أكثر أموالا وأولادا، وأطوع للسلطان وأعرف برسوم الاسلام»[١٦] .

وذكر ابن الفقيه عن رخص الأسعار في البصرة أن «الجائع يأكل خبز الأرز والصحناة ولا ينفق في الشهر الا درهمين ، وان الغريب يتزوج بشق درهم ، والمحتاج لا عيلة له ما بقيت استه يخرا ويسلح .

وذكر ابن الفقيه أن أهل البصرة « أطيب ثمارا وأكثر أشجارا وأكرم أنهارا »[١٧] .

وذكر خالد بن صفوان عن أهل البصرة «يغدوا قانصا فيجيىء هذا بالشبوط والشيم ، ويجيىء هذا بالطير والظليم ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً وبرذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ونهرنا العجب »[١٨] .

وفي البصرة « جعلوا حب الأرز في الموازين ، واربع حبات ارز حبة شعير »[١٩] .

وأشارت المفاخرات الى بخل أهل البصرة ، فذكر الهمداني في ما نقل من المفاخرة أمام المأمون « وليس في الارض بصري يدخل الكتاب الا وله كرسي يجلس عليه لئلا تأكل الارض ثوبه » .

ومن بخلهم أن صاحب باقلى كان في بعض سككهم فاخرجوه وقالوا

---

(١٦) ابن الفقيه ١٦٧ .
(١٧) عيون الاخبار ١/٢٢١ ، ابن الفقيه ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(١٨) ابن الفقيه ١٩٢ .
(١٩) ابن الفقيه ١٦ (مخطوطة مشهد) .

تعلى صبياننا الاسراف ، ويقتلهم بالجوع لانهم يشترون منك بخبزهم لباقلي.

وأخرجوا غريباً كان نازلا في بعض سككهم ، فقال لهم أي شيء أجرمت اليكم ، قالوا تأكل اللحم في كل يوم [٢٠].

وأوردت المفاخرات نصوصاً متناقضة عن دوام الاعمار في البصرة ، فيروي الهمداني عن كعب الأحبار أنه قال لرجل من أهل البصرة « إذا رأيت نخلها قد أطعم فأخرج منها ، قال فان لم أستطع ذاك ، قال فاذا رأيت اجامها قد اتخذت بساتين قال فاخرج منها ، قال فان لم استطع ذلك ، قال اذا تطاول أهلها في بناء المدن فاخرج قال فان لم استطع ، قال فعليك بضواحيها واياك وسباخها فانه سيكون بسباخها خسف » .

وكان كعب الأحبار يقول لتشبعن ابضع من النوم في مسجد البصرة والقرى حولها عامرة .

وقال ابو غيلان : البصرة يسلط عليهم القتل الأحمر والجوع الاعبر .

وكان ابن عمر يقول : البصرة أسرع أرض الله خراباً وأخبثه ترابا .

وقال قتادة لتخربن البصرة وأهلها كثير ، قيل له وكيف ذلك ؟ قال يظهر منافقوها على مؤمنيها فيخرجون منها رجالا وركبانا .

وكان خالد بن ميمون يقول : البصرة أشد الأرض عذاباً وأسرعه خراباً وشره تراباً ، وذكر ايضا « كان أمير المؤمنين (علي) يقول لنفر من البصرة او لتحرقن إلا بيت مالها ومسجدها ، وقال عبدالله الضبعي سمعت عليا (ع) يقول : ويحك بالبصرة لتفرقن او لتحرقن حتى يرى بيت مالك ومسجدك كجؤجؤ العنية » .

وقال في خطبته بعد الجمل « أرضكم أبعد الأرض من السماء ، وأقربها

---

(٢٠) ابن الفقيه ٢٦ (مخطوطة مشهد) .

من الماء ، وأسرعها خراباً وعزقاً »[٢١] .

غير أن المفاخرات تروي نصوحاً عن دوام الإعمار في البصرة .

فيروي عبدالله بن عمرو بن العاص قال ان البصرة « هي أبطأ الأرض خراباً لأنها أقومها قبلة وهي حياد البيت والمقام والحجر وزمزم ، فهي أبطأها خراباً » .

ويروى عن ابن عمر انه قال انها أبطأ الأرض خراباً [٢٢].

وذكر المسعودي « وقد طعن أيضا أهل الكوفة على البصرة فقالوا : البصرة أسرع الأرض خراباً وأخبثها ترابا ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقاً . وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به وكذلك من شرب من دجلة ، وعابوا أهل الكوفة وذكروا عيوبها وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء »[٢٣] .

مراكز الحكم والادارة :

وفخر أهل الكوفة بان مدينتهم كانت مقرا للملوك والأمراء والخلفاء فقال أحمد بن هشام في حضرة المأمون « ومن فضل الكوفة على البصرة ان ملوك العرب والعجم طافوا الآفاق واختاروا البلاد ، فوقع اختيارهم على على الكوفة او ما يقرب منها من ذلك :

الأنبار نزلها دارا بن دارا وجذيمة الابرش .

ومنها بابل نزلها بختنصر ، وبها كان قبله وبعده من الملوك .

ومنها مدائن كسرى نزلها اردشير بابك ومن بعده من ملوك الفرس إلى يزدجرد .

---

(٢١) ابن الفقيه ١٦ ـ ١٧ ، ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(٢٢) ابن الفقيه ١٥ (مخطوطة مشهد) .
(٢٣) مروج الذهب ٣/٣٣٢ .

ومنها الخورنق نزله بهرام جور والنعمان بن الشقيقة وغيرهما من ملوك العرب .

ومنها الحيرة نزلها عمرو بن عدي وولده بعده الى عمر ، وقابوس ابن المنذر ، والنعمان بن المنذر وأياس قبيصة حتى جاء الله بالاسلام .

وانما كانت البصرة منازل نزلها الجند مثل منجشان : صاحب المنجشانية ومن اشهد من السفلة والاتباع[٢٤] .

وذكر ابن الفقيه « ونزل الكوفة من الخلفاء والأئمة علي والحسن ، ومن الملوك والخلفاء معاوية وعبدالملك وابو العباس وابو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد ، وكان بها عمال العراق »[٢٥] .

وقال أحمد بن هشام في مناظرته بحضرة المأمون :

« ولم يزل عمال العراق ينزلون الكوفة يرونها أعذب ماءً وأصفى هواءً وأطيب تراباً .. وما نزلها من امراء العراق أحد الا الحجاج مديدة ، ثم تحول الى واسط ، ومسلمة بن عبدالملك أياماً حين قتل يزيد بن المهلب » .

وأما الكوفة فأكثر الولاة كانوا ينزلونها ويقيمون بها ، ولا يمضون الى البصرة الا لحادثة تحدث او لفتق عدد ، وكان خالد بن عبدالله القسري يسميها الذفراء ، وكذلك يوسف بن عمر .

ولما ولي يزيد بن عمر بن هبيرة العراق لم يخير شيئاً على الكوفة وبنى عند قنطرتها مدينة وسماها الهبيرية ، وهي المعروفة اليوم بقصر ابن هبيرة ، ولم يزل مقيماً بالكوفة حتى جاءت الدولة الهاشمية فتحول الى واسط .

وفي الكوفة ظهرت دولة بني العباس ، وفيها كان وزيرهم وبها عقد ملكهم . ثم نزل المهدي الكوفة وبنى القصر الابيض بالحيرة ، وهو الذي كان

---

(٢٤) ابن الفقيه ٢٦ ــ ٢٧ (المخطوط) .
(٢٥) ابن الفقيه ١٦٥ .

النعمان بن المنذر ينزله . وبنى بها قصر ابي الخصيب على طرف النجف .

ولا يحتج علينا اهل البصرة ان واحدا من ولاة العراق نزلها الا زيادا وعبيد الله ابنه ، فانها كانت وطنهما ومنشأهما ، ولم يكونا على تتنها وملوحة مائها وشدة حرها وكثرة بقها وكدرورة هوائها ، وفساد طينها يطيلان المقام بها ، بل اكثر مقامهما بالكوفة[٢٦] .

الاعلام البارزون :

وكان البارزون ممن نزل المصرين موضوع فخر ، فيروي ابن الفقيه ان مظر بن خليفة افحم قتادة حين قال « دخل الكوفة سبعون بدريا ، ودخل البصرة عتبة بن غزوان »[١] .

وفخر أهل الكوفة برجال تميزوا بصفات محمودة « ومن أسخياءالكوفة هلال بن عتاب وأسماء بن خارجة وعكرمة بن ربعي الفياض. ومن فتيانها خالد بن عتاب ، وأبو سفيان بن عروة بن المغيرة بن شعبة ، وعمرو بن محمد ابن حمزة » .. ومنهم « أشجع الناس الأشتر ، وأسخاهم خالد بن عتاب، واحملهم عكرمة الفياض ، واعبدهم عمرو بن عتبة » .

غير أن البصريين فخروا بأن منهم أحلم الناس الأحنف بن قيس ، وأحملهم بحمالة إياس بن قتادة ، وأسخاهم طلحة بن عبدالله بن خلف ، واشجعهم عباد بن حصين والحريش ، وأعبدهم عامر بن عبد القيس[٢] .

وفي مناظرة الكوفيين والبصريين أمام ابي العباس السفاح فخر البصريون بأشراف في عشائرهم ، وهم الأحنف بن قيس في تميم ، والحكم بن الجارود في عبدالقيس ، ومالك بن مسبع في بكر ، وقتيبة بن مسلم في قيس ، وفخر الكوفيون بمحمد بن عمير بن عطارد في تميم ، وبكل من النعمان بن مقرن ،

---

(٢٦) ابن الفقيه ٢٨ (المخطوط) .
(١) ابن الفقيه ١٦٦ .
(٢) ابن الفقيه ١٦٧ .

وحسان بن المنذر الضبي ، وعتاب بن ورفاء ، وشبث بن ربعي ، وعكرمة بن ربعي التميميان ، وبخالد بن معمر ، وشقيق بن ثور ، وسويد بن منجوف ، وحريث بن جابر ، والحضين بن المنذر ، ومحدوج الذهلي ، ويزيد بن رويم والقعقاع بن شور .

وفخر البصريون امام المأمون باربع بيوتات من بيوتات العرب ليس بالكوفة مثلها : بيت بني الجارود ليس في عبدالقيس الكوفة مثلهم ، وبيت بني المهلب ليس في ازد الكوفة مثلهم ، وبيت بني مسلم (الباهلي) ليس في قيس الكوفة مثلهم ، وبيت بني مسمع ليس في بكر الكوفة مثلهم[٣] .

وقابلهم أهل الكوفة بالفخر ببيت النعمان بن المقرن وحذيفة بن اليمان.

وفخر الكوفيون بفرسانهم في الفتوح ، ومنهم أربعة فرسان قبل الاسلام أيضا وهم عمرو بن معدي كرب والعباس بن مرداس السلمي ، وطليحة بن خويلد الاسدي ، وابو محجن الثقفي ، ثم برز منهم في الاسلام مالك بن الحارث الأشتر النخعي ، وسعد بن قيس الهمداني ، وعروة بن زيد الطائي ، وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي . وابو عبدالله الجدلي[٤]

وفي المناظرة امام المأمون اتهم الكوفيون أهل البصرة بأنهم « فتقوا فتوقا في الاسلام ، وابتدعوا من الضلالة بدعا وبثوا الناحل منارا[٥]» ، وأوردوا على ذلك حوادث فردية منها شهادة ابن ابي بكرة على المغيرة التي ردها عمر بن الخطاب ، وتكذيبهم حديث كلاب الحوأب ، والاقرار بخيانة بعض ولاة الجباية ، وموقفهم في معركة الجمل ، واقرارهم بنسبة زياد الى أبي سفيان دون امه ، وعقدهم حلفا بين الأزد وبكر بعد موت يزيد مما يخالف قول الرسول (ص) « لا حلف في الاسلام » ، وانهزامهم أمام الخوارج،

---

(٣) ابن الفقيه ٣٦ (المخطوط) .
(٤) ابن الفقيه ١٧٠ — ١٧١ .
(٥) ابن الفقيه ٢١ (المخطوط) .

واشتهار بعض أفرادهم في الحمق ومنهم جحشويه وهنبقه ، واشتهار تميم بالبخل وبكر بالكذب ، والازد بالموق ، وطعنوا بتصرفات الأحنف ووصفوها بالحمق(٦) .

وأشار ابن شبرمة الى تباين اخلاق أهل كل من المصرين فقال « لنا (أهل الكوفة) أحلام ملوك المدائن وسخاء أهل السواد ، وظرف أهل الحيرة ، ولكم (أهل البصرة) سفه السند ، وبخل الخوز وحمق أهل عمان »(٧) .

المفاخرات في الاسهام الفكري :

كانت السمة العسكرية هي المميزة لأهل كل من الكوفة والبصرة العرب، فكانوا مقاتلة أنيطت بهم واجبات القتال في الفتوح وتوسيع رقعة الدولة وحماية حدودها وتثبيت الأمن فيها ، وقد قدموا بهذه المسميات وتمجيدها من مواطنهم الاصلية في جزيرة العرب ، وظلوا محافظين عليها ومعتزين بها أمداً غير قصير ، وتجلى هذا بفخرهم في انجازاتهم العسكرية وانتصاراتهم في المعارك واشادتهم بمن برز في الفروسية والشجاعة .

غير أن الاسهام في المعارك ، وتقدير الفروسية ، والاهتمام بالحياة العسكرية لم تقض على ما كانوا يعنون به منذ ايام الجاهلية في الشعر ، والتعبير الدقيق عن المحسوسات ومظاهر الحياة المادية التي تدركها حواسهم من المشاهدات والمسموعات خاصة ، فضلا عن اهتمامهم بالكلم الطيب وتناقله مع أخبار آبائهم والبارزين من معاصريهم ، مما يكون مادة الانساب والتاريخ .

وجاء الاسلام حين اعتنقوه وانضموا الى دولته باطار اضافي جديد للحركة الفكرية واذكاءها . وقد شجعت الدولة دراسة القرآن الكريم ، كما نشطت عوامل متعددة دراسة مواضيع متصلة بالدين الاسلامي االواسع

(٦) ابن الفقيه ٢٢ ــ ٢٣ (المخطوط) .
(٧) ابن الفقيه ١٨ (المخطوط) .

النطاق ، غير ان هذا لم يقض على الميادين الفكرية التي كان عرب الجزيرة يعنون بها ، وتابعوا عنايتهم بعد استقرارهم في الامصار ، مما زاد في نشاطها وتوسعها ، وخاصة بعد تناقص المعارك واستقرار حدود الدولة ، وبذلك نمت جوانب متعددة من الحياة الفكرية وخاصة في الشعر واللغة والأدب ، وفي قراءة القرآن وتفسيره ، ثم الحديث والفقه وأخبار الماضين ، كما جرى اهتمام في بعض قضايا العقائد الدينية والاسياسية ، وشارك في نشر هذه الدراسات وانماءها اعداد كبيرة من الناس ، وبرز في عدد غير قليل من هذه الجوانب أعلام حفظت المصادر اسماؤهم وذكرت مكانتهم وأشارت الى عملهم واسهاماتهم • وكانت الكوفة والبصرة احد المراكز القليلة للحركة الفكرية في الدولة ، منذ صدر الاسلام ، وقد وضع علماؤها فيها اسس توجيهات البحوث في كثير من المواضيع التي ألفت في تطورها مؤلفات كثيرة ، وجرت فيها دراسات حديثة واسعة •

ان قلة المعلومات التي وردت عن العلم والعلماء في مفاخرات الكوفة والبصرة لا تتناسب مع النمو الكبير للفكر فيهما ، ولعل بعض ذلك راجع الى أن العلماء اهتموا بالعلم وتقدمه دون النظر الى مدى الازدهار ، وان علم كل بلد كان مفتوحا للاخرين وليس حكرا لاحدهما ، فعلم البارزين في أية مدينة لم يقتصر تكوينه على علم تلك المدينة ، وانما شارك فيه علماء المدن الاخرى التي رحل اليها أوامه منها الطلبة ، فالمفاخرة في العلم صارت بين فروعه وليس بين رجاله •

ذكرت مصادر المفاخرات اختلاف التوجيهات السياسية بين الكوفة والبصرة ، فكانت الكوفة معروفة بميلها الى العلويين فذكر ابن الفقيه ان من لم يقر بفضل أمير المؤمنين (علي) «فليست الكوفة له بدار»[8] ، وذكر في

---

(٨) ابن الفقيه ١٩٦ •

تعداده مفاخر الكوفة « ليس في الارض بلد جمع أهله على حب بني هاشم الا الكوفة ، وما قتل أحد من بني هاشم أجمع في شرق ولا غرب الا حوله قتلى من أهل الكوفة »[٩] .

وقد عيرهم البصريون بأنهم هم الذين قتلوا علياً وولده وولد ولده ، وأخرجوا الحسن بن علي بعد بيعتهم له حتى قتل ، وأتهم ، غدروا بعلي والحسين[١٠] ، و «غدرهم بعلي والحسن والحسين والولاة»[١١] وبهذا عيرتهم زينب بنت علي وسكينة بنت الحسين[١٢] .

ومما عُيرت به الكوفة ظهور عدد من ذوي الآراء الزائفة من المتنبين ، والمختار بن عبيد الثقفي ، والخناق ، والمغيرة بن سعيد ، وراشد الهجيمي ، وهند الأفاكة[١٣] .

وذكر في المفاخرات عدد ممن أنجبته الكوفة في التقوى والفقه ، ومنهم عبدالله بن مسعود ، وشريح القاضي ، وأويس لقرني ، والربيع بن خيثم ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة ، ومسروق ، وهبيرة بن يريم ، وأبو ميسرة ، وسعيد بن جبير ، والحارث الأعور .

أما البصرة فذكرت المفاخرات عددا من رجال الفكر فيها ففي المفاخرة أمام المأمون ذكر علي بن هشام ان «أهل البصرة أبعد في الأرض اشاراً وأكثر فتوحاً وأبلغ خطياً وأكثر أدباً»[١٤] .

وذكر في المفاخرات للبصرة «فضل عثمان وفضل الحسن البصري ، وابن

---

(٩) ابن الفقيه ٣٠ (مخطوطة مشهد) .
(١٠) ابن الفقيه ١٦٩ .
(١١) ابن الفقيه ١٨٤ (مخطوطة مشهد) .
(١٢) ابن الفقيه ٥٠٤ (مخطوطة مشهد) .
(١٣) ابن الفقيه ٢٠ (مخطوطة مشهد) .
(١٤) ابن الفقيه ١٩ .

سيرين ، ومالك بن دينار ، والخليل بن أحمد »[١٥] .

وذكر أمام المأمون في «النحو والعروض أبو الأسود والخليل» وفي الرواية خالد بن كلثوم ، وابو بكر الهذلي .

ومن خطبائهم صعصعة بن صوحان والقعقاع بن عمرو الأسدي ، ومصقلة ابن رقبة العبدي ، ومحمد بن المفضل السكوني وابنه .

ومن شعرائهم جرير والفرزدق وذو الرمة ويزيد بن الحكم والعجاج بن رؤية ، وابو النجم .

وذكرت في المناظرة الكتاب الذين أصلهم من البصرة وهم صالح بن عبدالرحمن كاتب الحجاج بن يوسف ، والمغيرة بن أبي أوقى كاتب المهلب ، وشيبة بن أعين ، وقحذم مولى ابن بكرة كاتبي يوسف بن عمر ، وهارون بن ياسين كاتب خالد بن عبدالله القسري ، وجبلة بن عبدالرحمن ، والقاسم بن مسلم ، وعبد ربه بن أبي أيوب ، وابن أبي عبيدة ، وعمير بن أبي معن ، والمغيرة بن عطية وأخوه سعيد بن عطية .

أجاب الكوفيون على مفاخرة البصرة فقالوا أن لأصحابهم «الفصاحة في العلم بالقرآن والاعراب به والمعرفة بوجوه القراءات ، حتى ان أكثر القراء يقرأون بقراءتهم» وذكروا أن منهم «الفقهاء والعلماء والأدباء والفصحاءوالنجباء والشجعان والفرسان المذكورون ، والشعراء المعروفون» .

وذكر أن الكوفة من رجالهم حماد الرواية ، والمفضل الضبي وخالد بن كلثوم، وقبيصة بن دؤيب وعبدالملك المعيطي وعبدالله بن عياش الهمداني ، والحجاج بن أرطاة النخعي ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي، وابو مخنف ، والهيثم بن عدي ، والنخار العذري ، وهلال بن كيس الحميري ، وابن لسان الحمي التيمي ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وهشام بن محمد ،

---

(١٥) ابن الفقيه ١٦٦ ، ٢١٩ .

والمنتوف ، والشرقي بن القطامي .

وذكروا من خطباء الكوفة صعصعة بن صوحان ، والقعقاع بن عمرو الأسدي ، ومصقلة بن رقبة العبدي ، ومحمد بن المفضل السكوني .

ومن شعراء الكوفة الشماخ ، ومزرد ، ولبيد ، وعمرو بن شاس ، وضابي البرجمي ، والحطم ، وابو محجن الثقفي وأبو ثمال الأسدي ، وأبو زبيد الطائي ، والنجاشي الحارثي ، وأعشى همدان ، وعمرو بن معدي كرب ، وعدي بن حاتم، وعروة بن زيد الخيل ، وابن مقبل ، والقطامي ، وكعب بن جعيل ، والجحاف بن حكيم ، وغيرهم من الشعراء المجودين .

وذكر ممن أصله من الكوفة من الكتاب زياد بن عبدالرحمن كاتب الحجاج ، ومسعدة وأعون كاتبي خالد العسري ، ويونس بن مروة كاتب يوسف بن عمر، وعبدالجبار بن مغيث والهيثم بن مسلم كاتب عيسى بن موسى، وحماد بن موسى كاتب محمد بن سليمان ، ومنهم كتاب الخلفاء العباسيين الذين لم يكتب لهم أحد من أهل البصرة ، فقد أستكتب المنصور يحيى بن زياد بن عبدالرحمن وضمه الى جعفر ابنه وكذلك عمرو بن كيغلغ وابراهيم ومحمد ابنا حبيش ، وعلي بن يقطين وعمرو بن بزيع كاتب المنصور والمهدي ، ويحيى بن سليمان ومنصور بن زياد ومجاشع بن مسعدة ويوسف بن القاسم كتاب الرشيد ، والحسن بن سهل كاتب المأمون على الخراج ، وعمرو بن مسندة كاتبه على الرسائل ، واحمد بن يوسف على الديوان بالجبل وخراسان، ومحمد بن عمران على ديوان البريد بالافاق ، وثابت بن يحيى(١٦) .



(١٦) ابن الفقيه ٣٥ ـ ٣٦ .

نهاية الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب

عضو المجمع

بداية النهاية في الأندلس

واسباب انهيار الفردوس المفقود

دروس وعبر للعرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم

١ - مع ابي عبدالله محمد ثانية

تبوأ أبو عبدالله محمد بن السلطان علي أبي الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية، عقب عودته من الأسر بنحو عام، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة، وكان المفروض فوق ذلك أن يحكمها بأسم ملك قشتالة وتحت حمايته، وكانت الخطوب والفتن التي توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة، مختلفة الرأي والكلمة، ينضوي بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية والغربية، وينضوي بعضها الآخر تحت لواء عمه محمد بن سعد (الزّغل)، وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية. وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتزّ بيد القدر، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية، مثل الحامة ورندة ولوشة وباش مالقة وغيرها. وكان ملك قشتالة يحرص على المضي في تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دول الإسلام في الأندلس، قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة. وكان من الطبيعي أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التي يسيطر عليها مولاي الزّغل لأن الزّغل لم يكن يدين بطاعته، وكان يبدي في مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو، ولأنه من جهة أخرى

* نهاية الاندلس (١٧٤ - ٢٠٠).

كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهود مسحة من الوفاء ، واخيراً لانه كان يريد أن يعزل غرناطة . وأن يطوّقها من كل صوب ، قبل أن يسدّد إليها الضربة الاخيرة •

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بلش حصن مالقة من الشرق في يد النصارى ، بعد دفاع عنيف (في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ ــ أيار ــ مايو ١٤٨٧م) • وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها ، وتفرقوا في أنحاء الأندلس الاخرى الباقية بيد المسلمين ، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ، ومنها حصن قمارش وحصن مونتميور ، واستطاعوا بذلك أن يشرفوا على مالقة من كل صوب • وكانت مالقة ماتزال أمنع ثغور الأندلس ، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب ، وكان فرديناند يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الإمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير ، وكان الإستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية ، ومن ثم فإنه ما كاد النصارى يظفرون بالإستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك (في جمادى الثانية سنة ٨٩٢ هـ ــ حزيران ــ يونيه ١٤٨٧م) • وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين ، وعلى رأسهم نخبة ممتازة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعُدد الثقيلة • وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد (الزّغل) صاحب وادي آش ، ولكنه لم يستطع أن يسير إلى إنجادها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسّراً وأسى • ولكنه فكر في وسيلة أخرى لعلها تجدي في إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، وهي أن يستغيث بملوك الإسلام بقطع هذه الإمداد بكل الوسائل • ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة من الثغور بيد المسلمين سوى ألمرية والمنكب ، واليهما كانت تفد جموع المتطوّعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما

عن شاطيء العدوة ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمالي افريقية .، وقضى فرديناند قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، يعمل على تطهير منطقة مالقة والاستيلاء على ما بقي من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعا ، ولم يبق منها بيد المسلمين شيء •

وفي ربيع سنة (٨٩٣ هـ ــ ١٤٨٨م) زحف فرديناند على أطراف مملكة غرناطة الشرقية ، وكانت لبعدها عن العاصمة ، أقل استعداداً للدفاع ، واستولت هذه الحملة باستيلاء النصارى على بيرة ، والبلشين ، وأشكر[١] وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وذلك بالرغم من أن أهلها كانوا داخلين في الصلح المعقود مع أبي عبدالله ، وكان على ملك قشتالة لو أنه أوفى بعهده ، أن يتركهم حتى ينتهي أمد الصاح المذكور[٢] ، وهناك عهد أصدره الملكان الكاثوليكيان لأهل أشكر ، هو نموذج لباقي العهود التي صدرت لباقي البلاد المستولى عليها في هذه المنطقة ، وفيه يتعهد الملكان بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شيء من امتعتهم أو يصيبهم أيّ مكروه ، وألا يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على محاربة اخوانهم مسلمي غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم وعوائدهم وشريعتهم ، وأن يحق لهم الإقامة في أي جزء من مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور الى المغرب أحراراً دون أي قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً وأناثاً بالرفق والكرامة ، وألا يغصبهم أحد في دورهم

---

(١) بيرة ، وفي الاسبانية : (Vera) تقع شمال شرقي المرية على مقربة من البحر الابيض المتوسط ، والبلشان هي بلش الحسناء (Velez Rubio) وبلش البيضاء (Velez Blanco) ، وهما تقعان شمال شرقي مدينة بسطة (Baza) ، واشكر هي بالاسبانية (Huescar) تقع شمال غربي البلشين .

(٢) Gasper y Remiro ; Ibid; P. 43.

أو يسيىء اليهم أو يتلف شيئا من أمتعتهم ومحاصيلهم ، وألا يعاشر نصراني مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر املاكه ، وأن يدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم العمل في بناء حصن المدينة[٣] ، وسنرى فيما يلي من الحوادث أن الملكين الكاثوليكيين يغدقان أمثال هذه العهود لسائر البلاد المستولى عليها ، ولكن دون أية نية صادقة في الوفاء بها ، بالعكس فالنية هي الغدر ، وويل للمغلوب .

وفي الوقت الذي اقتربت فيه القوات القشتالية من مدينة بسطة ، أمنع قاعدة في ولايات غرناطة الشرقية ، لتضرب حولها الحصار ، سار فرديناند في بعض قواته إلى ثغر المنكب[٤] ، الواقع في منتصف المسافة بين مالقة وألمرية ، وحاصره ، وكان يدافع عنه القائد محمد بن الحاج . ومع أنه لم يك ثمة شك في النتيجة المحتومة ، فقد دافع المسلمون عن ثغرهم ، واعتصموا به نحو ثلاثة أشهر ، وكبدوا القشتاليين بعض الخسائر . ثم وقعت المفاوضات في التسليم، وصدر الملكان الكاثوليكيان للقائد ابن الحاج ومعاوقه الفقيه أبي عبدالله الزليخي ، عهداً خلاصته : أنه اذا سلّم القصبة وكل حصونها في ظرف تسعة أيام ، فإنه يقبل هو وولده وصحبه وقرباه ، كما يقبل الوزراء والقواد والفقهاء وسائر أهل المنكب بين رعايا قشتالة ، وانهم يتركون آمنين في ديارهم وأنفسهم وأموالهم ، ويحتكمون إلى شريعتهم ، وتترك لهم مساجدهم وصوامعهم ، ولا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم إلا طلقات البارود ، وأنه إذا تم التسليم في الموعد المذكور ، فأنه تقدم الى القائد هبة قدرها ثلاثة آلاف دوبلا قشتاليا ، وأنه إذا شاء العبور الى المغرب مع ولده وأسرته ، فإنه تقدم اليه سفينة حسنة للجواز فيها مع سائر متاعه دون كراء أو مغرم ، وأنه لا تمس أملاك الأهالي

(٣) تحفظ هذه الوثيقة ببلدية اشكر ، انظر مجموعة Vol. VIII, P. 170 - 173. Documentos Ineditos Para la Historia de Espana.

(٤) المنكب : وهي بالاسبانية (Almunecar) .

ولهم بيعها أو قبض ريعها أذا عبروا الى المغرب • وهكذا سلّم ثغر المنكب الى القشتاليين في شهر (محرم سنة ٨٩٥ هـ ــ كانون الاول ــ ديسمبر سنة ١٤٨٩م) ، ولم يبق للمسلمين من الثغور سوى ألمرية التي طوقها العدو في نفس الوقت بقواته ، وأصبحت تحت رحمته وشيكة التسليم •

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمالي افريقية ، بدأ فرديناند بتنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقى في الداخل من المملكة الاسلامية • وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا الى شطرين : الأنحاء الشرقية وتشمل وادي آش وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبدالله محمد بن علي ، فقرر فرديناند أن يبدأ بالإستيلاء على الأنحاء الشرقية ، وأن يقضي أولا على سلطان أبي عبدالله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديد بأسه • فما كاد ينتهي من اخضاع ثغر المنكب وتطويق ثغر ألمرية ، حتى قرر تضيق الخناق على مدينة بسطة ، وكانت قواته تطوقها حسبما تقدم ، وكانت الملكة إيزابيلا مع حاشيتها في جيّان على مقربة من الجيش الغازي ، وكانت بسطة أهم القواعد الشرقية التي يسيطر عليها مولاي الزّغل بعد وادي آش مقر حكمه • ولم يستطع الزغل مغادرة مقر حكمه في وادي آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبدالله في غيبته فأرسل اليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة صهره الأمير يحيى النيار الذي تعرفه التواريخ القشتالية : «بسيدي يحيى» • وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها ، فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية مني فيها النصارى بخسائر فادحة • ومع أن النصارى بدأوا هجومهم على بسطة في (شهر رجب سنة ٨٩٤هـ ــ حزيران ــ يونيه ١٤٨٩م) ، فأنهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية الا بعد ثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن اتخذوا في عدوهم غير مرة ، واستنفدوا قواتهم المدّخرة • وضيق النصارى الحصار على

بسطة لمدة ثلاثة أشهر أخرى ، حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً • وقلّت الأقوات واشتد الكرب • ولما رأى المسلمون أنه لم يبق في الدفاع ثمة أمل ، وقد نفدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامة ، اعتزموا مفاوضة القشتاليين في التسليم • وبالرغم مما أبداه زعيمهم يحيى النيار في البداية من براعة في تنظيم الدفاع عن بسطة وألمرية ، وبالرغم مما ابداه من بسالة في المعارك التي نشبت ضد القشتاليين ، فإنه في النهاية رأى أن يترك هذا الصراع اليائس ، وأن يفوز من المعركة بأحسن مما يستطيع لنفسه وذويه • وهذه هي الوثيقة السرية التي عقدها القائد يحيى مع مندوب الملك فرديناند الدون جوتيري دي كارديناس ، تعرض لنا بمحتوياتها المثيرة صورة من ذلك الدرك المؤلم الذي يدفع اليأس اليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حياة حافلة بالاخلاص والبسالة ، تحت إغراء العدو وهباته ، خونة مارقين مرتدين • وقد حررت هذه الوثيقة في المعسكر الملكي قرب مدينة ألمرية في (٢٥ كانون الثاني ــ ديسمبر ١٤٨٩م) ، وفيها يؤكد فرديناند للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية ، بأنه سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم في داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطبا يحيى : « وانه اذا صحّت عزيمتكم حقا على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمني وتعاونني برجالك ، فاني سوف أكتم ذلك طول مدة السيطرة على بسطة ، حتى لا يتقوّل عليك رجالك ، ولهذا فانك تستقبل التعميد المقدس سراً في غرفتي ، حتى لا يعرفه المسلمون الا بعد تسليم وادي آش وان الكروم والقرى والحصون التي تؤول لك بالميراث عن والدك أمير ألمرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدي لك بذلك أنا والملكة زوجي • وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك أي مغرم أو جزية في سائر مملكتي الى الابد • وانه تشريفا لشخصك ، يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارسا مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم

حيث شئت في أنحاء مملكتي ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك . وانه اذا تنازل صهرك لملك وادي آش عن نصف الملاحات التي أهبها اليه ، فأني أهبك دخلا قدره خمسمائة وخمسون ألف مراقيدي من ملاحات دلاية ، وفضلا عن ذلك فانه اذا تم تسليم وادي آش في الموعد المتفق عليه ، فاني مكافأة لك على جهدك في خدمتي لدى ملك وادي آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات بما تقدم (٥) .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان في نفس الوقت لأهل بسطة ، باقرار ما طلبوا من الشروط ، وفي مقدمتها : أن يؤمنوا في النفس والمال ، وأن يحتفظوا بدينهم وشريعتهم وعوائدهم . وهكذا سلّمت بسطة ، ودخلها النصارى في (العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ ـ أوائل كانون الاول ـ ديسمبر ١٤٨٩م) وغادرها معظم أهلها الى وادي آش ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة الى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى ، وسلّمت ألمرية بعد ذلك بقليل (ربيع الاول ٨٩٥هـ ـ شباط ـ فبراير ١٤٩٠م) ، ومنحت للتسليم شروطا خلاصتها : أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ، وألا يولى عليهم يهودي ، وألا يدخل في الجماعة» ، وأن يختار الاولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذي يريدون عند البلوغ ، وغير ذلك من المنح المغرية الخادعة التي بذلت لسائر البلاد المسلمة المستولي عليها. وهكذا بسط فرديناند سلطانه على قواعد الاندلس الشرقية كلها من البحر الى الشمال ، ولم يبق خارجا عن طاعته غير وادي آش مقر مولاي الزّغل .

ولم تمض أسابيع قلائل ، حتى أثمرت خيانة يحيى النيار ثمرتها لدى صهره أبي عبدالله الزّغل ، فسارع بدوره الى الإنضواء تحت لواء ملك

(٥) Archivo General de Simancas ; P. R. 11 - 11.

النصارى ، وكان الزّغل منذ التجأ الى وادي آش ، يرقب سير الحوادث بجزع ، ويرى قواعد الاندلس تسقط بالتعاقب ، دون أن ينجدها منجد ، ويرى أمل الأنقاذ يخبو تباعاً . فلما سقطت بسطة آخر القواعد التي يسيطر عليها ، واتجه النصارى نحو وادي آش معقله الوحيد الباقي ، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل ، وأن جيوش النصارى تحيط به من كل صوب ، اعتزم أمره ، وسار الى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته والانضواء تحت لوائه ، فأجابه فرناندو الى مطالبه ، وبايعه الزّغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة ، ودخل النصارى مدينة وادي آش (في أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ ـــ ٣٠ كانون الاول ـــ ديسمبر ١٤٨٩م) . وعقد الزّغل مع ملكي قشتالة معاهدة سرية على غرار المعاهدة التي عقدها صهره يحيى ، ونص فيها على طائفة من المنح والامتيازات ، خلاصتها أن يستقر الزّغل سيداً في مدينة أندرش وما اليها ، وأن يكون له ألفا تابع من بني وطنه ، وأن يمنح معاشاً سنوياً كبيراً ، وأن يمنح دخل نصف ملاحات مدينة الملاحة ، وأن يرسل في استحضار أبنائه الأمراء من غرناطة نظراً لخصومته مع ملكها ، وأن تكون جميع أملاكه واملاك ذويه في غرناطة حرة من كل حق ومغرم ، وأن تكون هذه العهود ملزمة لملكي قشتالة ولعقبهما من بعدهما ، وأخيراً أن يوافق البابا على هذه العهود .[٦] بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى شعر مولاي الزّغل أنه يستحيل عليه الاستمرار في ذلك الوضع المهين ، فنزل لفرديناند عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم ، وجاز البحر الى المغرب ، ونزل في وهران اولا ، ثم انتقل الى تلمسان ، واستقر يقضي بها بقية حياته في غمرات من الحسرات والندم ، ولبث عقبه هنالك قروناً يعرفون ببني سلطان الأندلس،

---

(٦) Archivo General de Simancas.. P. R. 11 - 12. وانظر ايضا :
. Gaspary Remuro ; Ibid P. 48

وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام في الأندلس قد غدت قضاء محتوما .[7]

وقد نقل الينا صاحب أخبار العصر ، رواية مفادها : أن تسليم مولاي الزّغل لملك قشتالة ، كان نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التي كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكي ينتقم الزّغل من ولد أخيه الأمير أبي عبدالله محمد بن علي صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر انحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم اليهم ، وينتهي بذلك امارة أميرها وحكمه[8] وهي رواية لا تتفق مع مآثر الزّغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الاسلامية ، التي رأيناها ماثلة خلال معاركه المشرّفة ، وإنما استسلم الزّغل وخضع ، وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، نزولاً على حكم ظروف قاهرة ، لم ير الى مغالبتها سبلا .[9]

الصراع الاخير

١ . مع ابي عبدالله محمد اخيرا

لم يبق على ملكي قشتالة وأراغون ، فرديناند وايزابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الاندلسية الجنوبية والشرقية ، لاتمام خطتهما في القضاء على دولة الاسلام بالاندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة ، آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ، ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة او دولة ، بل

---

(٧) اخبار العصر (٣١) ونفح الطيب (٢/٦١٣ ـ ٦١٤) ، وانظر :
. Prescott, Ibid. P. 285

(٨) اخبار العصر (٣٢) .

(٩) نهاية الاندلس (٢٠١ ـ ٢١٤) .
Documentos Arabes de la Corta Nazario de Granada.

كانت رمزاً للدولة الاسلامية الذاهبة فقط ، وكانت واسطة عقد تصرّمت سائر حبّاته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً ، فلم يكن يقتضي إطفاؤه سوى الضربة الاخيرة .

وقد رأى فرديناند وإيزابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة ، عقب استسلام مولاي الزّغل وسقوط وادي آش وبسطة وألمرية . ونحن نعرف أنه على أثر سقوط مدينة لوشة في يد النصارى في (شهر مايس ــ مايو سنة ١٤٨٦م) ، وحصول أبى عبدالله في أيدي الملكين الكاثوليكيين للمرة الثانية ، عقد أبو عبدالله معهما معاهدة صلح جديدة لمدة عامين ، تطبق في غرناطة والبلاد التي تدخل في طاعة أبى عبدالله . وفي ظل هذا الصلح المسموم ، دخل أبو عبدالله غرناطة ، واسترد العرش ومن ورائه تأييد فرديناند وعونه . ومن الواضح أن فرديناند قد قبض نصوص هذا الصلح ، ثمن التأييد والعون . والظاهر أن هذا الصلح قد تجدد لمدة عامين آخرين ، حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبى عبدالله نفسه (في المحرم سنة ٨٩٥هـ ــ كانون الاول ــ ديسمبر ١٤٨٩م) وهي عبارة عن خطاب موجه منه الى قادة وأشياخ بلدة أجيجر ، وفيه ينوّه أبو عبدالله بهذا «الصلح السعيد» المعقود لعامين ، ويدعو الى الدخول فيه ، وينعى على معارضيه مواقفهم ، التي انتهت بسقوط بسطة : «التي أفجعت المسلمين ، وفلّت غرب الدين»[١٠] .

وبالرغم من أننا لانعرف نصوص هذا الصلح مفصّلة ، فان بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبدالله قد تعهد في هذا الصلح بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين متى تم تسليم بسطة وألمرية ووادي

---

(١٠) نشر هذه الوثيقة حسبار ريميرو في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه . وقد استخرجها مع وثائق أخرى صادرة عن أبي عبدالله من مجموعة فرناندو دي ثافراسكرتير الملكين الكاثوليكيين .

آش[11] . وعلى أي حال ففي فاتحة سنة (١٤٩٠م) ـ أوائل صفر (٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان الى السلطان أبي عبدالله سفارة على يد فارسين هما : كونثالوا ـ فرنانديث قائد حصن إليورة ، ومرتين ألاركون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه في موضوع التسليم [12] . وتقول الرواية الاسلامية المعاصرة : ان ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب الى أبي عبدالله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقيما في غرناطة ، في طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحي الاندلس[13] ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الاندلس يختار الاقامة فيها ، وأن يمده بمال جزيل [14] .

فماذا كان جواب أبي عبدالله ؟ لقد كان في سابق مواقفه ، وممالأته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ، ودخوله في طاعته ، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمل الملكين الكاثوليكيين ، على توقع استسلامه وخضوعه ، ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . ولدينا وثيقة توضح لنا موقف أبي عبدالله في هذه المناسبة ، هي عبارة عن خطاب صادر منه الى الملكين الكاثوليكيين ، يشير فيه الى قدوم « القائد غنضال والقائد مرتين » بكتبهما اليه ، وأنه يرسل اليهما خديمه « القائد أبا القاسم المليح » ليحدثهما في هذا الموضوع . وبالرغم من اللهجة المهذبة ، المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة ، التي اختتمت بها الرسالة ، فقد كان جواب أبي عبدالله للملكين الكاثوليكيين ، رفضاً لما طلباه ، وتاريخ هذه الرسالة هي

(١١) Prescott : Ferdenanand Isabella, P. 284 .

(١٢) راجع رواية Fernando de Baeza القشتالية المنشورة بعناية المستشرق ميللر ضمن اخبار العصر (ص ٩٢) .

(١٣) اخبار العصر (٣٣) .

(١٤) نفح الطيب (٦١٤/٢) .

(٢٩ صفر سنة ٨٩٥ هـ — ٢٢ كانون الثاني — يناير ١٤٩٠م)[١٥] . والظاهر أن رسول أبي عبدالله لم ينجح في مهمته ، وعاد الى مليكه ليخبره بأصرار الملكين الكاثوليكيين على طلبهما . وهنا تقول الرواية القشتالية : أن أبا عبدالله اشتدت دهشته ، لاصرار الملكين الكاثوليكيين واعتزم أن يشهر عليهما الحرب لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث . وعلى ذلك فقد أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كماشة ، ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة ، له علائق طيبة بالنصارى ، يدعى ابراهيم القيسي ، الى الملكين الكاثوليكيين في اشبيلية ، لاقناعهما بالعدول عن مطلبهما ، ولكنهما عادا خائبين ، وعلى ذلك فقد استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى .[١٦]

وهنا نقف قليلا لنتأمل في هذا الموقف الجديد ، من جانب أبي عبدالله . لقد كانت الخطوب والمحن التي جازتها الاندلس في تلك الاعوام المليئة بالحوادث الجسام ، قد جعلت من أبي عبدالله رجلا آخر ، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ؛ وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوي ، ولكنه فقد في الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة ، وكانت سائر قواعد الاندلس الاخرى قد غدت نهائيا من أملاك دولة قشتالة ، وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن أهلها الباقون فيها او غدوا مدجنين (Mudéjaxes) يدينون بطاعة ملك النصارى ، وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أوأتقاء الريب والمطاردة ، ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر الى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة منهم الى غرناطة معقل الاسلام

---

(١٥) نشرت هذه الرسالة ضمن المجموعة التي نشرها جسبار ريميرو في كتابه السالف الذكر .

(١٦) راجع رواية Hexnando de Baeza المنشورة في أخبار العصر (ص ٩٣).

الوحيد الباقي ، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم بين أسوارها وأرباضها أكثر من اربعمائة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التي أوذيت في الاوطان والانفس والولد والمال ، دون أن تجني ذنبا أو جريرة ، وكانت فكرة التسليم للمد الباغي أو مهادنته ، تلقى استنكارا عاما . ولم يكن أبو عبدالله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد اليه سفيرا ملكي قشتالة في طلب التسليم ثارت نفسه لهذا الغدر والتجني ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بني وطنه ودينه . ولما أمر فرديناند على تجنيه ، جمع أبو عبدالله الكبراء والقادة ، فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم(١٧) ، وأبلغ أبو عبدالله ملك قشتالة بأنه لم يعد له القول الفصل في هذا الامر ، وأن الشعب الغرناطي يأبى كل تسليم أو مهادنة ، ويصمم على المقاومة والدفاع (١٨) .

هكذا كان جواب أبي عبدالله لملكي قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الاستكانة والمهادنة الى التحدي والمقاومة . وهنا يبدو لنا أبو عبدالله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام والخضوع الذي يقرب من الخيانة ، لتتشح بثوب من العزة والكرامة ، والحمية الدينية والوطنية . ودوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سرايا من المسلمين لتعيث في الأراضي النصرانية القريبة . وفي ربيع سنة (٨٩٥هـ — ١٤٩٠) خرج ملك قشتالة بقواته وهو يضطرم سخطا ، وزحف على بسائط غرناطة ، فعاث فيها ، وانتسف الزرع واسقاط الماشية ، وخرّب الضياع والقرى ، ووصل في عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها .

---

(١٧) اخبار العصر (٣٤) ونفح الطيب (٢/٦١٤) .

(١٨) Prescott : Ibid ; P. 290 .

وبرز المسلمون لقتاله ، وعلى رأسهم أبو عبدالله ، ووقعت بين الفريقين في ظاهر غرناطة عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها • ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب ٨٩٥هـ تموز ١٤٩٠م) ، وعمد فرديناند حين العودة الى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرهما ، وشحنها بالرجال والعدد استعدادا للمعارك القادمة •

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبدالله في قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت في المسلمين في تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرات (البشرة) وما حولها على حكامهم النصارى ، وثار أهل وادي آش في الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبى عبدالله وعزمه بنزعة جديدة الى المقاومة ، وبعثوا اليه يطلبون عونه • وسار أبو عبدالله بقواته يريد حصن أندرَش[١٩] لما علمه من ثورة المسلمين هناك ، وكان عمه محمد بن سعد (الزّغل) لايزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه الى ألمرية ، وبقى بها الى أن جاز البحر الى المغرب كما ذكرنا ، واستولى أبو عبدالله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة منها[٢٠] ، ورتّب فيها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٨٩٥هـ) •

واستمرت هذه المعارك المحلية سجالا مدى حين بين المسلمين والنصارى، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادر الفرسان المسلمون ، اذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعا • وفي شهر رمضان من سنة (٨٩٥هـ) ــ (آب ــ اغسطس ١٤٩٠م) خرج أبو عبدالله في قواته الى قرية همدان القريبة[٢١] ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا

---

(١٩) اندرش : Andarax جنوب شرقي غرناطة على مقربة من البحر الابيض.

(٢٠) أخبار العصر (٣٦ ــ ٧٣) .

(٢١) تقع قرية همدان جنوب غربي غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها، وهي (Alhendin) ، انظر الخريطة .

يخشون أن تمتنع عليهم لكثافتها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون الى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل . وفي أواخر رمضان ، خرج أبو عبدالله في قواته يريد افتتاح ثغر المنكب ، واعادة الصلة بين الاندلس وشواطىء المغرب ، وهي صلة يعلّق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبدالله في طريقه على حصن شلوبانية[٢٢] الواقع شرقي المنكب بعد قتال عنيف ، وعلم النصارى بمحاولة أبي عبدالله ، فهرعت حاميات بلش ومالقة الى المنكب لإنجادها . ورأى أبو عبدالله أنه لايستطيع مهاجمتها ، وترامت اليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده الى مرج غرناطة يعيث فيه فسادا وتخريبا ، فارتد أدراجه . وكان فرديناند قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدع في المناطق والمستولى عليها ، فاعتزم السير من قرطبة بجيشه الى تلك الأنحاء . والواقع أن بوادر الانتقاض والثورة كانت قد اشتدت في وادي آش وما حولها من الضياع والقرى ، وأخذ ظفر المسلمين في تلك المعارك المحلية يذكي عزم الثوار ويشجعهم . وخشي النصارى عواقب هذه الحركة ، فضاعفوا قوى الحاميات في تلك الأنحاء ، واحتالوا على أهل وادي آش ، فأخرجوا معظمهم من المدينة الى السهول المجاورة[٢٣] ، واستجاب أبو عبدالله الى نداء أهل وادي آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والأموال الى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وما كادت جموع المسلمين ترتد راجعة الى غرناطة ، حتى ظهر فرديناند بجيشه أمام وادي آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللّين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد الى وطنه ، وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر

---

(٢٢) بالاسبانية (Salobrena) .

(٢٣) Lafuemte Alcontara ; Ibid ; V. III. P. 53.

المسلمون وادي آش وأعمالها •وحدث مثل ذلك في ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت جموع غفيرة الى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر الى المغرب ، وأقفرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ، وبعث اليها ملك قشتالة بجموع من النصارى لتعميرها ، فانتهز أبو عبدالله فرصة هذا الاضطراب ، فاستولى على حصن أندرش للمرة الثانية،واستولى على عدد آخر عن الحصون الهامة[٢٤] وقد أيقن ملك قشتالة أنه لابد لاستتباب الامور في المناطق الأسلامية المفتوحة ، من الاستيلاء على غرناطة التي ما زالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة في تلك الاوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله من سنة (١٤٩٠م) في الاستعداد والاهبة • وفي أوائل سنة (١٤٩١م) خرج فرديناند في قواته معتزما أنه يقاتل الحاضرة الاسلامية حتى ترغم على التسليم • ويقدر بعض المؤرخين هذا الجيش الذي أعد للاستيلاء على غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره بعضهم الاخر بثمانين ألفا[٢٥] وزوّد فرديناند جيشه بالمدافع والعدد الضخمة والذخائر والأقوات الوفيرة • وأشرف لملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة (Le Vega) الواقع جنوب غربي الحاضرة الاسلامية في اليوم (الثالث والعشرين من نيسان ــ أبريل سنة ١٤٩١م ــ ١٢ جمادي الثانية ٨٩٦هـ) وعسكر على ضفاف نهر شنيل ، على قيد فرسخين من غرناطة في ظاهر قرية تسمى : « عتقة » • وأرسل في الحال بعض جنده الى حقول البشرات القريبة التي تمد غرناطة بالمؤن فأتلفوا زرعها وهدموا قراها ، وأمعنوا في أهلها قتلا

---

(٢٤) اخبار العصر (٣٨ ــ ٤٨) ونفح الطيب (٢/٦١٤) ، وانظر : Prescott ; Ibid ; P. 290 - 291 ، ويوجد فرق يسير بين الروايتين الاسلامية والنصرانية في التفاصيل •

(٢٥) Prescott : Ibid ; P. 291 .

وأسرا ، وحولوا المرج الأخضر الى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة موردا من أهم مواردها [٢٦] •

وضرب فرديناند حول الحاضرة الاسلامية الحصار الصارم ، وصمم على استمراره حتى يستولي عليها أو تستلم ، وقرر تأكيدا لهذا العزم أن ينشيء لجيشه في المكان الذي عسكر فيه ، مدينة مسوّرة تقيه برد الشتاء اذا ما حل، وتم بناء هذه المدينة الجديدة في ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة ايزابيلا (سانتافي Santa Fé) وبالعربية (شنتفي) أو الايمان المقدس ، وذلك تنويها بالمغزى الديني لهذه الحرب الصليبية ، وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، في المكان الذي أنشئت فيه ، على قيد مسافة قريبة من جنوب غربي غرناطة ، ويصفها المؤرخ الأسباني ، بأنها : «المدينة الاسبانية الوحيدة التي لم تطأها قط قدم مسلم»[٢٧] • وهكذا بدأ الفصل الأخير من الصراع بين النصرانية والاسلام في اسبانيا ، ولم يكن ثمة شك في نتيجة هذا الصراع الذي أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل • وغرناطة يومئذ بلد اسلامي وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط بها العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزودا بالعدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته بالخارج • كان هذا هو موقف غرناطة آخر الحواضر الاسلامية بالاندلس في صيف سنة (١٤٩١م) • على أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنما سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شلير (سيرا نافادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب ، أي من الجهة المواجهة للمعسكر النصراني ، أسوار وأبراج في منتهى الكثافة والمناعة ، وكانت غرناطة يومئذ تموج بالوافدين اليها من مختلف

(٢٦) اخبار العصر (٤٤) ، وانظر : . Prescott : Ibid ; P. 294

(٢٧) . Prescott ; Ibid ; P. 295 .

القواعد الاسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان اكثر من مائتي ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئا ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفا من الصفوة المختارة من فرسان الاندلس التي ألفت ملاذها الاخير في العاصمة المحصورة[٢٨] • ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الاسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائما ، وكانت تعيش في أهبة دائمة لمواجهته ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن ، فلما دهمها الحصار ، كانت على أهبة تامة للدفاع عن حريتها وأرضها وعرضها دفاعا طويل الأمد • وكانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم الى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد في اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عُرف في تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصرا على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه الى ضروب رائعة من الاقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار ، لقتال العدو المحاصر مرارا عديدة ، يهاجمونه ويثخنون في مواقعه ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره • وتشير الروايتان : الاسلامية والنصرانية ، الى هذه المعارك الأخيرة التي وقعت في بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى[٢٩] ، وتنوه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والاقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسية الاندلسية ، التي لبثت قرونا زهرة الفروسية في العصور الوسطى[٣٠] •

وكان روح الفروسية المسلمة في تلك الاونة العصيبة فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبي الغسان ، وهو سليل أحدى

---

(٢٨) نهاية الاندلس (٢١٥ ــ ٢٢٣) •
(٢٩) اخبار العصر (٤٥) وانظر : Irving : Ibid. P. 293 and foll.
(٣٠) اخبار العصر (٤٦) •

الاسر العريقة التي تتصل ببيت الملك وأحد هذه الاصول العربية القديمة التي عرفت بروائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتي كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر ، ولم يكن بين أهل غرناطة يومئذ من هو ابرع من موسى في الطعان والفروسية ، وكان منذ تبوأ أبو عبدالله محمد عرش غرناطة ،ينقم منه استكانته وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لأذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسية الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا الى أرض العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته في الانحاء المجاورة ، ولما بعث فرديناند الخامس الى أبي عبدالله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين في إجابة هذا الطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسته أكبر أثر في تطور الموقف ، وحمل الامير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى ان العربي قد وُلد للجواد والرمح ، فاذا طمح الى سيوفنا فليكسبها وليكسبها غالية . أما أنا ، فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة ، في المكان الذي أموت دفاعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لاعداء الدين »(٣١).

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسية المسلمة ، يقودها كلما سنحت الفرصة الى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتثخن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير في الشعب أيما حماسة ؛ وكان فرديناند يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته ، وانتزاع مؤنه ؛ ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحص شنيل (Le Vega) وطوقت غرناطة ، وشددت

---

(٣١) Lafuente Alcontera ; Ibid ; V. III. P. 67.

في حصارها ، واضطر المسلمون الى الامتناع بمدينتهم صابرين جلدين ؛ وقسّم الدفاع عن المدينة بين قادة الجيش وزعماء الأسر ، فتولى قيادة الفرسان يعاونه رضوان ومحمد بن زائدة • وتولى آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون • ولم تكن المعارك الجريئة التي كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروسيتهم وبسالتهم ، ولكنها لم تكن لتغني شيئا أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه • ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة وإرغامها على التسليم ؛ فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الاسبانية في مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أي مدد من افريقية • والواقع أنه لم يكن ثمة أي أمل أمام الغرناطيين في الغوث والانقاذ من هذه الناحية ، ذلك أن معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية ، ومنها سبتة وطنجة ، كانت قد سقطت بأيدي البرتغاليين ، وكانت دولة بني وطّاس التي قامت يومئذ بالمغرب ما تزال ضعيفة في بدايتها ، وكانت أبعد في التفكير عن القيام بأي عمل حربي خطير ضد النصارى • هذا الى أن إمارات المغرب الواقعة في الضفة الاخرى ، كانت كلها في حالة ضعف وتفكك ، وكانت تخشى بأس قوة اسبانيا البحرية ، وتسعى الى كسب صداقتها وحمايتها ، وعلى ذلك فقد كان حصار غرناطة محكما من البر والبحر • ولم يبق أمامها سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير (سييرا نافادا) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة • ولبثت المدينة المحصورة تعاني مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين • عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبدالملك ذات يوم الى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لاتكفي الا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دبّ الى قلوب الجند والعامة ، وان الاستمرار في الدفاع عبث لايجدي[٣١]،

ولكن موسى بن أبى الغسان ، اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب . وبث بادرة جديدة من الحماسة في الرؤساء والقادة . فاستسلم السلطان أبو عبدالله محمد الى تلك الروح ، وسلم الى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ، وكان في مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما : نعيم بن رضوان ، ومحمد بن زائدة . ثم أمر بفتح الأبواب، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها . ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى ، وكان موسى يقول لفرسانه : «لم يبق لنا سوى الارض التي نقف عليها ، فاذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن». وأخيرا رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون الى لقائه ، وعلى رأسهم أبو عبدالله وموسى ، ونشبت بين الفريقين في فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان ابو عبدالله يقود الحرس الملكي ، وكان القتال رائعا خضب فيه كل شبر من الارض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافا لايعتمد عليهم ، فمزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكي الى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبدالله ، وعبثا حاول موسى أن يجمع الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ماهو مقدس لديهم ، وألقى نفسه وحيدا في الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاءل عددهم واثخن الباقون منهم جراحا ، فاضطر عندئذ أن يرتد الى المدينة وهو يرتجف غضبا ويأسا .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلا ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن في يد العدو أمرا واقعا ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهنا في يد من لايرحمهم . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون

أهوال الحصار ، وتفاقم محنتهم شئيا فشيئا . فلما جاءت خاتمة المعارك مبدوة لكل أمل في الانقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب الياس الى قلوب الناس جميعا ، لم يبق مناص من اعادة النظر في الموقف . فدعا أبو عبدالله مجلسا من كبار الجند والفقهاء والاعيان ، فاجتمعوا في بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد في وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبدالملك كيف وصل الخطب الى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، وخبت قوى الدفاع ، ونضبت الاقوات والمؤن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل في تلقي الامداد من عدوة المغرب ، ومزح « الجماعة » بأن الشعب لايقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت ، واتفق الجميع على وجوب التسليم (٣٢) . ولم يرتفع بالاعتراض غير صوت واحد هو صوت موسى بن أبي الغستان ، فقد حاول كعادته أن يبث كلماته الملتهبة قبسا أخيرا من الحماسة ، وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لدينا مورد هائل للقوة كثيرا ما أدى الى المعجزات : ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على اثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة وانه خير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر في هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الامل في قلوبهم ، وغاضت فيهم كل حماسة ، ووصلوا الى حالة من اليأس لا تنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث ، فأن السلطان أبي عبدالله فوض الامر للجماعة ، واتفق الجماعة من خاصة وعامة على مفاوضة ملك قشتالة في التسليم ، واختير الوزير القائد أبو القاسم عبدالملك للقيام بتلك المهمة ، وكان ذلك في أواخر سنة (٨٩٦ هـ ــ تشرين الاول ــ أكتوبر ــ ١٤٩١) .

(٣٢) أخبار العصر (٤٨ ــ ٤٩) ونفح الطيب (٦١٥/٢) .

٢ ٠ مفاوضات التسليم ومعاهدة التسليم

وهنا يسدل الستار على تلك المناظر الرائعة المؤثرة ، التي تقدمها الرواية لنا عن بسالة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم ، وعلى ذلك الموقف الباهر الذي أتخذه أبو عبدالله مدى حين ، واتشح بثوب البطل المدافع عن ملكه وأمته ودينه ، وتبرز لنا طائفة من الحقائق المؤلمة التي تصم أولئك الزعماء والقادة ، الذين جنحوا في النهاية الى المساومة بحقوق أمتهم ، واستغلالها لمآربهم الخاصة ٠

يقول صاحب : أخبار العصر : إن كثيراً من الناس زعموا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده ، كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سراً في تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وانهم لبثوا حيناً يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى ألفوا السبيل ممهدا للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة في التسليم ، وتزيد الرواية على ذلك ، بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة ، تلقوا تحفاً وأموالا جزيلة من ملك قشتالة ![٣٣]

وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه رأى الجماعة الى المفاوضة في التسليم، كانت تبذل في الخفاء مساع أخرى لتحقيق مايمكن تحقيقه من الضمانات والمغانم الخاصة لابي عبدالله وأفراد أسرته ووزرائه ، وكان الملكان الكاثوليكيان يرميان الى استخلاص غرناطة بأي ثمن غير الحرب ، ولايدخران وسعا في بذل أية تضحية أو منحة لاغراء الزعماء والقادة لتذليل هذه المهمة وهكذا كللت هذه المساعي الخفية بالنجاح ، وفي الوقت نفسه الذي عقدت

---

(٣٣) اخبار العصر (٤٨ ــ ٤٩) ونفح الطيب (٢/٦١٥) ٠

فيه معاهدة التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى يمنح فيها أبو عبدالله وأفراد أسرته ووزرائه منحا خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها . وقد بقيت هذه المعاهدة طي الكتمان ، ولم يقف عليها سوى نفر من الخاصة ، وهذا يثبت مايشير اليه صاحب أخبار العصر .

ولم يك ثمة شك سوى الموت أو مفاوضة العدو الظافر ، وقد اختار زعماء غرناطة المفاوضة ، ولو انهم اختاروا الموت تحت أنقاض مدينتهم دفاعا عنها لاحرزوا لذكراهم الخلود واعجاب التاريخ ، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة لدى أبي عبدالله ومن معه ارادة القتال التي يتسم بها الشعب الغرناطي المجاهد.

وبالطبع يحلو للمصادر الاجنبية أن تدفع الشكوك عن ابي عبدالله ومن حوله ، فيقول مارمول الذي كتب روايته بعد ذلك بنحو سبعين عاما : « ولما رأى الزغيبي (أبو عبدالله) أن مدينة غرناطة لاتستطيع دفاعا ، ولاتأمل الغوث والامداد ، ونزولا على رغبة السواد الاعظم من الشعب الذي لم يعد يصبر على هذا الامر الفادح ، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكي يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقضاها » [٣٤] .

ويقول لافونتي ألقنطرة : «اشتدت وطأة الجوع على المحصورين ، وأصبحت الجماهير الصاخبة تجوب أنحاء المدينة تنذر الأغنياء بالويل ، وتبعث الرجفة الى أبى عبدالله وأولاده وأعوانه . وإزاء هذا التهديد ، دعا الأمير مجلسا من الزعماء والقادة ، وطلب اليهم البحث فيما يمكن عمله لتجنب الأخطار التي تهدد المدينة من الداخل والخارج . وقال الشيوخ والفقهاء : إنه لم يبق سبيل سوى التسليم أو الموت ، وأشار أهل الرأي بأن يقوم أبو القاسم بأذن من أبى عبدالله بمفاوضة النصارى [٣٥] .

---

(٣٤) Luis del Marmol ; Ibid ; Lib. 1., Cap. XIX.

(٣٥) Lafuente Alcontra ; Ibid ; V. III. P. 97.

لقد كان موقف أبى عبدالله موقفا مريبا ـ ذلك الموقف الذي وقفه هو ووزراؤه ، فحاولوا أن يحققوا لأنفسهم فيه مغانم خاصة ، والذي يدل على الأثرة والخور والضعف الأنساني ، والتعلق بأسباب السلامة ، وانتهاز الفرص ، وهي ليست سمات المسئول حقا عن أمة وشعب ووطن •

وسار القائد أبو القاسم عبدالملك ، مندوب أبى عبدالله الى معسكر الملكين الكاثوليكيين ليؤدي مهمته الأليمة ، وقد اضطلع هذا القائد فضلاً عن المفاوضة في تسليم غرناطة ، بالمفاوضة في سائر الاتفاقات اللاحقة التي عقدت بين أبى عبدالله وبين ملكي قشتالة ، ونرى اسمه مذكورا في معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التي أبرمت في تلك المدة ، باعتباره دائما مندوب أبى عبدالله المفوض ، ولم نعثر بتفاصيل تخص شخصية هذا الوزير أو نشأته ، لكن الذي يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته ، أنه كان سياسيا عمليا ، يؤمن إيماناً راسخاً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى ، وانتهازيا يرى انتهاز الفرص بأي الأثمان [٣٦] ، واستقبل فرديناند مندوب ملك غرناطة ، وندب لمفاوضته أمينه فرديناندو دي ثاخرا ، وقائده جونزا لفودي كردوبا ، وكان خبيرا بالشئون الاسلامية ، عارفا باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحيانا في غرناطة وأحيانا في قرية برليانة[٣٧] القريبة الواقعة جنوب شرقي سنتافية • ويبدو من الخطابات التي تبودلت بين عبدالله وبين ملكي قشتالة في تلك الأيام الدقيقة من حياة الأمة الاندلسية ، أن حديث المفاوضة قد بدأ بين الفريقين في أوائل (أيلول ـ سبتمبر سنة ١٤٩١م) ، وأن

(٣٦) يذكر اسم أبي القاسم عبدالملك في الوثائق القشتالية محرفا : ابو القاسم عبدالمليح ، او ابو القاسم المليخ ، وهو الاكثر شيوعا : Bulcasen, Bulcasem el Muléh ومن الغريب ان هذا التحريف غاب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية ، فتراه يكتب فيبعض الوثائق :ابو القاسم المليخ.

(٣٧) هي اليوم قرية Churiana ، وهي من ضواحي غرناطة .

القائد أبا القاسم بن عبدالملك كـان يعاونه في مفاوضـة الوزير يوسـف بن كماشة ، وقد كان مثله من خاصة أبى عبدالله ومن أنصار سياسـة التسليم ، وأن أبا عبدالله طلب في خطاب أرسله الى ملكي قشتالة ، أن تكون المفاوضات سرية حتى تتحقق غايتها المرجوة ، وذلك خشية انتقـاض الشعب الغرنـاطي ونزعاته ، هذا الى أن الوزيرين الغرناطيين كتبا الى ملكي قشتالة خطابا يؤكد ان فيه اخلاصهما وولاءهما ، واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهمـا كاملة ، وفي ذلك كله ما يلقى ضوءاً واضحا على الموقف المريب الذي وقفـه أبو عبدالله ووزراؤه من مسألة التسليم[٣٨] . واستمرت المفاوضات بضعـة أسابيع ، وانتهى الفريقان الى وضع معاهدة للتسليم وافق عليهـا الملـكان ، ووقعت في (اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ــ نوفمبر سنة ١٤٩١م ــ ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ) .

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التي قررت مصـير آخر القواعـد الاندلسية ومصير الأمة الاندلسية ، شروطا عديدة بلغت ستا وخمسين مادة . وقد لخصت لنا الرواية الاسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف[٣٩] . ولكننا ننقل الى العربية محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية في توسّع وإفاضة ، وهذا هو مضمون المحتويات :

أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة والفقهاء ، والوزراء ، والعلماء ، والناس كافة ، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما ، بان يسلموا طواعية واختيارا ،

---

(٣٨) تحفظ الصور القشتالية لهذه الخطابات ضمن مجموعة فرناندو دي ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرها Garrido Atienza في مجموعة الوثائـق الخاصة بتسليم غرناطة المسماة
Para la Entrega de Granada (Granada 1910) P. 200 - 214.
. Las Capitulociones

(٣٩) اخبار العصر (٤٨ ــ ٥٠) ونفح الطيب (٢/٦١٥ ــ ٦١٦) .

وذلك في ظرف ستين يوما تبدأ مـن تاريخ هذه المعـاهدة ، قـلاع الحمراء والحصن ، وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرنـاطة والبيـازين ، الى الملكـين الكاثوليكيين ، أو أي من ينتدبانه من رجالهما ، على ألا يسـمح لنصراني أن يصعد الى الأسوار القائمة بين القصبة والبيـازين ، حتى لايكشـف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك • وضمانـا لهذا التسليم ، يقـدم الملك المذكور مولاي أبو عبدالله والقادة المذكورين ، الى جلالتيهما ، قبل تسـلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشة ، من أبنـاء وأخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن في يديهما لمدة عشرة أيـام ، تصلح خلالها الحمراء • وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحرارا • وأن يقبل جلالتهما ، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضي ، رعايا واتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما «١» •

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلّم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشاء ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقـول الخارجية ، وألا يسيروا اليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم«٢» •

وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد الى الملك المذكور مـولاي أبي عبدالله ولده المأخوذ رهينة لديهما ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسـلمين الذين معه ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية «٣» •

ويتعهد جلالتهما ، وخلفاؤهما الى الابد ، بأن يترك الملك المذكور أبـو عبدالله والقادة ، والوزراء والعلماء ، والفقهاء ، والفرسان ، وسائر الشعوب ، تحت حكم شريعتهم ، وألا يأمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هي ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلـى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم «٤» •

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الان أو فيما بعد ، سوى المدافـع الكبيرة والصغيرة ، فأنها تسلّم «٥» •

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور الى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص «٦» .

وأنه يحق للسكان المذكورين ، أن يعبروا الى المغرب ، أو يذهبوا احرارا الى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها . ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب الى المغرب . وأن يقدما خلال الاعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيها ، ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع مبلغ « روبل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع املاكه ، أن يوكل لادارتها ، وأن يقتضي ريعها حيثما كان «٧» .

وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الان او فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم «٨» .

وأن ينزل الملكان ، للملك أبي عبدالله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه ، عن سائر الحقوق التي يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم «٩» .

وأنه يجب على الملك أبي عبدالله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيهما ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الاسرى النصارى الذين تحت أيديهم «١٠» .

وأنه لا يسمح لنصراني ، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص، ويعاقب مَنْ يفعل ذلك «١١» .

وألا يولى على المسلمين يهودي مباشر ، او يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم «١٢» .

وأن يعامل الملك أبو عبدالله المذكور ، وسائر سكان المسلمين ، برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقا للقواعد المرعية «١٤» .

وأنه اذا قام نزاع بين المسلمين ، فصل فيه وفقا لاحكام شريعتهم ، وتولاه قضاتهم «١٥» .

وألا يكلفوا بأيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غيرها دون ارادتهم «١٦» .

وأنه اذا دخل نصراني منزل مسلم قهرا عنه ، عوقب على فعله «١٧» .

وأنه فيما يتعلق بشؤون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون الى فقهائهم وفقا لسنن المسلمين «١٨» .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين في هذا العهد ، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما ، في ظرف ثلاثين يوماً من التسليم ، أن يتمتعوا بالاعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث «١٩» .

وأنه يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أخرى مرصودة على الخير ، وكذا دخل المدارس متروكاً لنظر الفقهاء ، وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة ، في شأن هذه الصدقات ، أو يأمران بأخذها في أي وقت «٢٠» .

وأنه لا يؤاخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤاخذ والد بذنب ولده ، أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخيه ، أو ولد عم بذنب ولد عمه ، ولا يعاقب الا من ارتكب الجرم «٢١» .

وأنه اذا كان مسلم أسيراً ، وفرّ الى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرها ، فأنه يعتبر حراً ، ولا يسمح لاحد بمطاردته الا اذا كان من العبيد أو من الجزائر «٢٤» .

وألا يدفع المسلمون الضرائب اكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين «٢٥» .

وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها ، ممن عبروا الى المغرب ، أن يعودوا خلال الاعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما في هذا الاتفاق «٢٨» .

وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها ، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين ، عابرين الى المغرب وعائدين ، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتيهما ، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التي يدفعها النصارى «٢٩» .

وأنه اذا كان أحد من النصارى ــ ذكراً أو أنثى ــ اعتنق الاسلام ، فلا يحق لانسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، وأن فعل ذلك يعاقب «٣٠» .

وأنه اذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الاسلام ، فلا ترغم على العودة الى النصرانية ، بل تسئل في ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد الروميات ذكوراً أو أناثاً ، على اعتناق النصرانية «٣١» .

وأنه لا يرغم مسلم ولا مسلمة قط ، على اعتناق النصرانية «٣٢» .

وأنه اذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب ، فلا يقبل ذلك منها ، حتى تسئل وتوعظ وفقا للقانون . واذا كانت قد استولت خلسة على حلي أو غيرها من دار أهلها أو أي شيء آخر ، فأنها ترد لصاحبها ، وتتخذ الاجراءات ضد المسؤول «٣٣» .

وألا يطلب الملكان ، أو يسمحا بأن يطلب الى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله ، أو خدمه ، أو أحد من أهل غرناطة او البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرها ، من الداخلة في هذا العهد ، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها ، أو من الاشياء الموروثة ، ولا يحق لاحد يعلم بشيء من ذلك أن يطالب به «٣٤» .

وألا يطلب الى أي مسلم ، يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو

أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست في حوزته ، رده أو ردها الان أو فيما بعد «٣٥» وألا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة ، من الضرائب الا وفقا لقيمتها ، وعلى مثل الاراضي العادية «٣٦» .

وأن يطبق ذلك ايضا على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها اكثر مما يدفع عن الاملاك العادية «٣٧» .

وأن يتمتع يهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضها ، والاراضي التابعة لها ، بما في هذا العهد من الامتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور الى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ كانون الثاني ــ ديسمبر «٣٨» .

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والاراضي التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة ، فأذا أخل أحدهم بالواجب ، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق «٣٩» .

وأنه لايحق للملكين أو لاعقابهما الى الابد ، أن يسألو الملك المذكور أبي عبدالله ، أو أحدا من المسلمين المذكورين ، بأية صورة ، عن أي شيء يكونوا قد عملوه حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة ، وهي مدة الستين يوماً المنصوص عليها «٤٠» .

وأنه لا يولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم ، الذين كانوا تابعين لملك وادي آش «٤١» .

وأنه اذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فأنه ينظر أمام قاض نصراني وآخر مسلم ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به «٤٢» .

وأن يقوم الملكان بالافراج عن الاسرى المسلمين ذكوراً أو أناثاً ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، افراجاً حراً دون أية نفقة من فدية ، وأن يكون الافراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالاندلس في ظرف

(٤٠) المقصود هنا هو مولاي الزعل .

الخمسة أشهر التالية ، وأما الاسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية . وبعد يومين من تسليم الاسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتي أسير مسلم ، منهم مائة من الرهائن ، ومائة أخرى «٤٤» .

وأنه اذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتيهما ، فأنها يجب أن تسلّم اليهما كل الاسر النصارى ذكورا واناثا ، في ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أية نفقة «٤٦» .

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الان في مملكة غرناطة ، لكي تسافر في أمان ، على ألاّ تكون حاملة أي أسير نصراني ، وألاّ يتعرض لها أحد بضرر أو إتلاف ، وألا يؤخذ منها شيء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى ، ويحق لجلالتيهما ارسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض «٤٧» .

وألا يدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين الى الحرب رغم ارادته ، واذا شاء جلالتيهما استدعاء الفرسان الذين لهم خيول وسلاح للعمل في نواحي الاندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة «٤٨» .

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد ، أن يؤديه لصاحب الحق ، ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق «٥٢» .

وأن يكون المأمورون والقضائيون الذين يعيّنون لمحاكم المسلمين ، أيضا مسلمين ، وألا يتولاها نصراني الان وفي أي وقت «٥٤» .

وأن يقوم الملكان في اليوم الذي تسلّم اليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم ، بأصدار مراسيم الامتيازات للملك أبي عبدالله وللمدينة المذكورة ، ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذي الأهداب الحريرية ، وأن يصدّق عليها ولدهما الأمير والكاردينال المحترم دسبينا ، ورؤساء الهيئات الدينية ، والعظماء والدوقات ، والمركيزون والكونتات

والرؤساء ، حتى تكون ثابتة وصحيحة الان وفي كل وقت (٥٦ ثافرا) ـ (٤٣ سيمانقا) •

وقد ذيلت المعاهدة ، بنبذة خلاصتها ، أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما ، وعليها تاريخ تحريرها يوم (٢٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٤٩١م)[٤١] • ثم ذيلت بعد ذلك بتاريخ لاحق هو يوم (كانون الثاني ـ يناير ١٤٩٢م) أعني بعد تسليم غرناطة بعام ، بتوكيد جديد ، يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شيء ، أو ينقص منه شيء ، الان والى الابد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ، ويأمرا بالمحافظة على كل مايحتويه بنداً بنداً الى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء[٤٢] •

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة ، وهو (يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١م)، وفي نفس المكان الذي وقعت فيه، وهو المعسكر الملكي

---

(٤١) نهاية الاندلس (٢٣٠ ـ ٢٣٥) ، وقد ترجمها المؤلف ولخصها من نصوص معاهدة التسليم في الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا نصوص هذه المعاهدة ، وهما : أولا الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة في (سيمانقا ضمن مجموعة Archiro general de Simancas) وتحمل رقم P. R. 11 - 207 (Caballeros de Castilla) — (Capitulaciones can Moros y) وهي تملأ احدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة . وثانيا الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دي ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين ، وتحفظ بمجموعة دي ثافرا ببلدية غرناطة
Las Capitulaciones Para la Entraga, por Miguel Garrido Arinza (Granada 1910) P. 269 - 295 .

(٤٢) انظر مجموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر (٢٨٩ ـ ٢٩٠) •

بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة اخرى أو ملحق سري للمعاهدة الاولى ، يتضمن الحقوق والامتيازات والمنح ، التي تعطى للسلطان أبي عبدالله ، ولافراد اسرته وحاشيته ، وذلك متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء وحصونها . وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتي :

أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبي عبدالله ولأولاده وأحفاده وورثته الى الابد ، حق الملكية الابدية ، فيما يملكانه من محلات وضياع في بلاد برجة، ودلاية ، ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيجر ، وأرجبة ، وبضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع ، وما بها من الدور والاماكن والقلاع والابراج ، لتكون كلها له ولاولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الابدية ، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها ، وباعتباره في الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما ، وله حق بيع الاعيان المذكورة ورهنها ، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، وأنه متى أراد بيعها ، فأنه يعرض ذلك أولا على جلالتيهما ، فاذا لم يريدا شراءها ، فله أن يبيعها لمن شاء . وأن يحتفظ جلالته بقلعة إدرة ، وسائر القلاع الواقعة على الشاطىء .

وأن يعطى جلالتيهما الى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب (كاستيليانو) ، يبعثان بها اليه عقب تسليم الحمراء وقلاع غرناطة الاخرى التي يجب تسليمها ، وذلك في الموعد المحدد .

وأن يهب جلالتيهما للملك المذكور ، كل الاراضي والرحى والحدائق والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن ، سواء في غرناطة أو في البشرات ، لتكون ملكاً له ولاولاده ولعقبه وورثته ، ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيهما كيفما يشاء .

وأن يهب جلالتيهما ، الى الملكة والدته ، والملكات أخواته وزوجته ،

والى زوجة أبي الحسن ، كل الحدائق والمزارع والاراضي والطواحين والحمامات ، التي يملكنها في غرناطة والبشرات ، تكون ملكاً لهن ولاعقابهن الى الابد ، ولهن بيعها أو رهنها والتمتع بها وفقا لما تقدم .

وأن تكون سائر الاراضي الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات وزوجة مولاي ابي الحسن معفاة من الضرائب والحقوق الان والى الابد .

وأن لا يطلب جلالتيهما أو أعقابهما الى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمه رد ما أخذوه في أيامهم سواء من النصارى او المسلمين منه الاموال والاراضي(٤٣)

وأنه اذا شاء الملك المذكور أبو عبدالله والملكان المذكوران، وزوجة مولاي أبي الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم وقواتهم وخدمهم وأهل دراهم وفرسانهم وغيرهم ، صغارا وكبارا ، العبور الى المغرب ، فأن جلالتهما يجهزان الآن أو في أي وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين ، متى شاءوا ، تحملهم وكل أمتعتهم وما شيتهم وسلاحهم ، وذلك دون أي اجر أو نفقة .

وأنه اذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاي أبي الحسن ، والقواد والحشم والخدم ، وقت عبورهم الى المغرب ، من بيع أملاكهم المشار اليها ، فأن لهم أن يوكلوا من شاووا لقبض ريعها ، وارسالها حيث شاءوا ، دون أي قيد أو مغرم .

وأنه يحق للملك المذكور ، متى خرج من غرناطة ، أن يسكن أو يقيم متى شاء ، في الاراضي التي قطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه الذين يريدون الخروج معه ، بخيلهم وماشيتهم ، متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو في أي وقت ، وضع علامة خاصة في ثيابهم

(٤٣) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وابي عبدالله بدار المحفوظات العامة في سيمانقا (Archivo general de Simancas) وتحمل رقم (Fol. 206, P. R. Leg. 11)

أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الامتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة.

وأنه في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعة ومختومة ، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء.

تلك هي الشروط التي وضعت لتسليم آخر القواعد الاندلسية ، وتلك هي الامتيازات والمنح التي منحت لاخر ملوك الاندلس فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الامة المغلوبة ، فقد كانت هذه الشروط المسهبة ، والتي اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال ، وسائر الحقوق المادية ، وصون الدين والشعائر ، والكرامة الشخصية ، أفضل مايمكن الحصول عليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص العدو الظافر في عهوده ، ولكن هذه العهود لم تكن في الواقع ، حسبما أيدت الحوادث فيما بعد ، سوى ستار الغدر والخيانة ، وقد نقضت هذه الشروط الخلابة كلها لاعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربي نفسه في أن يصفها : « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الاسباني فيما تلا من العصور (٤٤) وقد بذل فرديناند مابذل من عهود وضمانات وامتيازات لاهل غرناطة ، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب ، وما منيت به من الخسائر الفادحة ، أمام أسوار مالقة وبسطة ، ولانه كان يعلم ان الحاضرة الاندلسية الاخيرة كانت تموج بعشرات الالوف من المدافعين ، وأنه يقتضي لاخذها عنوة بذل جهود مضنية ، وتحمل تضحيات عظيمة ، وقد لجأ فرديناند الى جانب إرهاق غرناطة بالحصار الصارم ، الى البذل والرشوة لاغراء الزعماء والقادة ، وعلى رأسهم أبو عبدالله ، وذلك لكي يصل الى غايته المنشودة بطريقة سليمة مأمونة ، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما اشارت اليه الرواية الاسلامية المعاصرة ، من ريب وشكوك

---

(٤٤) Prescott : Ibid ; P. 296.

تحيط بموقف أبي عبدالله ووزرائه وقادته .

وعاد أبو القاسم عبدالملك والوزير ابن كماشة يحملان شروط التسليم، وصحبهما فرناندو دي ثافرا أمين ملك قشتالة ومبعوثه ، وأدخل سراً الى قصر الحمراء ؛ وجمع أبو عبدالله الفقهاء وأكابر الجماعة في بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، وبعد مناقشات طويلة عاصفة ، تمت الموافقة على المعاهدة ، وحملها دي ثافرا ممهورة بتوقيع أبي عبدالله الى معسكر ملك قشتالة .

وقد انتهت الينا من هذه الجلسة الحاسمة في تاريخ الامة الاندلسية ، وعن موقف فارس غرناطة موسى بن أبي الغسان ، رواية قشتالية مؤثرة ، تنم عن روح الانتقاض والسخط التي كانت تضطرم بها بعض النفوس الابية الكريمة التي كانت ترى الموت خيرا من التسليم لاعداء الوطن والدين .

تقول الرواية المذكورة : انه حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا عهد التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والمحو ، عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده صامتا عابسا وقال : « أتركوا العويل للنساء والاطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء . واني لارى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا ان ننقذ غرناطة ؛ ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعا عن حرياتنا وانتقاما لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها من اغلال المستعبد وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر لستر رفاته ، فأنه لن يعدم سماءاً تغطيه ، وحاشا لله أن يقال : أن اشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها »[٤٥] .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبدالله البصر حوله ، فأذا اليأس ماثل في تلك الوجوه التي أفناها الألم ، واذا كل

(٤٥) . Condé ; Ibid ; V. III. P. 256 - 257 .

عزم قد فتر في تلك القلوب الكسيرة الدامية .عندئذ صاح أبو عبدالله :«لا أله الا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب علي أن أكون شقيا ، وأن يذهب الملك على يدي » . وصاحت الجماعة على أثره : « الله أكبر ، ولا راد لقضاء الله » ، وكرّروا جميعا انها ارادة الله ، ولتكن ، وأنه لامفر من قضائه ولا مهرب،وأن شروط مالك النصارى أفضل مايمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لايجدي ، وأن الجماعة قد اخذت فعلا في توقيع صك التسليم ، نهض مغضبا وصاح : « لاتخدعوا أنفسكم ، ولاتظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولاتركنوا الى شهامة ملكهم . ان الموت أقل مانخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك بناتنا ونسائنا ، وأما منا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي ، والسياط والاغلال ، وأما منا السجون والانطاع والمحارق . هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف ، وهذا ماسوف تراه على الاقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا ، فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس ، واخترق بهو الاسود (كورة السباع) عابسا حزينا ، وجاز الى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحدا أو يتفوه بكلمة ، ثم ذهب الى داره ، وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب البيرة ، ولم يره انسان أو يسمع به بعد ذلك قط ، هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن أبي الغسان[٤٦] ، ولكن مؤرخا اسبانيا هو القس أنطونيو أجابيدا يحاول أن يلقي ضوءا على مصيره فيقول : ان سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر شنيل ، بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه الى قدمه ، وكان مغلقا خوذته شاهرا رمحه ، وكان جواده غارقا مثله

(٤٦) هذه هي رواية كوندى فيما نقل عن مصادر عربية غير معروفة
. Condé ; Ibid. V. III. P. 257

في رداء من الصلب . فلما رأوه مقبلا عليهم ، طلبوا اليه أن يقف ، وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب الى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه الى الارض ، ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعانا ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح،ولم يرد الا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه انما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنه يتوق الى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب في النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط الى الارض ، ولكنه جثا على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه . فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيرا في يد خصومه ، ارتد الى ماورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه الى مياه النهر ، إبتلعته لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل الى الاعماق .وهذا الفارس الملثم هو موسى بن أبي الغسان ، وان بعض العرب المنتصرين في المعسكر الاسباني ، عرفوا جواده المقتول [٤٧].

وما كادت أنباء الموافقة على عهد التسليم تذاع ، حتى عم الحزن ربوع غرناطة ، وتسربت في الوقت نفسه أنباء غامضة عن المعاهدة السرية ، وعما حققه أبو عبدالله ووزراؤه لانفسهم من المغانم الخاصة ، وسرى الهمس بين العامة ، واضطرم سواد الشعب يأسا وسخطا على قادته ، لاسيما أبي عبدالله الذي اعتبر مصدر كل مصائبه ومحنه ، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى الرمق الاخير ، وحدثت حركة انتقاض ، خشي أبو عبدالله والقادة أن تقضي على خططهم وتدابيرهم ، ولكنها انهارت قبل أن تنظم ، وأضحى كل فرد يفكر في مصيره .

واستقبل المسلمون عهود ملك قشتالة في تردد وتوجس ، والشك يساورهم في اخلاص أعدائهم ، وازاء ذلك أعلن الملكان الكاثوليكيان في يوم

(٤٧) Irring : Conquest of Granada ; ch. 97.

٢٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ، مع قسم رسمي بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم أو حيث شاءوا وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة الى المغرب • ولكن الايمان والعهود لم تكن حسبما تقدم ، عند ملكي قشتالة ، سوى ذريعة للخيانة والغدر ، ووسيلة لتحقيق المارب بطريق الخديعة الشائنة • وقد كانت هذه أبرز صفات فرديناند الكاثوليكي ، فهو لم يتردد قط في أن يعمل لتحقيق غاياته بأي الوسائل أو أن يقطع أي عهد أو يقدم أي تأكيد ، دون أن ينوي قط الوفاء بما تعهد •

ولكن الشعب الغرناطي استمر في وجومه وتوجسه ويأسه ، ولم تهدأ الخواطر المضطرمة ، وكان أبو عبدالله والقادة يخشون تفاقم الاحوال وافلات الامر من أيديهم ، فاعتزموا على التعجيل بالتسليم ، حرصا على سلامة المدينة وسلامة الزعماء وألا ينتظروا مرور الستين يوما التي نصت عليها المعاهدة •وفي يوم ٢٠ كانون الاول ــ ديسمبر ، أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كماشة الى فرديناند مع خمسمائة من الرهائن من الوجوه والاعيان ، تنفيذا لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل اليه هدية تتألف من سيف ملوكي وجوادين عربيين مَسرّجين بعدد ثمينة • واتفق مع مالك قشتالة على تسليم المدينة (في الثاني من كانون الثاني ــ يناير ١٤٩٢م) أي لتسع وثلاثين يوما فقط من توقيع عهد التسليم •

وفي صباح يوم احتلال القشتاليين غرناطة ، كان المعسكر النصراني في شنتفي يموج بالضجيج والابتهاج ، وكانت الاوامر قد صدرت ، والاهبة قد اتخذت لاحتلال المدينة • وكان قد اتفق أبو عبدالله والملك فرديناند أن تطلق من الحمراء ثلاثة مدافع تكون ايذانا بالتسليم • ولم يشأ فرديناند أن يسير الى الحاضرة الاسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها التام ، واستتباب الامن والسلامة فيها ، فأرسل اليها قوة من ثلاثة الاف جندي وسرية من الفرسان ،

وعلى رأسها الكادرينال بيدرودي مندوسا مطران اسبانيا الاكبر • وكان من المتفق عليها أيضا بين فرديناند وأبي عبدالله ، ألا يخترق الجيش النصراني شوارع المدينة ، بل يسير توا الى قصبة الحمراء ، حتى لا يقع حادث أو شغب• ومن ثم فقد اخترق الجند القشتاليون الفحص الى ضاحية أرميليا (Armilla) — (أرملة) الواقعة جنوبي غرناطة ، ثم عبروا نهر شنيل واتجهوا توا الى قصر الحمراء من ناحية التل المسمى : «تل الرحى» ، الواقع غربي المدينة وجنوبي غربي الحمراء (Quest de las Molinos) .

وسار الملك فرديناند في الوقت نفسه في قوة أخرى ، ورابط على ضفة شنيل ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة في ثيابهم الزاهية ، حتى يمهد الكاردينال الطريق لمقدم الركب الملكي • وانتظرت الملكة ايزابيلا في سرية أخرى من الفرسان في أرميليا على قيد مسافة قريبة • ووصل الجند القشتاليون الى مدينة غرناطة من هذه الطريق المنحرفة نحو الظهر ، وكانت أبواب الحمراء قد فتحت وأخليت أبهاؤها استعدادا للساعة الحاسمة •

وهنا تختلف الرواية ، فيقال : ان الذي استقبل الكاردينال مندوسا وصحبه هو الوزير ابن كماشة ، الذي ندب للقيام بتلك المهمة المؤلمة ، وسلم الحرس المسلمون السلاح والأبراج • وكان يسود المدينة كلها ، ويسود القصبة والقصر وما إليه ، سكون الموت •

وفي رواية أخرى ، أن أبا عبدالله قد شهد بنفسه تسليم الحمراء ، وانه حينما تقدم القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء ، تقدم أبو عبدالله من باب الطباق السبع راجلا ، يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه ، فلما عرف الكاردينال أبا عبدالله ، ترجل عن جواده ، وتقدم الى لقائه ، وحيّاه باحترام وحفاوة ، ثم ابتعد الرجلان قليلا ، وتحدثا برهة على انفراد • ثم قال أبو

عبدالله بصوت مسموع[48] ؛ «هيّا ياسيدي ، في هذه الساعة الطيبة ، وتسلّم هذه القصور ــ قصوري ــ باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر، أن يستوليا عليها ، لفضائلهما ، وزلآت المسلمين ». فوجّه الكاردينال الى أبى عبدالله بعض عبارات المواساة ، ودعاه لأن يقيم في خيمته في المعسكر الملكي طيلة الوقت الذي يمكثه في شنتفى ، فقبل أبو عبدالله شاكرا .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبدالله للقيام بهذه المهمة ، وما كاد الكاردينال وصحبه يجوزون الى داخل القصر الاسلامي المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى (برج الحراسة) ــ (Torre de la Vela) صليبا فضيا كبيرا ، هو الذي كان يحمله الملك فرديناند خلال حرب غرناطة ، كما رفعوا الى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن المنادي من فوق البرج بصوت جهوري ثلاثا : أن غرناطة أصبحت ملكا للملكين الكاثوليكيين ، وأطلقت المدافع تدوي في الفضاء . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتّل صلاة : «الحمد لله» Te Deudamusu على أنغام الموسيقى . وهكذا كان كل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التي شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الاندلسية ، وعلى الاسلام في اسبانيا .

وفي أثناء ذلك ، كان أبو عبدالله في طريقه الى لقاء الملك الكاثوليكي، وكان فرديناند يرابط كما قدمنا على ضفة نهر شنيل ، على مقربة من المسجد ، الذي حوّل فيما بعد الى كنيسة «سان سبستيان» ، وهنالك لقي أبو عبدالله عدوه الظافر ، وسلمه مفاتيح الحمراء . وكذلك قدّم أبو عبدالله خاتمه الذهبي الذي كان يوقّع به على الأوامر الرسمية ، الى الكونت دي تندليا الذي عيّن

(48) المفروض أن أبا عبدالله كان يتحدث القشتالية ، وهي لغة كان يجيد التكلم بها . فاذا كان قد تكلم بالعربية ، فمن المفروض أن الكاردينال يحسنها ، وكانت العربية شائعة ليس في الاندلس حسب ، بل عالميا .

محافظا للمدينـــة •

وسار في صحبه بعد ذلك في طريق شنتفي ، يتبعه أهله ، مأمه وزوجـه وأخواته ، وكان موكباً مأساوياً ، وعرّج في طريقه على محلة الملكة ايزابيلا في أرميليا ، فاستقبلته وأسرته برقة ومجاملة ، وحاولت تخفيف آلامه ، وسلمته ولده الصغير الذي كان ضمن رهائن التسليم •

وهنا تعود الرواية ، فتختلف اختلافا بيّنا ، فيقول بعضهم : ان الملكـين الكاثوليكيين دخلا قصر الحمراء في نفس اليوم وينفي بعضهم ذلك ومنهـم صاحب : « أخبار العصر » ، ويقول : «انهما لم يدخلا الا بعد ذلك ببضعـة أيـام » •

تقول الرواية الاولى: ان ايزابيلا سارت على أثر استقبالها لأبي عبدالله، وانضمت بصحبها الى الملك فرديناند ، ثم سار الاثنان الى الحمراء ، بينمـا انتشر الجند القشتاليون في الساحة المجاورة ، ودخل الملـكان من « بـاب الشريعة » ، حيث استقبلهما الكاردينال مندوسا والوزير ابن كماشة ، وأعطى مفاتيح الحمراء الى الدون ديجو دي مندوسا الذي عُين حاكما للمدينـة • وبعد أن تجول الملكان قليلا في القصر ، وشهدا جماله وروعتـه ، عـادا الى شنتفي وبقي الكونت دي تندليا في الحمراء مع حامية قويـة من خمسمائـة جندي • ثم عاد الملكان ، فزارا الحمراء زيارتهما الرسمية في ٦ كانون الثاني ـ يناير ، وسارا في موكب فخم من الأمراء والكبراء وأشراف العقائل ، ودخلا غرناطة من باب البيرة ، ثم جازا الى الحمراء من طريق غمارة ، ودخلا قصر الحمراء ، وجلسا في بهو قمارش أو المشور[٤٩] ، حيـث كان يجلس الملـوك المسلمون في نفس المكان على عرشهم ، على عرش أعده الكونت دي تندليا ، وهناك أقبل أشراف قشتالة للتهنئة ، وكذلك بعض الفرسان المسلمين ، الذين أتوا ليقدموا شعائر التحية والتجلّة لسادتهم الجدد • وفي خلال ذلك كـان

(٤٩) وهو المسمى ايضا بهو السفراء •

الملكان الكاثوليكيان قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة ، وفي مقدمتهم ولد أبي عبدالله ، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الاسرى النصارى ، وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالا ونساء ، وتعهد القشتاليون من جانبهم أن يطلقوا سراح الاسرى المسلمين في سائر مملكة قشتالة ، في ظرف خمسة أشهر بالنسبة للاسرى الموجودين في الاندلس ، وثمانية أشهر بالنسبة للاسرى الموجودين في بقية أراضي قشتالة .

تلك هي خلاصة الرواية القشتالية عن تسليم غرناطة ومدينة الحمراء للملكين الكاثوليكيين . بيد أن هناك رواية أخرى لشاهد عيان ، كتبها فارس فرنسي كان يقاتل في صفوف الجيش القشتالي ، وشهد بنفسه حفلات التسليم، ونشرت روايته في القرن السادس عشر ضمن مؤلف عنوانه La Mar de las Historias « بحر التواريخ » ، وهذه خلاصتها : ان الذي أوفده الملكان لاستلام الحمراء في يوم ٢ كانون الثاني ــ يناير ، هو الاستاذ الأعظم ، رئيس جمعية شنت ياقب ، جوتيري دي كارديناس، وليس الكاردينال مندوسا حسبما تروي التواريخ القشتالية.وأنه تسلم القصر والأبراج ، وأخرج منها الحرس المسلمين ، واستبدل عنهم بحرس النصارى ، وأنه رفع الصليب الكبير فوق برج الحراسة ثلاث مرات ، والمسلمون من أسفل يصعّدون الزفرات ويذرفون الدموع ، ثم لوح بعد ذلك بعلم شنت ياقب ثلاث مرات ، ونُصب الى جانب الصليب ، وصاح المنادي بعد ذلك ، القديس يعقوب ثلاثاً ، غرناطة لسيدنا الدون فرناندو ودينا ايزابيل ثلاثاً .

وأن الملك فرديناند لما رأى الصليب ، وهو في جنده ، من أسفل ، ترجّل وجثا على ركبتيه ، وجثا الجند جميعاً شكراً لله ، ثم أطلقت المدافع ابتهاجا .

وفي اليوم التالي : الثالث من كانون الثاني ــ يناير ، سار الكاردينال مندوسا والكونت دي تندليا ، الذي عُيِّن محافظاً للحمراء ، الى قصبة الحمراء في نحو ألف فارس وألفي راجل ، وسلّم اليه الأستاذ الأعظم مفاتيح

القصر والحصن • وفي اليوم الثامن من كانون الثاني – يناير ، سار الملكان الكاثوليكيان الى غرناطة في موكب حافل من الامراء والاكابر والاحبار والاشراف ، وتسلّم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية ، وأقيم القداس في الجامع الاعظم ، وحوّل الجامع منذ ذلك اليوم الى كاتدرائية غرناطة • وفي ذلك اليوم أقيمت مأدبة عظيمة في قصر الحمراء ، ومدّت الموائد الحافلة في أبهاء القصر العظيمة ، وجلس اليها الملكان والامراء والعظماء ، وكانت مأدبة رائعة •

ويستخلص من هذه الرواية التي يؤيدها مؤرخون آخرون ، أن أبا عبدالله لم يستقبل الملكين الكاثوليكيين ، ولا مندوبيهما وقت التسليم ، ولم تقع بينه والكاردينال ولا بين بين الملكين ، الاحاديث التي سبقت الاشارة اليها •

والى جانب ذلك ، يرى بعض النقدة المحدثين ، أن أبا عبدالله حينما خرج للقاء الملكين الكاثوليكيين ، قد فعل ذلك وهو في صحبه وحشمه فقط دون أهله ، وأنه خرج يومئذ من داره الملكية الخاصة بحي البيازين ، ولم يخرج من قصر الحمراء ، وأنه كان يعيش في هذه الدار مع أهله وولده مذ عاد من الاسر ، حتى أعلن الخلاف والحرب على الملكين الكاثوليكيين ، وأنه كان يشعر وهو في الدار ، أنه بين انصاره ومؤيديه • وأخيراً أنه كان قد أمر بأخلاء قصر الحمراء ، وندب من يقوم بمهمة التسليم في اليوم الثاني من كانون الثاني – يناير • وفي هذا اليوم ، خرج في نفر من صحبه ليقدّم الى الملكين الكاثوليكيين شعائر التحية والخضوع ، ثم عاد الى داره فبقى بها أياماً ، حتى سويت مسألة مصيره مع الملكين الكاثوليكيين • على أنه يبدو لنا من تتبع حوادث حصار غرناطة ، وما تلاه من مفاوضات على التسليم ، أن الرواية الراجحة في هذا الشأن ، هو أن أبا عبدالله ، حتى مع افتراض أنه لم يشهد رسوم التسليم ، ولم يقم بها بنفسه ، كان يقيم بقصر الحمراء ، يحيط به وزراؤه وقواده طيلة هذه الاحداث الخطيرة ، أو على الاقل مذ بدأت

مفاوضات التسليم بينه والملكين الكاثوليكيين ، ومنذ أبرمت بينهما معاهدة التسليم ، حتى يوم الحسم النهائي الذي تم فيه ذلك التسليم ، وأنه خرج في ذلك اليوم المشهود من الحمراء للقاء عدوه الظافر ؛ ومن المعقول أن تكون الحمراء قد أُخليت قبل ذلك استعداداً لتسليمها لسادتها الجدد ، وذلك حسبما يشير اليه صاحب : « أخبار العصر »[٥٠] .

وتلقى الرواية الاسلامية المعاصرة لتلك الاحداث ضوءاً على دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، وتصفه على النحو التالي : « فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٤٩٢م) أقبل ملك الروم بجيوشه ، حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر ، وكان قد طلب من أهل البلد حين وقع الاتفاق على ماذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوه خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته. فلما أطمئن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير ، وبقي هو خارج البلد ، وشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعُدّة ، وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً الى محلته ..... ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ، ومؤمّنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل في جيوشه حين أطمأن ، فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه ، وبقي الجند خارج البلد ، وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار الى محلته ، فمن غد أخذ في بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها واصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد على الحمراء بالنهار ويرجع بالليل ، فلم يزل كذلك الى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه في نفر من قومه وحشمه ..... »[٥١] .

---

(٥٠) اخبار العصر (٥٠) .

(٥١) اخبار العصر (٥٠ ــ ٥١) .

وهكذا اختتمت المأساة الاندلسية ، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الاسلامية في اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافرا فوق صرح الاسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الاسلام بالاندلس ، وطويت الى الابد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الاسلام ، وقضى على الحضارة الاندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء •

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم وموطن آبائهم واجدادهم ، وقلوبهم تتفطر حزناً وأسى ، على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أليمة ، تلك مأساة الملك التعس أبي عبدالله آخر ملوك بني الاحمر وآخر ملوك الاسلام بالاندلس • فقد تقرر مصيره وبينت حقوقه وامتيازاته وفقاً للمعاهدة السرية التي عقدت بينه والملكين الكاثوليكين وقد نصت المعاهدة المذكورة على أن يقطع أبو عبدالله طائفة من الاراضي والضياع في برجة ، ودلاية ، وأندرش ، واجيجر ، وأرجبة ، ولوشاء ، وبضعة بلاد أخرى من اعمال منطقة البشرات ، وهذه البلاد يقع بعضها في جنوب غرب ولاية المرية وبعضها الاخر قبالتها في جنوب شرقي ولاية غرناطة ،وأن يحكم أبو عبدالله في هذه المنطقة باسم مالك قشتالة وتحت حمايته ، ويتمتع بدخلها وسائر غلاّتها وحقوقها • وقد حددت اقامته أو اختار هو الاقامة في احداها وهي بلدة أندرش الواقعة على النهر المسمى بهذا الاسم شمال برجة •

ولما اقترب اليوم المروّع — يوم التسليم ، قام أبو عبدالله باتخاذ أهبته للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته .• وفي صباح اليوم الثاني من كانون الثاني — يناير سنة ١٤٩٢ م ، في الوقت الذي اقترب فيه النصارى من أسوار غرناطة ، كان أبو عبدالله قد غادر قصره وموطن عزه ومجد ابائه الى الابد ، في مناظر تثير الاسى والشجن •

وهناك روايتان ،ومنهل خرج أبو عبدالله عندئذ لاخر مرة من الحمراء

مع أهله وحشمه وأمتعته ؟ أم هل خرج بمفرده في صحبه من الحمراء للقاء الملكين الكاثوليكيين ، ثم لحق به بعد ذلك ركب أهله وأمتعته ؟ وهل سار توا الى طريق البشرات حيث تعين محل اقامته ، أم عرّج على المعسكر القشتالي الملكي في شنتفي ، فلبث فيه مع أهله أياما ، ثم سار بعد ذلك الى البشرات ؟

أما الرواية الاولى ، وهي أكثر الروايات ذيوعا لدى المؤرخين القشتاليين، فتقول : في فجر اليوم الثاني من كانون الثاني — يناير ، وهو اليوم الذي حدد لتسليم الحمراء . كان ضجيج البكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه، وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع واله ، وساد الوجوم كل محيّا ، واحتبست الزفرات في الصدور . وما كادت تباشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ركب قاتم مؤثر ، هو ركب الملك المنفي ، يحمل أمواله وأمتعته، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الاميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها ، يشع الحزن من محيّاها الوقور ، وكان باقي السيدات من اله وحشمه ، يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق الركب غرناطة في صمت البكور وستره ، وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة الى الابد ، ضج الحراس بالبكاء لرؤية هذا المنظر المؤلم ، ثم اتجه الركب شطر نهر شنيل في طريق البشرات . وأما أبو عبدالله ، فقد اتجه الى وجهة أخرى ليتجرع كأسه المرة الى الثمالة ، وكان قد تقرر اللقاء في صباح ذلك اليوم بينه وملك قشتالة ، فخرج من باب مدينة الحمراء المسمى : باب الطباق السبع (Siete Suelos) ، وفي طريقه الى لقاء عدوه الظافر وسيده الجديد ، في نفر من الفرسان والحاصة . فاستقبله فرديناند بترحاب وحفاوة في محلته على ضفة نهر شنيل ، وحين لمح أبو عبدالله فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند بادر بمنعه ، وعانقه بعطف ومودة ، فقبّل أبو عبدالله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع . ثم قدم اليه مفتاحي البابين الرئيسيين للحمراء قائلا : « انهما مفتاحي هذه الجنة ، وهما

الاثر الاخير لدولة المسلمين في اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا واشخاصنا ، وهكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيما عادلا » . وتناول فرديناند المفتاحين : « لا تشك في وعودنا ، ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة ، وسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك[٥٢] بيد أن مؤرخا قشتاليا عاش قريبا من ذلك العصر ، يقدم الينا رواية أخرى ربما كانت أقرب الى الصحة والمعقول ، وهي ان مفاتيح الحمراء قدّمها القائد إبن كماشة مأمور التسليم الى الملك فرديناند حينما وصل الى الباب الرئيس ، وأن فرديناند ناولها الى قائده لو بثدى مندوسا (كونت تندليا) الذي عينه حاكما عسكريا لغرناطة[٥٣] . وسار أبو عبدالله بعد ذلك صحبة فرديناند ، الى حيث كانت الملكة ايزابيلا في ضاحية أرمليا ، فقدم اليها تحياته وطاعته ، ثم ارتد الى طريق البشرات ، ليلتحق بأسرته وخاصته . وأشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة ، فوقف يسرح نظره لاخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها وشهدت عزه وسلطانه،فانهمر في الحال دمعه،وأجهش بالبكاء ، فصاحت به أمه عائشة : « أجل ! فلتبك كالنساء ، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » وتعرف الرواية الاسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن بأسم شعري مؤثر هو « زفرة العربي الاخيرة » ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعيّنها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

والباب الذي خرج منه أبو عبدالله لاخر مرة ، وهو باب الطباق السبع ، قد سُدّ بعد خروجه منه برجاء منه الى ملك قشتالة ، وبنى مكانه ، حتى لا

(٥٢) تردد معظم التواريخ القشتالية اللاحقة وصف هذا المنظر وذكر قصة ابي عبدالله . انظر : L. Alcontra ; Ibid ; V. III. P. 73

(٥٣) Luis del Marmol : Relelian y Cosligo de las Moriscos de Granada, Lib. I, Cap. XX.

يحوزه من بعده انسان(٥٤) . ومازالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الاطلال الدارسة . وهو يقع في طرف الهضبة في الجنوب الشرقي منها على مقربة من : « برج الماء » والذي رآه يشهد أنه قد سد فراغه حقيقة بالبناء .

وأما الرواية الاخرى ، وهي الاقل ذيوعا ، فخلاصتها أن أبا عبدالله خرج من الحمراء صبيحة يوم التسليم بمفرده وفي نفر من صحبه الى لقاء الملكين الكاثوليكيين ، وخرج بعد ذلك ركب أهله وأمتعته من الدار الملكية بحي البيازين ليلتقي به بعد انتهاء مهمته ؛ وأنه لم يسر بعد ذلك توا الى البشرات ، بل سار بأهله وأمتعته الى المعسكر القشتالي في شنتفي ، فقضى به أياما ، حتى سويت المسائل المتعلقة بمصيره ، ثم سار الجميع بعد ذلك الى أندرش التي اختارها أبو عبدالله مقرا ومقاما .

٣ ـ عاقبة الملك المتخاذل

كان لسقوط غرناطة وانتهاء دولة الاسلام في الاندلس ، وقع عميق في الضفة الاخرى من البحر ، في أمم المغرب التي لبثت عصورا ترتبط بالاندلس بأوثق الروابط ، وفي سائر العالم الاسلامي .

وكان له أيضا وقعه العميق في سائر الامم النصرانية ، فقد ابتهجت له أيما أبتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط القسطنطينية في قبضة الاسلام قبل ذلك بأربعين عاما . ورحبت سائر قصور اوربا بالنبأ ، وأقامت لاحيائه الحفلات الدينية والمدنية منوهة بفضل فرديناند وايزابيلا في تحقيق هذه الامنية العظيمة(٥٥) .

ولنبدأ الحديث عن مصير الملك المنكود أبي عبدالله محمد بن علي آخر ملوك الاندلس ، فقد غادر غرناطة ساعة استيلاء النصارى عليها ، وسار مع

---

(٥٤) . Marmol ; Ibid ; Lib. 1 ; Cor. XX. ; L. Alcontra, Ibid ; V. III. P. 30 .

(٥٥) Prescott : Ferd and Isalalle P. 299. والهامش .

آله وصحبه وحشمه الى منطقة البشرات ، واستقر هناك في بلدة أنْدَرَش ، وهي احدى البلاد التي أقطعت له في تلك المنطقة ليقيم فيها في ظل ملك قشتالة وتحت حمايته . وصحبه الى وطنه الجديد كثير من الفرسان والسادة والفقهاء، وفي مقدمتهم وزيراه : يوسف بن كماشة ، وأبو القاسم عبدالملك (المليخ) ، وكانا ألصق الناس به ، وأقربهم الى ثقته . وكانت أسرة السلطان المنفى تتألف من والدته السلطانة عائشة ، وأخته عائشة ، وزوجه مريم (أو مريمة) ، وولده الصغير[٥٦] . أما أخوه الاصغر يوسف ، فكان قد قتل في ألمرية أيام الفتنة بتحريض أبيه السلطان أبي الحسن أو عمه أبي عبدالله الزغل .

وكان أبو عبدالله عندئذ ، فتى في نحو الثلاثين من عمره ، وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط تاريخ مولده ، فأن صديقه المؤرخ القشتالي هرناندو دي بايثا يقول لنا : انه كان في نحو العشرين ، يوم استطاع الفرار من سجن أبيه السلطان أبي الحسن في سنة (٨٨٧ هـ ــ ١٤٨٢م) ، وبذلك يكون سنة يوم تسليم غرناطة نحو الثلاثين .[٥٧] وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة تلك ، وصفا لشخص أبي عبدالله ، خلاصتها أنه كان ممشوق القد ، حسن

(٥٦) تشير بعض الوثائق المعقودة بين الملكين الكاثوليكيين وابي عبدالله الى : اخواته ، مما يدل على انه كانت له اكثر من اخت ، والمرجح ان عائشة كانت كبراهن .

(٥٧) راجع رواية : Hernando de Baeza القشتالية المنشورة ضمن كتاب : أخبار العصر (٦٣) .

(٥٨) Lafuente Alcantra, Ibid, V. III. P. 74. وقد انتهت الينا لابي عبدالله صورتان اسبانيتان ، كانت تحفظ احداهما بمتحف جنة العريف قبل الفائه ، وفيها يبدو ابو عبدالله بوجه وسيم واون جميل وشعر كثيف أصفر ولحية مفروقة ، ويرتدي ثوبا)صفر ، يظلله حرير أسود ، وعلى راسه قلنسوة عالية . والصورة الثانية تحفظ اليوم بمتحف غرناطة المسمى : casade lostıros ، والمعروف انها رسمت لابي عبدالله حينما كان في اسر الملكين الكاثوليكيين ، عقب معركة اللسانة ، وهي عبارة عن لوحة صغيرة الحجم ، وفيها يبدو ابو عبدالله فتى في

الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سـوداوان نجـلاوان ، ولحية قوية •[58]
وعاش أبو عبدالله وآله وصحبه في تلك المملكة الصغيرة الذليلة حينا ، وأنشأ له في أندرش بلاطا صغيرا ، وكان يعيش هناك في ترف ورغد ، وكان يعشق الصيد ويقضي فيـه كثيرا من اوقاتـه ، ويجوب أطراف مملكتـه الصـغيرة فوق جواده[59] •

وكان فرديناند وايزابيلا ، بالرغم من انتصارهما وقضائهما الاخير على المملكة الاندلسية ، قد لبثا يتوجسان من أعماق نفسيهما ، من بقاء السلطان المخلوع في الاراضي الاسبانية ، ويخشيان أن يكون مثار القلاقل والفتن ، ويتوقان الى ابعاده وحاشيته عنها ، مبالغة في الحيطة، واتقاء لكل خطر•وكانا يفرضان على أبى عبدالله رقابة صارمة ، ويتلقيان أدق التقارير والأنباء ، عن حركاته وسكناته ، وكانت عيناهما الساهرة على رقابته ، الوزيران الماكـران يوسف بن كماشة وأبو القاسم عبدالملك[60] • ولم يمـض على اقـامة أبى عبدالله في أندرش زهاء عام ، حتى بدأ الملكان الكاثوليكيان يسعيان سرا في تحقيق غايتهما الاخيرة ، وكان سـبيلها الى ذلك ابن كماشـة وأبا القاسـم عبدالملك • ففي شهر آذار ـ مارس سنة (١٤٩٣م) وقعت مفاوضات جديـدة بين الوزيرين وفرناندو دي ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين ، في شأن مغـادرة أبى عبدالله الاراضي الاسبانية ، والعبور الى المغرب • ويقال : ان أبا عبدالله لم يأذن لوزيريه في اجراء هذه المفاوضات ، ولم يعلم بها حتى تمخضت عـن مشروع جديد ، يقرر فيه أبو عبدالله بتنازله عن جميع حقوقه واملاكه ، نظير

=
عنفوانه ، بوجه عريض وأنف منسق ، وعينين خضراوين ونظرات حادة ، تغشاها الكآبة ، وشعر كستني غزير ، ولحية صغيرة مفروقة ، وقـد رسمت حول عنقه حلقة رمزية لوقوعه في الاسر •

(٥٩) Lafuente Alcantra, Ibid ; V. III. P. 80.

(٦٠) Lafuente Alcantra, Ibid ; V. III. P. 81.

ثمن معين ، ويتعهد بالعبور الى المغرب . ويقال : ان الملك المنكود حينما عرض عليه ابن كماشة هذا الاتفاق ، ثارلعقده ، وكاد يبطش بوزيره ، ولكنه عاد فاستمع الى نصح الوزير وشرحه ، بان البقاء في أرض العدو ، وفي ظل العبودية والهوان ، لم يبق له محل ، وأنه ليس مكفول السلامة والطمأنينة ، وأن العبور الى أرض الاسلام خير وأبقى . ولعل أبا عبدالله نفسه قد أدرك، كما أدرك عمه مولاي الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة التي فرضت عليه ، لا تحلو له ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المؤلم، كتابع لملك قشتالة . وعلى أي حال ، فقد اقتنع أبو عبدالله ، بوجهة نظر وزيره ، ولكنه أرسل أمينه ومدير شئونه أبا القاسم عبدالملك (المليخ) ليسعى الى تعديل الاتفاق لمصلحته . وبعد مفاوضات جديدة ، وضع الاتفاق النهائي، الذي قبله السلطان المخلوع . وخلاصته : أنه يتعهد بالعبور الى المغرب ، في موعد أقصاه نهاية شهر تشرين الاول ــ اكتوبر سنة (١٤٩٣م) ، وأنه تنازل عن سائر ضياعه ، في أندرش ، ولوشار ، ويرشينا وغيرها ، وكذلك عن أملاكه الاخرى في غرناطة ، بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، وذلك نظير ثمن اجمالي قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالي (كاستليانو) من الذهب الحر ، أو الدوقات المضروبة من الذهب الخالص . كما يتنازل أبو عبدالله عن اختصاصه المدني والجنائي ، ويحمل اليه المال قبل رحيله بثمانية أيام ، ويقدم اليه الملكان عربتين لحمل متاعه ، وسفنا ينتقل عليها مع صحبه ، الى المغرب . ويتضمن الاتفاق نصوصا أخرى ببيع الأميرات لأملاكهن ، الى الملكين الكاثوليكيين ، وكذلك ببيع الوزير ابن كماشة والوزير أبى القاسم كل لأملاكه ، نظير مقادير من المال.

ويحمل هذا الاتفاق تاريخ (١٥ نيسان ــ أبريل سنة ١٤٩٣م) ، كما يحمل في ذيله موافقة أبى عبدالله بالعربية ممهورة بتوقيعه وخاتمه ، وهي تدل بألفاظها ومعانيها على كثير من العبر المؤلمة : « الحمد لله الى السلطان والسلطانة أضيافي ، أنا الأمير محمد بن علي بن نصر خديمكم ، وصلتني من مقامكم

العلي • العتيد وفيها جميع الفصول التي عقدها عني وبكم التقديم ، من خديمي القائد أبو القاسم المليح ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هبت مذكورة بهذا الذي هي تصلكم • واني نوفي وتحلف أني رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد • وترى هذا خط يدي وطابعي أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولي • ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعون وثمانمائة • أنا كاتبه محمد بن علي بن نصر ، رضيت وقبلت جميع ما في هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدي الى أضيافي السلطان والسلطانة مدّ لي هناكما » •

وتوفيت زوجته قبل رحيله ، فلم يحل هذا الرزء دون مضيه ، في اتخاذ أهبة الرحيل • وفي أوائل شهر تشرين الاول ــ أكتوبر سنة (١٤٩٣م) غادر أبو عبدالله الوطن في غمر من الحسرات والأسى ، وجاز الى المغرب بأسرته وأمواله وحشمه ، من ثغر أدرة الصغير الواقع جنوبي برجة ، في سفينة كبيرة أعدّت لرحيله ، وعبر في نفس الوقت من ثغر المنكب عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر ، في صحبه ممن آثروا الرحيل ، وبلغ جميع الذين عبروا مع الملك المخلوع ألفا ومائة وثلاثين شخصا (٦١) •

ــ يتبع ــ

(٦١) Lavuente Alcantra , Ibid ; V. III. P. 81. ويقول صاحب اخبار العصر : ان الذين رحلوا مع أبي عبدالله بلغوا نحو سبعمائة فقط .

قراءة جديدة في شعر عمر بن ابي ربيعة

الدكتور نوري حمودي القيسي

عميد كلية الآداب / جامعة بغداد

أوشكت الدراسات الأدبية التي كتبت عن عمر بن ابي ربيعة ان تلتقي على بعض الجوانب التي اهتدي اليها الباحثون وهم يتلمسون الظواهر العامة التي وقفوا عندها بعد ان اقتصرت الدراسات القديمة أو التراجم على اعجاب جرير والفرزدق بشعره وتقديمه على كثير من الشعراء وتفضيل ابن سلام[1] على بعض شعراء الطبقة السادسة من طبقات فحول الاسلاميين حيث قال :

كان عبدالله بن قيس الرقيات أشدّ قريش اسر شعر في الاسلام بعد ابن الزبعري وكان غزلا وأغزل من شعره شعر عمر بن ابي ربيعة وكان عمر يصرّح بالغزل ولايهجو ولايمدح[2] ويروي المبرد حكاية عن قراءة عمر لقصيدته الرائية على ابن عباس وهو يومئذ غلام ويذكر انها ثمانون بيتا واعجابه بها وحفظها وانشاده اياها كلها[3] . ويذكره وهو يستنكر قتل النساء لانها مسألة نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] ويفيض بذكر اخباره والاستشهاد بشعره ولقائه بنصيب والأحوص وسماع ابن ابي عتيق وهو من النساك

---

(١) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء ٢/٦٤٨ .
(٢) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء ٢/٦٤٨ .
(٣) المبرد . الكامل ٣/٩٦٥ – ٩٦٦ .
(٤) الكامل ٣/٩٨٥ .

أشعاره وأخباره مع الثريا وأم عمر بنت مروان بن الحكم وجاء على ذكر الرائية كاملة •• ويبدو ان المبرد كان من المعجبين بشعره لكثرة ما استشهد به في كتابه ••

أما ابو الفرج فقد أفاض في ترجمته في الجزء الأول وبلغت ترجمته من ص ٧١ ــ ٢٣٠* وتكاد أخباره تتناثر في معظم الكتاب وعرض فيها لاخباره ومولده ومغامراته وشهادة جرير له وما جرى لشعره من نقد ومفاضلة وما جرى له مع عبدالله بن قيس الرقيات وجميل واخلاقه وعذوبة شعره ورقة معانيه وما شهر به من شعر غزلي وعفيف وصلته بابن ابي عتيق ونزوله الكوفة والعقيق واخباره مع النساء حتى وفاته • ولا يكاد كتاب من كتب الأدب يخلو من ذكر ترجمة له أو الاستشهاد بشعره لما وجدوه فيه من رقة وعذوبة وشهرة ونبوغ وخروج على ما هو مألوف في الحديث والحوار ••

واذا كان القدامى قد ذهبوا هذا المذهب في شعره فلم يكن حظه عند المحدثين بأقل نصيبا بعد ان وجدنا المحدثين يتقاسمون الحديث عنه فكان نصيبه عند طه حسين والعقاد وزكي مبارك وجبرائيل جبور وشوقي ضيف ويوسف خليف وآخرون ممن استأثروا بشخصيته وأدركوا سر شهرته واستهوتهم خفة روحه ورقة أحاسيسه وبسطه نفسه ولطيف حواره وتميُّز مفرداته عن غيره ممن عاصروه أو نهجوا نهجه وقد استهوتهم نرجسيته وعشقه فأفاضوا في معالجة بعض القضايا النقدية التي تتصل بالسرد والحوار وما برز من خصائصه في قصصه الشعري التي آثرها والموسيقى الداخلية أو الخارجية التي ميزت قصائده والعوامل التي حملته أو أثّرت فيه ••

وعلى الرغم من هذه الدراسات فقد وجدت في الشاعر مجالا لمعاودة القراءة وفي تحليل قصائده ما يضفي عليه ألوانا اخرى قد تعين الدارسين

(*) ابو الفرج : الاغاني ٧١٧/١ ــ ٢٣٠ •

على تطبيق هذا المنهج وصولا الى ما كان الشاعر يرغب في التعبير عنه أو يسعى من أجل ارضاء رغبته أو تحقيق اماتته بعد أن اصبحت المعادلة غير واضحة في تحديد مساره وهو يتقلب بين أربعة وثلاثين اسما من أسماء النساء وخمسة ألقاب ويكرر بعضها اربعا وثمانين مرة[٥] وبعضها تسعا وثلاثين واثنتين وعشرين ويتنازل العدد بالنسبة للرباب وسلمى والثريا وأسماء وسكينة وعثيمة وبقية الاسماء حتى يوشك المرء ان يقول ان الاسماء أو الكنى التي وردت في الديوان تكاد تكون في أغلبها غير حقيقية او رمزية اتخذ منها الشاعر ستارا لاخفاء الاسم الحقيقي[٦] الذي قد يكون واحدا منها خوف التشهير بمن بادلته الحب أو تجنبا لما كانت تثيره الحقيقة وما يمكن ان يلحق بها لو عرفت وقد جاء ذلك صراحة في أبياته التي يقول فيها..[٧]...

اسميها لتكتم باسم نعم
ويبدي القلب عن شخص حبيب[٨]
وأكتم ما أسمّيها وتبدو
شواكِلُهُ لذي اللب الاريب

ويقول في موضع آخر[٩] :

ألم تعلمي ما كنتُ آليتُ فيكُم
واقسمتِ لا تخلين ذاكرة باسمي

وفي موضع آخر يشير على لسان فتاة اخرى[١٠] :

---

(٥) يكرر اسم هند .
(٦) يكرر اسم نعم .
(٧) يكرر اسم زينب .
(٨) الديوان / ٢١ .
(٩) الديوان / ٣٧٥ .
(١٠) الديوان / ٣٨٢ .

أهو يــا اخــتِ باللــه الــ ذي لم يــكـنْ عــن اســمي ؟

ويبدو ان (هندا) قد استغرقت من شعره اوسع مساحة وانها استأثرت باكبر قسط من شعره واصبح حديثه عنها هو الحديث الذي يأتي عـــن غيرها بما وصفها به وحاورها بالوان ووقف عنده من اثارات عاطفية ومواضع اطال في ذكرها ..

وتؤكد الدراسات التحليلية التي تعتمد الاحصاء دليلا والترابط بين المعاني وصولا الى الموضوعات التي يكثر من اســتخدامها الشعراء انهـم يتحركون في اطار محيط تتوحد فيه افكارهم وتلتقي في دائرته رغباتهم او مطامحهم أو احاسيسهم وهم يختارون من المفردات ما يؤكد هذه الحقيقــة ويصوغون من الجمل ما يعطي هذه الالوان زهوها الحي وواقعها المطلوب وحركتها التي تتكامل فيها تلك المطامح .. واصبح بامكاننا ان نفرد لكـــل شاعر معجما ولكل معجم خصائص تتكامــل في توافقهــا النزعات الهامسة وتستجيب لها الصور المتتالية التي تتوارد من خلال الاغراض . ومـــن النادر ان نجد ديوانا كاملا يطوي بين ثناياه غرضا ذاتيا واحدا ويعبر عن حس وجداني متواصل كما وجدناه عند عمر بن ابي ربيعة وهذه اول خصيصــة يؤكدها مثل هذا الاحصاء ، بعد ان وجدنا الشعراء تتنازعهم رغبات الحياة وتستهويهم مطــامع الدنيــا ويستقر في وجدانهم حب فيتوزع شعرهم بــين الاغراض التي تتسرب الى هذه المعاني محاولين الوصول اليها وهم يوفقون بين قوالب من الشعر الفوها وصيغ من المعاني تعاوروا عليها تسعفهم في ذلك قدرة شعرية تميزهم على غيرهم وتعينهـم احاسيس حادة توثب مشاعرهم فيحسنون الاداء بما يوهبــون من قدرات تحقق لهم الخروج على المالوف بتقديم الصورة الجديدة واضافة المعنى المبتكر وتوشية اللوحة بالوان تقع عليها انظارهم او تتألق في خوافقهم لتكسوها القا جديدا ووشاحا يعطـــي

الشعراء خصيصة يفتقد اليها غيرهم ..

وعمر بن ابي ربيعة يمتلك قدرة شعرية تجرد من خلالها عن كل النوازع وابتعد في جوهرها عن كل ما كان يشغل غيره من الشعراء ليستقل حسا ويمتد مساحة وينفرد اسلوبا وصياغة انصرفت لبعض هذه الخصائص اقلام الكتاب ووقفت عند بعضها الآخر دراسات الباحثين وبقيت في حياته وشعره وتفسه منها اشياء آخر لعلنا نوفق للوصول الى بعضها من خلال ما وصل اليه من متابعتنا بعد ان طوينا مساحة الزمن ونحن تتابع خطوات عمر فتى وصبيا وشابا وشيخا علا الشيب رأسه واوشكت ان تتضاءل فورة الشباب في نفسه وصمتت نبرات الشوق في وجدانه ولكن نفسه الشعري بقي صوتا موحدا يعبر عن الشوق المتواصل والحب الدافق والذوق الرفيع الذي لم يتركه في اصعب الظروف ولم يتخل عنه في اقدس الاماكن ..

لقد كانت محاولتي دراسة الشاعر تنبثق من اعادة قراءة شعره وفق منهج احصائي آثرت تجميع مفرداته على وفق ماوجدته من دلالات موحية او اوصاف مكررة او حوار مرسوم وقد استطعت ان اهتدي الى بعض الخصائص التي كانت وقفات الدارسين عندها سريعة وملامح ابرازها كانت خاضعة ووضوح ألوانها لم يكن متناسبا مع ما كان يريده الشاعر .

وفي هذه الاضاءات استطعت ان احدّد الصورة الجديدة لهذا الشاعر الذي ظل على مدى الاجيال رمزا من رموز الشعر الوجداني العربي .. بعد أن حاولت ان أقرأ الديوان أكثر من مرة مستهديا بما وضعته لنفسي من مواقف احدد حركته فيها واضع الثوابت التي يمكن ان تكون بدايات لهذه الدراسة فكان الحوار موضوعا متميزا في قصائده .. والتوقف عند شعر عمر بن ابي ربيعة يثير اكثر من مسألة ويبعث اكثر من تساؤل بعد أن أصبح الشاعر لوحة متكاملة ينتظمها نسق واحد ويشدها صوت واحد وتثيرها هواجس موحدة لتلتقي عند صورة يتفرد بها دون غيره ويغرق في وصفها الى

الحد الذي لايطاوله في الوصول اليه أحد بعد ان أولاها من عنايته كل ما يملك من مشاعر وبعث في روحها كل ما توهج في اعماقه من عاطفة واضاء زواياها بما استنبطه من مفردات موحية وصور مركبة ومثيرة وثقافة شعرية موروثة التقط فيها ما يناسبه واستمد منها ما يوافق طبعه فكانت حياته الحافلة بكل مظاهر الترف الزاخرة بكل ألوان العواطف والمشرقة بكل اضاءات البهجة الغزلية التي تغمر قلوب العشاق وتعيش في ذاكرة الغزلين •• فكان الديوان صوتا تتجاوب فيه أصداء ترفه المفضي الى اللهو وعشقه الهائم في ملكوت الاسماء وهي تتسابق على لسانه حتى تجاوزت الحدود المعقولة وانطلقت في عالم الايحاء الذاتي الذي تصوره له مخيلته ويذهب اليه خياله وقد أصبح الحديث عن الرسول والاتراب والصاحبات من اللوازم التي يعتمدها وهو يروي على لسان الجمع حديث حبيباته الى جاراتها وأترابها ويضمن هذا الحديث ما يرغب في فعله ويسعى من أجل تحقيقه بعد ان يضفي على هذا الحديث كل ما يدعوهن الى كشف السر الذي حدا به الى هذه الزيارة المفاجأة واللقاء غير المرتقب •

وهنا تكون الاجابة مرضية للشاعر على وفق ما يريده هو وما يخطط له في بناء قصيدته • ان هذه الحالة التي يكررها الشاعر قد تكون واحدة أو أكثر من واحدة ولكن الشاعر جعلها نسقا مضطردا ونمطا ملازما لمعظم قصائده وقد يخوض الشاعر غمار استحداث تداعيات كثيفة تؤكد التعلق به وهذا يحمله على التوصية بعدم اظهار التهالك في الحب واللوم على فعلته والاستماع اليه واشعاره بقول الوشاة وما يدور من أحاديث ليكون على علم •• وهي أطراف من الحديث الذي يحاول الشاعر ان يملأه بما توحيه له حالته النفسية وتثيره نوازعه وما تعكسه الصورة التي يرغب من خلالها الوصول اليها ••(١١) •

---

(١١) الديوان / ٣١٦ •

ومن خلال الحوار المتواصل الذي يستهدي به والصور المتعددة التي تخالجه والاحاديث المسلسلة التي تتخلل الحوار تبدو غرابة الاساليب وهي تتوزع بين استبشار واستقبال تهشّ له الوجوه وتجهّم وتردّد يقطّب له الجبين حتى يوشك القارىء لديوانه انه يحس بحالة الحيرة وهو ينتقل بين قصصه ومروياته وأخباره وأحاديثه (١٢) .

وتكاد تصبح معظم قصائده حوارا متواصلا يعبّر عن الاصداء المتجاوبة في أعماقه وتؤشر الدفق العاطفي الذي يعيش في جوارحه وتحرك وجداني تصوغه نفحاته العاطرة وأصبحت القصيدة التاريخ اليومي الذي يعتور سلوكه ولم يجد سبيلا الا القصيدة بعد أن يحشّد لها من الصور والألوان ما يرضي هذا الصوت المتعالي والنداء المتصاعد الذي يحكم تصرفات الشاعر ويطوي خفايا نفسه التي لم تستقر ولم يكتب لها الهدوء الا بعد ان تصوغ تلك الاصوات قصيدة يرى فيها نفسه ويقرأ في مفرداتها وجدانه النابض ... ومن الغريب ان كل الأسماء التي يتحدث عنها يكنى بها عن ابنة العم في حالة مخاطبته وابن العم في حالة مخاطبتها وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أن الأسماء التي وقف عندها لم تكن أسماء حقيقية وانما رموز أراد من خلالها الوصول الى الواحدة أو المطلوبة التي حاول اخفاء ذكرها بين الأسماء الكثيرة ويبقى حديثه وهو يقسم بأغلظ الايمان بأن قلبه لم يتعلق بغير من يذكرها موضع اهتمام الباحثين(١٣) . وان كل النساء وان دنت لوصال أو نأت فهي فداء للرباب (١٤) .

واذا كان الحوار قد أخذ هذا الجانب فان الأوصاف التي استهوته في

---

(١٢) الديوان / ١٠٦ .
(١٣) ينظر الصفحات في الديوان /٥٤ ، ٦٩ ، ١١٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٤٤٣ .
(١٤) الديوان / ٣٦٦ ، ٤٢٣ .

غزلة قد جسّدت الصور التي ظل يدور حديثه عنها وفي حدود المعاني التي حاول ان يولّد فيها كل ما كان يقدر عليه أو يلونها بكل الألوان التي اسعفته قريحته عليها اشباعا لرغبته وتطمينا لحاجته واظهارا لما كان يساوره من مشاعر دافقة وهو يقف أمام هذه الصور التي تستهويه فقد استوقفه ثغر المحبوبة .. وهو يذكره باوصافه التي تتردد جمعا وقد يجمع الشاعر كل الأوصاف التي تروق له أو يتمناها أو يتذوقها فهو بارد الطعم شتيت نبته كالاقاحي ناعم النبت واضح عذب طيب الريق وهي أوصاف تتكرر وتأخذ مفردة الشتيت (المفلج : المتباعد بين الاسنان) مساحة كبيرة تبلغ خمس عشرة مرة[١٥] أما تشبيهه بالاقاح فيصل الى أربع عشرة مرة ويضيف الاقاح الى الرمل ويجعله لذيذا ويصفه بالنعومة[١٦] واما وصفه بذي اشر تحزيز الاسنان ورقتها) فيأتي عشر مرات [١٧] . وهو عذب المقبل[١٨] ولذيذه وبارد[١٩] وواضح الانياب[٢٠] وطيب الريق والنكهة واغر ولذيذ طعم المشرب[٢١] وصافي اللون ورقراق[٢٢] وذي رونق وذي غروب وطيب الأنياب[٢٣] وعذب الثنايا وعذب اللثات[٢٤] وطيب الريح[٢٥] واحوى

---

(١٥) الديوان / ١٥ .
(١٦) ينظر الصفحات في الديوان ١٠١ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ ، ٤٤٣ .
(١٧) ينظر الصفحات في الديوان / ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ .
(١٨) تنظر الصفحات في الديوان / ١٣٥ ، ١٨٥ ، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١٩، ٢٢١ .
(١٩) ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٢١، ٣٢٨، ٣١٦ .
(٢٠) ١٣٥ ، ١٦٦ ، ٢٥٢ ، ٣٤٦ .
(٢١) ٥٣ ، ٦٩ ، ١٤١ ، ٢١٨ .
(٢٢) ١٠١ ، ١١٠ ، ١٣٨ .
(٢٣) ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٨٦ .
(٢٤) ٦٩ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ .
(٢٥) ٨٣ ، ١٣٨ ، ١٨٣ ، ٣٢٢ .

المراكز (أحمر الشفة)[1] ويستخدم الفعل يفترّ في كثير من أوصافه لايحائه بتجميل الصورة وايضاح الاسنان التي اكثر من وصفها ويذكر لثمة وتقبيله وتكاد هذه الأوصاف تطغى على بقية أوصافه وهو يقف عنده في بيت أو بيتين أو يطيل ليصل الى ثلاثة أبيات وتبقى مفرداته محصورة في هذا الاطار بعد أن يؤكد غرضه ويحدد أوصافه بما ترسمه له مخيلته وتهوى اليه نفسه وتتوق عاطفته ويمكن ان افرد لعمر في هذا الوصف بابا لم يتطرق اليه الباحثون بهذه الدقة ويكاد يستقصي فيه كل ما يمكن ان يقال استكمالا لما عرف به أو التزم بوصفه وبهذا يكون عمر قد خرج عن اطار كل الدوائر التي تحدث عنها الشعراء وهم يقفون عند هذه الأوصاف التي اضفاها على الحبيبة ..

أما العيون فلها سحرها في حديث الشعراء ولها لونها في اعجابهم ولها تشبيهاتها في تصويرهم ولابد ان تكون أوصافها عند عمر الذي استنفذت المرأة جل شعره قد أخذت مساحتها فكانت الحوراء التي يذكرها ستاً وعشرين مرة أوضح فيها أوصافها وأبرز لوحاته وهو يراها بشدة سوادها وصفاء بياضها وسعتها واستدارتها وجمال نظرتها وسحر نظرتها ولابد انتكون تشبيهاتها بالرئم التي أتى عليها احدى عشرة مرة وجهاً آخر من وجوه اعجابه لتبقى بقية التشبيهات اقل عددا وهو يشبهها بعين الظبية والعين والمهاة والبقر والجؤذر واليعفور والنعجة الادماء وتأتي الاوصاف الاخرى المألوفة للطرف الفاتر والنظر المريض والعين القتول والنجل والكحلاء والمقل الحسان من اللوازم التي لم يجد بُداً من تجاوزها وهو يقف في أوصافه عند جمال موصوفاته وحوارهن وتساؤلاتهن وهن يقطعن المسافات الطويلة ويتبارين في معرفته كما يقول ــ ويستكمل الشاعر في صورته الكاملة بوصفه للجيد والعنق والرقبة بما يناسبها فهو اغيد وهي بعيدة مهوى القرط وجيداء وواضحة النحر

(١) الديوان /٣٧٤ .

والليه وتشبيه جيدها بجيد غزال وشادن وريم وخذول وجيد احور وجيد اسيل وأقلع وهي طويلة العنق يعلوه نظم وينتهي الشاعر بأوصاف الشعر التي يراها عناقيد كرم وسود غدائر واثيت حالك ووهف مائل وفاحم ومبكر ودواني وانابيب عنصل ومذيل ومضفور ..

ولم يترك من اوصافها جانبا الا وقف عنده فوصف جلدها وصوتها ونعته بالرخامة وذكر مشيتها فكانت قطوف الخطا تمشي الهوينا وتتهادى وتمشي مثي الضعيف ومشي الهادي ومثل النعامة ومشية البقر وتمشي تاودا ومشي الظبية وتميد وتتبختر وثقيلة الخطو وتستثيره رائحتها فالمسك يفوح من أردانها وهي خريدة وهي معطار ونشرها يتضوع وجيبها عطر والعبير ينضح منها ريا طيبة نقية الاثواب .. يفوح المسك من اردانها والعنبر ويكثر من جيبها والعنبر .. ومضمخ بالمسك ونشرها يتضوع واردانها تضوع بالعبير والرند المخلوط بالمسك وتبقى اللوحة التي زينها الشاعر لكل اللواتي ذكرهن مشرقات يزهو حليها وزينة ما كن يتزين به فكان الدر والياقوت والزبرجد والشذر والجمان وكانت الاسورة والعقود والدمالج وهي تتوالى ألوانا وتتلألأ عقودا ينظمها نسق من الحلي تحسبه جمر الغضا أو شهبا والكف الذي يزينها السوار والغزال الذي تحلى بعقد در بارق وجيد زينه خالص الدر والياقوت واذا كانت الزينة قد اقتطعت جزء من حديثه فالملابس كانت تقتطع الجزء الأكبر بعد ان وجد فيها بغيته والموصوفة وهي تشتكي شدة الازار أو تمشي في الخز أو يشق مرطها ويشف البرد عما وراءه ويضيق المئزر ويحاول كشف قناعها وتعقد المرط فوق دعص من الرمل وترفل في مطرفات السوس أو في الربط والمروط وقامت تعفي بالرداء مكانها . وقد نضت مجاسدها وتخالها في ثياب العصب ودينارا والكشح الذي يضيق به الشعار وتتكرر هذه الصور في معظم القصائد التي منحها من أوصافها ما جعلها

تزهو بحليتها وتختال بزينتها مستذكرا أوصافا عامة توزعت على (نواعم)[٢٦] و (آنسة)[٢٧] و (خرّد)[٢٨] و (خود)[٢٩] و (حسان)[٣٠] و (دمى)[٣١] و (ذات دلال)[٣٢] و (بيض)[٣٣] و (غرّاء)[٣٤] و (القتول)[٣٥] و (ذات الخال)[٣٦] و (كواعب)[٣٧] و (الجواري)[٣٨] و (رؤد)[٣٩] و (معصر)[٤٠] و (غادة)[٤١] و (صفراء)[٤٢] و (رعبوبة)[٤٣] و(لذة)[٤٤] وغيرها من الأوصاف و (روّع)[٤٥] و (محببة)[٤٦] و (مبتلة)[٤٧] العامة التي تلمس فيها الحسن الذاتي والمتعة الصوتية والمفردة الموحية وقد اختلطت في أوصافه العامة الألوان والخصائص الجمالية ودلالات الدلال والصفات المحببة في المرأة فجاءت الصور متداخلة والالوان محسوسة ومقاييس الجمال تكاد تتماثل وهي تحمل على كل معشوقة وتضاف الى كل امرأة وقف عندها شاعر أو تغزل بها أو ذكر حبه لها •• ومن خلال الوصف العام الذي حاول الشاعر من خلاله ان يصل الى ارضاء النفس واقناع الوجدان انحدر الى الاوصاف الدقيقة التي كانت ترضي الذوق وتحقق المطلوب الذي أصبح قريبا الى نفوس المعجبين فكانت (الأرداف) موضعا من مواضع اهتمامه وهو يصفها (بالعجزاء) و (الهركولة) و (الرداح)

(٢٦) ذكرت ١٤ مرة .
(٢٧) ذكرت ١١ مرة .
(٢٨) ذكرت ١١ مرة .
(٢٩) ذكرت ١١ مرة
(٣٠) ذكرت عشر مرات .
(٣١) ذكرت عشر مرات .
(٣٢) ذكرت تسع مرات .
(٣٣) ذكرت ثمان مرات .
(٣٤) ذكرت ثمان مرات .
(٣٥) ذكرت ثمان مرات .
(٣٦) ذكرت سبع مرات .
(٣٧) ذكرت ست مرات .
(٣٨) ذكرت ثلاث مرات .
(٣٩) ذكرت مرتان .
(٤٠) ذكرت مرتان .
(٤١) ذكرت مرتان وذكرت الهوامش الباقية مرة واحدة ..
(٤٢) ذكرت مرة واحدة .
(٤٣) ذكرت مرة واحدة .
(٤٤) ذكرت مرة واحدة .
(٤٥) ذكرت مرة واحدة .
(٤٦) ذكرت مرة واحدة .
(٤٧) ذكرت مرة واحدة .

و (المرتجة) و (البهكنة) و (الأهيل) و (المتراكم) و (الرواجح) و (المثقلة) وهي أوصاف مستمدة من الرمال التي وجد فيها الشاعر صورة شبه مناسبة اعتاد اعتمادها واقتنع باستخدامها وارتضى صورتها وشكلها وهي صفات مظهرية لاتخفى وخصائص منظورة لاتحجب . ويتدرج من (الأرداف) الى وصف (الخصر) الذي ينعته بما هو مألوف في شعر غيره فهو (مهضوم) و (مضمر الحشا) و (مهفهف) و (الهيفاء) و (القبّاء) و (المخماص) و (الدقاق) ليصل منها الى حديثه عن القوام فكانت (الممكورة) و (المجدولة) و (الجولّجة) و (الصامتة الحجل) و (البدّن) و (العسراء) وموصوفات اخرى تلتقي عند هذه الاشكال التي تضفي على المرأة لونا من ألوان الرشاقة أو الجمال في المنظور المتعارف عليه في تلك المرحلة . أما الوجه وهو ما يوحي بكل ومضات الشوق ويعبر عن صباحة الرضا وقناعة الاستقبال واشراقة الوفاء فقد كانت صوره تتجلى كشمس الضحى حيث وصف بها احدى عشرة مرة وواضحة الجبين احدى عشرة مرة والخد الاسيل عشر مرات وذات الخال سبع مرات والقمر خمس مرات وتأتي الموضوعات الاخرى كالنقاء والغراء والمبشار والمضى والشعاع والهلال والنضير والناعم والريان والواضح ألوانا اخرى تضيء قصائده وتلوّن شعره وتزهر قسمات مشرقة تضفي على الوجوه نعومة ورقة .. وهي اشارات تؤكد الأوصاف التي كان الذوق العام يألفها وربما وجدها الشاعر في أشكال موصوفاتها ولكنها في الغالب الأعم لاتمثل الحقيقة بكاملها الا ان نظرته أو تصوره أو خياله كان يحمله على ان يعطي الموصوفة ما كان يدور في نفسه ويتراءى له في حبيبته ويجمع عليه أهل الذوق من الشعراء وهم يتعاورون على ذكرها بما أفاضت عليهم اللغة من مفردات أو احتفظت به ذاكرتهم من أوصاف لأن الصورة التي يقدمها الشاعر في كل عضو من أعضائها تحدد النموذج وترى التمام في كمال مايضفيه واذا كانت هذه الاحكام قد نفذت الى أذواق الناس وارتضاها

الجمهور فان الاعجاب عن وصف أو تغزل بها كان لونا من ألوان الترضية التي أحاط بها نفسه وكتب من خلالها شعره وأعدّ من أجلها هذا الديوان الذي يعدّ قصيدة كاملة في وصف النموذج المطلوب الذي وقف عنده الشعراء •• ولعل المقاطع التي حددها في بياض الشمس ووضوح الجبين والقمر في اطلالته والاضاءة والبدر في سعوده والشعاع والازهر والنضير ومبشاء والمفتر والضاحك وغيرها من الاوصاف تعطي هذا التفسير حكمته وهو ينتقي لكل عضو أوصافه ويختار لكل وجه اشراقاته وما يقال في الوجه يقال في بقية الاعضاء كالثغر والعيون والرقبة والخد وما اراد وصفه ••

واذا كانت الاوصاف المنظورة قد استهوت الشاعر وهو يتحرك اليها بكل عواطفه ويندفع من اجل تجسيدها بما قدر عليه من اساليب الحوار والمناجاة فان الاوصاف المعنوية كانت الاخرى تمتد لتأخذ مساحتها في قصائده لتبعد عنه ما لحق به من غزل حسي فالموصوفة في شعره ذات خفر وعفيفة وغير فاحشة وتقرّ في مكانها وعقيلةومخدرةوكريمة وحصان وخجول وحرة الشمائل وهي اوصاف استجاب لها الشاعر لاسباب كثيرة ويمكن الجانب الحضاري الذي شهدته الدولة ومؤشرات العمر والولوع بمظاهر الترف والجمال والاختلاط بالامم الاخرى والوقوف على عادات تلك الامم كان الدافع وراء هذا الانسياق المتميز الا ان الصورة التي حرص عليها والتي تتماشى مع طبيعة العصر عربيا واسلاميا ظلت واضحة في شعره وحرص عليها من خلال الصورة التي قدمها للمرأة العربية بعد ان اضفى عليها الاوصاف التي ذكرها ••

وتختلط اوصاف المرأة التي رسمها عمر بترف الملابس ونفاسة الحلي وروعة الاكسية وجمال الجلابيب • وكأنه اراد ان يوازن بين الجانب والشكل المظهري الذي عبر عنه ليظهر المحبوبة كما أراد لها ان تظهر وقد اكتست أجمل

الملابس وتزيت بأحسن الحلي وعرضت نفسها بأجمل ما يمكن ان تتجمل به المرأة •

فهي تشكي شدة الازار وتلقي عنها الخمار وتمشي في الخز والمراحل وقد شف سجف القز عنها فكانت رئما في مجاسدها واذا لبث المئزر ضاق عن أردافها وتسبغ على نفسها رقاق البرود وهو وهي يلبسان الثوب المورد واذا سلبت المرط ابدت هضيما مبيضا وترفل في مطرفات السوس والعقيق من الديباج والقصب ويعجز المطرف العشاري عنها وترتدي كساءين من خز ودمقس وتكثر مفردات الخز والمرط والمطارف وأصناف المنسوجات اليمنية من العصب والمراجل ويذكر المرط عشر مرات والازار تسع مرات والبرد ثماني مرات والجلباب ست مرات والخز ست مرات والعصب خمس مرات والوشاح خمس مرات والنعال خمس مرات ويأتي على ذكر المطرف والثوب ثلاث مرات والقناع والشعار مرتين وتأتي بقية الملابس مفردات وهي تختلط بضروب الاقمشة فيأتي الدمقس والدرع والمجاسد والنطاق والنقاب والخمار والنصيف والقميص والمراحل ووشي الحبرات والحلّة ولم ينس الوذيلة (المرآة) والدرى (المشط) ومنزع الملابس •• وهي مفردات تؤدي المهمة التي اضطلع بها وهو ينقل الصورة ويرى الواجهة المشرقة ويرضي نفسه ويحقق أحلامه ويصوغ اللوحة التعبيرية التي ظلت تتلون باحاسيسه وهو ينتقل من مرحلة الى مرحلة ويعيش زمنا أثر زمن ويعاود تجربة في ظل تجربة • وتتجلّى ترافة الصورة حين تزدان بألوان الحلي والجواهر وتزين بالدرّ والجمان وتتسوّر بالسوار والدملج وهي تزهو بالياقوت والشذر والجزع ويكاد ينفرد عمر بهذا المعجم حين يذكر الدر خمس عشرة مرة والجمان والخلخال خمس مرات والياقوت أربعا والشذر والذهب مرتين وكذلك السوار والدملج والسخاب وهو لايجعل الحلي مجردة وانما تريه كما تزين السوار وتتراكم في صور الزبرجد والجمان والمرجان والدرر

والياقوت والشذر في بيتين[٤٨] وتحسب الحلي جمر الغضا والزبرجد والياقوت وقد قلّدت بالدر والمعصم بين الدملج والسوار • وتتناثر هذه المفردات في قصائده لتتلألأ صفاء وتشع نضارة وتزهو ألوانا متباينة تكسب مفرداته اشراقات مترفة وتضفي عليها من تراكيب النعمة ما يجعلها صورة لها خصائصها بين قصائد معاصريه وتمنحها من بريق الحلي ما يوهّج تعابيرها ويلهب معانيها •• ويُطيّب هذه الألوان بذكاء المسك الذي يكرره ثلاثين مرة والعنبر عشر مرات والكافور سبع مرات ومسك المسك والرند مرتين وتبقى ألوان العنم والزعفران والورس من زاهيات الاضاءة التي تظل بوارقها الخاطفة تلهب الأبيات وتشع أضواؤها بين ثنايا الغزل لتكسبها من فوح الشذا ما تطيب به النفوس وترتاح له العيون وتهفو لعطره القلوب الولهى ••

ان هذه الدراسة التي خضعت لهذا المنهج قد كشفت بوضوح عن المواضع التي أظهرت مقدرة الشاعر وأبانت عن دواخله وهو يحوم في هذه الدوائر وأعطت لكل لون من ألوانه مايستحق وتركت للدارسين مجال الوقوف عند كل لوحة •• ليأخذ مكانته المتميزة التي عرف بها شاعرا غزلا ولكن التفاصيل التي أخفتها هذه العبارة كانت واسعة لم تترك للباحثين مجال التأمل ليروا فيه ما يمكن أن يرى ويقرأوا في تفاصيله ما يمكن ان يقرأ حتى أصبحت كل لوحة من هذه اللوحات مجال دراسة وموضع استقراء وميدان بحث وهو ما تسعى اليه الدراسات بعد ان غلبت الاحكام العامة وسادت لغة التداخل واضطربت ضوابط الحكم النقدي •••

(٤٨) الديوان / ص ١٦٥ •

من المستدرك على

دِيوانُ الخُبْزأَرْزِيّ

المتوفى سنة ٣٣٠ هـ

الشيخ محمد حسن آل ياسين

عضو المجمع

(١)

روى ابن خالويه قال: «أنشدَنا نصر بن أحمد الخبز أرزي هذه القصيدة (١) ببغداد:

١ ـ نسيمُ عبيرٍ في غلالة ماءِ
وتمثال نورٍ في أديم هواءِ

٢ ـ حكى لؤلؤاً رطباً مُغَشّىً بجوهرٍ
مُصَفّىً؛ لفَرْطَيْ رقّةٍ وصفاءِ

٣ ـ لقدرحم الرحمنُ رقّةَ جسمِهِ
فجلّلَه من نورِهِ بِرداءِ

٤ ـ برى (٢) ملكوت الحسن في جبروته
فمن نورِ نورٍ في ضياءِ ضياءِ

---

(١) وردت الأبيات الثمانية الاولى من هذه القصيدة في الديوان، وهي تحمل الرقم (١).
وردت الأبيات ٢٥ ـ ٢٨ و ٣٢ ـ ٣٣ في حماسة الظرفاء: ١/١٨٥ـ١٨٦.
ورد البيتان ١ و ٥ في ثمار القلوب: ٤٧٩.

(٢) رواية الديوان: يرى ملكا في الحسن.

٥ – تسربل سربالاً من الحُسْـن وارتدى
ردائيْ (٣) جمالٍ طُرِّزا ببهـــاءِ
٦– تحيرتُ فيه لستُ احسِن وصفَهُ
عـلى أنني مـن أوْصَف الشعـــراءِ
٧ – فلو أنـه في عهـد يوسف قُطِّعَـتْ
قلـوبُ رجالٍ لا أكفُّ نســاءِ
٨ – يدير إدارات بسيفَـيْ لحـاظه
فيقتلنـا مـن غيـر سفـك دمـاءِ
٩ – له حركات تنثـر الشكـل بينهـا
إشارات لطـف واتِّقـاد ذكـاءِ
١٠– تلألأ كالدرِّ النقـيِّ بشـاشـةً
وشُـرِّب خـدّاه عقيـقَ حيـاءِ
١١– له غُـرَّة من تحـت شَعـرٍ كأنَّه
تبلُّجُ صبحٍ تحـت جنـح مسـاءِ
١٢– فأحسبـه مـن حـور عيـنٍ وانّمـا
أتى هاربـاً في خلسـة وخفـاء
١٣– فـلم أره الاّ التَفَتُّ توقُّفـاً
لرضوان خوفاً أن يكـون ورائـي
١٤– سيُؤخَذ منّا . ليس رضوان تـارِكاً
على الأرض حوريّاً ربيـب سمـاءِ
١٥– تَقَطّع في فيّ اسْمُهُ إذْ ذكرتُـه
بتقطيع أنفاسي لـه الصُّعَـداءِ

---

(٣) روايةِ الديوان : رداء .

١٦– فيا ميمَ مولايَ وياظاء ظالمـــــي
ويـــافاءَ فَـــوزي ثـــم راء رجائي

١٧– فديتكَ مَن هذي الصفات صفاته
من الحُسْن لِـــمْ يَلْقـــى بقبـــح لقـــاء

١٨ –أمِنْ أجلْ ذاك الوغد (١) أظهرتَ حشمةً
ومَنْ ذاك حتـــى تتّقـــي وتُـــرائي

١٩– وما ألْفَـــة الأُلاّف عـــاراً فتُتَّقـــى
وليس الهـــوى عيبـــاً لـــدى الظـــرفاء

٢٠– تُرى غُيِّرتْ عن عهدها تربة الهـــوى
فأخرج بذرُ الوصل زرعَ جفـــــاء

٢١– تكدَّرت الدنيـــا علَيَّ لأنَّنـــي
تأمَّلتُ تكديراً بمـــاء صفـــاء

٢٢– ولم أشتغل عن حُســـن وجهـــك إذْ بـــدا
تقطُّبُـــه الاّ بحُســـن عـــزاء

٢٣– ولمّا رأيتُ الغدرَ زانك في الهـــوى
رجعتُ وصبـــري عَبدُ مـــالكِ رائـــي (٢)

٢٤– فيانفس صبراً ، إنْ تَعيشي تُظَفَّـــري
وإن متِّ وجداً كنتِ في الشهـــداء

٢٥– فان حبيبي مَنْ يحبُّ تَنَعُّمـــي
وليس حبيبي مَـــنْ يحبُّ شقـــائي

٢٦– اذا ما لقيتُ البؤسَ عنـــد أحبَّتـــي
تُرى عند أعدائي يكـــون رجـــائي ! (٣)

(١) في الأصل المخطوط : الوعد (بالعين المهملة) ، ولعل الصواب ماأثبتنا .
(٢) كذا في المخطوط ، ويعني بـ (رائي) : رايي .
(٣) في حماسة الظرفاء : اذا كنت القى البؤس .... يكون رخائي .

٢٧– ولن يُرتَجى نصرٌ و لا كشف غُلَّـةٍ (٤)
اذا جـاء داءٌ مـن مـكان دواءِ

٢٨– الى المـاء يسعى مَنْ يغصُ بأكلـةٍ
فقل : أين يسعى مـن يغصُ بمـاءِ

٢٩– لك العفـو عمّا قد مضـى ولك الرِّضى
ولي أنْ تُوَفّي لي حقـوق وفـاءِ

٣٠– تعالَ نكاتمْ (٥) عتبَنا وعتابنـا
لنأْمَنَ تخليطـاً مـن الخلطـاءِ

٣١– ولا تسقني مـاءَ الوصال مُكـدَّراً
بتحريضهم ، دَعْني أمـتْ بظَمـاءِ

٣٢– وكـلّ يجـرُ النارَ حرصـاً لقـرصه
وكـلّ بمكرٍ خـادعٌ ودهـاءِ

٣٣– رضوا من معاصيهم بتشنيع تهمةٍ
فان فات شبعٌ طرمذوا بجُشـاءِ (٦)

٣٤– تَسَمّى بأسماء الإخاء معـاشرٌ
ومـا عندهـم مـن ذمَّـةٍ لإخـاءِ

مجموع شعري مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق : الورقة ٨٨ / ب – ٨٩ / أ . وقد ورد ذكر هذا المجموع ووصفه ورقمه في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية / الشعر : ٣٤٤ . وهومكتوب في أوائل القرن الخامس .

(٤) في حماسة الظرفاء : ولن يرتجى برء ولادفع علة .
(٥) في الأصل : تكاتم ، وهو من سهو النسخ .
(٦) في حماسة الظرفاء : فان فات شنع طرمذوا بحشاء . والطرمذة : الكلام بلا فعل ، والكبر ، والمفاخرة بالباطل .

(٢)

وقال يصف اللينوفر :

١ – خاف الملالَ اذا طالتْ إقامتُه فصار يظهر أحياناً ويحتجبُ
٢ – كأنه حين يبدو من مطالعِهِ صبٌّ يقبِّلُ حِبّاً وهو يرتقبُ

نصرة الثائر : . ٢٣٠ .

(٣)

وله :

١ – فلو كان لي قلبانِ عشتُ بواحدٍ وأفردتُ قلباً في هواك يُعَذَّبُ
٢ – ولي ألف وجهٍ قد عرفتُ مكانهٌ ولكنْ بلا قلبٍ الى أين أذهبُ

محاضرات الأدباء : ٣ /٨٦ .

(٤)

وله :

١ – فأنتَ في الخَلْقِ لاوجهٌ ولابدنٌ وأنتَ في الخُلْقِ لا عقلٌ ولاأدَبُ

ديوان المتنبي / شرح العكبري : ٢/٣٥٩ .

(٥)

وله :

١ – يُعاب الفتى فيما أتى باختياره ولا عيب فيما كان خلقاً مركَّبا

محاضرات الادباء : ١ /٢٧٦.

(٦)

وله :

١ – رعاه اللهُ حيث غَدا وسارا وأعقبه الغنيمةَ والإيابا

محاضرات الادباء : ٢ / ٤١٢ .

(٧)

وله :

١ – لم يَعْدُكَ القردُ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ
الاّ بخنَّتِه للعْبِ والذَّنَبِ

ديوان المتنبي / شرح العكبري : ٣٦٠ .

(٨)

وله :

١ – ظلمتَ سرّاً وتستعدي علانيةً
ألهبتَ ناراً وتستعفي من اللّهَبِ

محاضرات الادباء : ١ / ٢٢١.

(٩)

وله :

١ – تراك سرقتَ قدّك من قضيبِ
أم استوهبتَ ردفك من كثيبِ

محاضرات الادباء : ٣ / ٣٠٤.

(١٠)

يضاف الى المقطوعة ذات الرقم (١١) في الديوان :

١ – أتى وثيابه كقتير شيبٍ (٧) فعُدْن لـه كريعان الشبابِ
٢ – فقلتُ : متى أراك أباحسينٍ ؟ فجاوبني : اذا اتّسختْ ثيابي

يتيمة الدهر : ٢ / ٣٣٧ وتاريخ بغداد : ١٣ / ٢٩٩ وأنساب السمعاني : ٥ / ٤٢ والمنتظم : ٦ / ٣٣٠ ومعجم الادباء : ١٩ / ٢٢٠ واللباب : ١ / ٣٤٣ – ٣٤٤ ووفيات الأعيان : ٥ / ١٦ .

(١١)

ومن شعره :

١ – قلْ للذي ينكر سبي له : واللهِ ما خنتُك في الغَيْبِ
٢ – وانما أحببتُ ستر الهوى فعِبتُ ما ليس بذي عَيْبِ
٣ – وسَلْه لي عن مَثَلٍ قد مضى لِمْ رقع البزّازُ في الثوبِ

محاضرات الادباء :٣ / ١٠٦ .

---

(٧) في يتيمة الدهر : اتى وثيابه كالشيب لونا . وفي معجم الادباء : اتى وثيابه كالشيب بيض .

(١٢)

وله :

١- عجبتُ ، وأعجب مني امرؤٌ رأى مارأيتُ ولم يعجبِ

محاضرات الادباء : ٤/٧٠٢.

(١٣)

وله :

١ - مُوَكَّلٌ طـرفُـه بطرفي كأنَّـه كاتبُ الذنـوبِ

محاضرات الادباء : ٣/١٠٤.

(١٤)

وله :

١ - مفتاح كلِّ لـذاذةٍ نظرُ المحبِّ الى الحبيـبِ

٢ - طوبـى لعيـنٍ أبصرتْ وجهَ الحبيب بلا رقيـبِ

محاضرات الادباء : ٣/١١٦.

(١٥)

ولـه :

١ -ليـس للثعـلب حـظٌّ في غـزالٍ عنـد ذئـبِ

محاضرات الادباء : ٤/٧١٥.

(١٦)

ومن شعره :

١ - ما جفاني مَنْ كان لي أُنُسـاً أنستُ شوقاً ببعض أسبابـهْ

٢ - كمثل يعقوب بعد يوسف إذْ حنَّ الى شَمِّ بعض أثوابـهْ

٣ - دخلتُ بابَ الهوى ولي بَصَرٌ وفي خروجي عميتُ عن بابـهْ

تاريخ بغداد : ١٣/٢٩٧.

(١٧)

وله :

١– كلُّ الهوى صعبٌ ولكنَّني بُليتُ بالأصعب من أصْعَبِه
٢– أذا بني الحبُّ فلو زُجَّ بي في ناظر النائم لم ينتبه
٣ – وكان لي قبل الهوى خاتمٌ فالآن لوشئتُ تمنطقتُ بِه
٤ – وزارني طيفُك حتى اذا أراد أن يمضي تعلَّقتُ بِه
٥ – يامَنْ اذا أقبل قال الورى : هذا أمير الحسن في موكبِه
٦ – عبدك لاتسأل عن حالِه حَلَّ بأعدائك ما حلَّ بِه

حماسة الظرفاء : ٢ / ٨٨ –٨٩.

والأبيات ١ – ٣ و٥ – ٦ في كشكول البهائي : ٣٦٥ مع اختلاف في بعض الألفاظ .

والبيتان ٢ – ٣ في ديوان المعاني : ١ / ٢٧٢ والعمدة : ٢ / ٦١ ومحاضرات الادباء : ٣ / ٩١ وكفاية الطالب : ٢٠٢ ونهاية الأرب : ٢ / ٢٦٠ مع اختلاف في بعض الألفاظ .

والثاني بمفرده بلا عزو في طيف الخيال : ١٠١ مع اختلاف في ألفاظه .

وورد البيتان ٢ –٣ في سمط اللآلي : ١ / ١٨١ – ١٨٢ معزوين ليعقوب التمّار .

(١٨)

ولـه :

١ – اصرفْ سفاتج (٨) هذا الشرب عن رجلٍ
له بُضَيِّعَةٌ (٩) في الشرب مزجاةُ

محاضرات الادباء : ٢ / ٦٨٢ .

---

(٨) كذا في الأصل المنقول منه . والسفتجة في المعجمات تعامل بالنقود .

(٩) في المصدر المنقول منه : بضيعته ، ولعل الصواب ما اثبتنا ؛ وهو تصغير بضاعة أو بضاع .

(١٩)

ولـــه :

١ – لاتعشقنَّ ابنَ الربيـــع فانه عند التجرد آيـــةُ الآيـــاتِ

٢ – وجه كعبّادان ليس وراءه لمحبّه شيئــاً (كذا) سوى الخشباتِ

يتيمة الدهر : ٢ / ٣٣٩ .

(٢٠)

ومن شعره :

١ – كم شهوةٍ مستقــرَّة فرحاً قد انجلتْ عن حلول آفـــاتِ

٢ – وكم جهـــولٍ تراه مشترياً سرور وقتٍ بغمٍّ أوقـــاتِ

٣ – كم شهواتٍ سلبْنَ صاحبهـــا ثـــوبَ الديانـــات والمـــروءاتِ

تاريخ بغداد : ١٣ / ٢٩٧ والكنى والألقاب : ٢ / ١٨٣ .

(٢١)

ولـــه :

١ – جُدَريٌّ أضرَّ بالوجنـــاتِ زادَ حُسنَ الوجوه حُسنَ الصفاتِ

٢ – نمنم الوشيُ فوق ديباج وجهٍ بنقوشٍ في شـــكلـــه شـــكلاتِ

المحبوب : ٦٠٧ – ٦٠٨

(٢٢)

وله :

١ – قد قلتُ لما أنْ نَظَرْ ... تُ الى الحبيب مع العداةِ
٢ – وبقيتُ أَنظر شاخصا ... نظرَ المُنازِعِ للمماتِ :
٣ – نظري اليك بغصّةٍ ... نَظَرُ الحسين الى الفراتِ

المحبوب : ٤٧٧ .

(٢٣)

وله :

١ – بمجاري فَلَكِ الحُسْـ ... ـنِ التي في وجناتِكْ

محاضرات الادباء : ٢ /٤٨٨ .

(٢٤)

وله :

١ – انظرْ الى الغنج يجري في لواحظهِ
وانظرْ الى دَعَجٍ في طرفه الساجي
٢ – وانظرْ الى شعراتٍ فوق عارضه
كأنّهنّ رِمالٌ سِرْنَ في عاجِ

المحبوب : ٣٩٩ ونهاية الأرب : ٢ /٨٢ .

(٢٥)

وله :

١ – سَلْسَلَ الشَّعرَ فوق وجهٍ فحاكى
ظلمةَ الليل فوق ضوء الصباحِ

ديوان المعاني : ١ /٢٤٦ ونهاية الأرب : ٢ /١٨ .

(٢٦)

ومما يُعزى له :

١ــ ولو جَمَّــل السقاية لقَبوه   بمعشوقٍ تحرّى أخْذَ روحي (١٠)

ثمار القلوب : ٢٨٤ .

(٢٧)

ولــه :

١ ــ قد قلتُ إذ خان حبّي (١١) مَنْ كلفتُ بــه
ولم يكــن عنــه لي صبـــر ولا جَلَــدُ :

٢ ــ إنْ كان شاركني في حبِّــه وقـــحٌ
فالنهر يشرب منــه الكلب والأسَـــدُ

يتيمة الدهر : ٢ / ٣٣٩ .

(٢٨)

ولــه :

١ ــ وذَرِ الهمـــومَ نَســـيئــةً
وتَعجَّـــلِ اللـــذّات نَقْــدا

محاضرات الادباء : ٢ / ٦٧٤ .

(٢٩)

ومن شعره :

١ ــ أرى ليَ في شهــر الصيــام اذا أتـــى
ليــاليَ عَيّـــارٍ وأيـــام عــابِـدِ

٢ ــ أُناسٌ بعــلاّت الصيام تفرَّجـــوا
وكانت أُمــور باعتــلال المساجِـــدِ

محاضرات الادباء : ٤ / ٤٦١ .

---

(١٠) وفي حماسة الظرفاء : ٢/٩٧ ثلاثة ابيات على قافية الجيم بلا عزو ، ونص ثالثها :

ولو جمل السقايــة لقبوه   بمعشوق لحذف باذ روجي

(١١) في المصدر المنقول منه : اذ حان صبري ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٣٠)

يضاف البيت الآتي الى القصيدة ذات الرقم (٤٨) في الديوان :

١ ـ فطوراً عـــلى تقبيل نرجـــسِ ناظـــــرٍ
وطوراً عـــلى تعضيض تفّاحـــــة الخـــــدِّ

يتيمة الدهر : ٢/٣٣٨ ووفيات الأعيان : ٥/١٣ والنجوم الزاهرة : ٣ / ٢٧٦ ـ ٢٧٧ وأنوار الربيع : ٤/٩٩.

(٣١)

ولـــه :

١ ـ ألفتُ هـــواك حتـــى صرتُ أهــــذي
بذكركَ في الركـــــوع وفي السجـــودِ

محاضرات الادباء : ٣/٥٧.

(٣٢)

ولـــه :

١ ـ تفضَّلْ بالقبـــول عَليَّ انـــــــي
بعثتُ بما يقـــلَّ لعبدِ عبـــــــدِكْ

محاضرات الادباء : ٢ / ٤٢٣.

وبلا عزو في المستطرف : ٢/٦١.

(٣٣)

ومن شعره :

١ ـ قالوا : عشقتَ صغيراً . قلتُ : أرتعُ في
روض المحاسن حتى يدرك الثَّمَرُ

٢ ـ ربيع حُسنٍ دعاني لافتتاح هـــــوى
لما تفتَّح منـــه النَّـــوْرُ والزَّهَــــــرُ

يتيمة الدهر : ٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩ وأنوار الربيع : ٤/٩٩.

(٣٤)

ولـــــه :

١ ـ أنا غائبٌ والقلبُ عنــدك حـــــاضـــرُ
سافرتُ عنــك وما الفؤاد مُســـــافرُ

محاضرات الادباء : ٣ /٦٣٠

(٣٥)

ولـــه :

١ ـ بقلبيَ جمرٌ من هواه ، فانْ أكـــــــن
شكوتُ فهذا الوجد من ذلك الجمــــرِ

محاضرات الادباء : ٣ / ٨٤٠

(٣٦)

ولـــه :

١ ـ اذا سألوني عنك مَوّهــتُ قصّتـــي
ولجلجــتُ لجــلاج الضفادع في البحرِ

محاضرات الادباء : ٣ /١٠٥٠

(٣٧)

وممّا عُزيَ له :

١ ـ لمّا نظرت إليّ من حـــــدق المَهـــا
وضحكــت عــــن متفتّحِ الأنـــوارِ

٢ ـ وعقدت بين قضيـــب بانٍ ناعـــمٍ
وكثيب رمــلٍ عقـــدة الزُنّـــــارِ

٣ ـ عفَّــرتُ خــدّي في الثــرى لكَ خاضعاً
وعزمتُ منك عــلى دخــول النـــارِ

المحبوب : ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

ووردت الأبيات في المثل السائر : ٢ /١٠٦ معزوة لديك الجن مع بعض لاختلاف في الألفاظ ، ورُويت عنه في تكملة ديوان ديك الجن : ١٦٥ـ١٦٦٠

(٣٨)

ولــه :

١ ـ فمــن شغـــل قلبــي بمــا نلتُـــه
ذهلتُ بــه عــن جميــع الامـــورِ

محاضرات الادباء : ٤ /٧١٤.

(٣٩)

ولــه :

١ ـ يطــوي اذا ما الشحُّ أبهـــم فعلـــه
بطنـــاً مـــن الزاد الخبيـــث خميصـــا

محاضرات الادباء : ٢ /٥٢٩.

(٤٠)

ولــه :

١ ـ وحقِّ الهــوى اني أحسُّ مــن الهــوى
عــلى كبدي جمراً وفي أعظمــي رَضّـــا

محاضرات الادباء : ٣ /٨٤.

(٤١)

وقال في طبيب اسمه نعمان :

١ ـ أقول لنعمانٍ وقد ســـاق طبُّـــــه
نفوساً نفيسات الى بـــاطن الأرضـــــ (١٢)

٢ ـ (أبــا منــذرٍ أفنيــتَ فاستبــقِ بعضَنا
حنانيك بعض الشرِّ أهــون مـــن بعضِ) (١٣)

(١٢) رواية المحاضرات : (نفوســـا نفيسات على ساكني الأرض) ، وقـــد فضلنا رواية الحماسة .

(١٣) البيت مضمن ، وهو لطرفة بن العبد ، وقد ورد في ديوانه : ١٧٢ .

محاضرات الادباء : ٢ / ٤٢٧ .

وبلا عزو في حماسة الظرفاء : ٢ / ١٦٩ .

(٤٢)

ولـــه :

١ ـ أتنشــط للــوصل ياسيدي　　فان الحبيب له قد نشــطْ

٢ ـ أُحبُّ اجتماعَكما فيالهوى　　عسى اللهُ يصنع لي في الوســطْ

محاضرات الادباء : ٣ / ٢٥٦ .

(٤٣)

ولــه :

١ ـ فطوبى لقومٍ أنت فارع أصلهم　　وطوباك إذْ من أصلهم أنتَ فارعُ

محاضرات الادباء : ١ / ٣٣٥ .

(٤٤)

ولــه :

١ ـ هو الموت مخلوق له الخلق أجمــعُ

فليــس لــه عن أنفُس النــاس مقلــعُ

محاضرات الادباء : ٤ / ٤٩٣ .

(٤٥)

ولــه :

١ ـ اذهبْ وهبتُك للذين اخترتَهم　　هبةَ الكريم فانه لا يرجعُ

محاضرات الادباء : ٣ / ١٣٠ .

(٤٦)

ولــه :

١ ـ شفيعك اوفي الروح والمال كلّه　　يُشَفَّع لــم يكبرْ له أن يُشَفَّعا

محاضرات الادباء : ٢ / ٥٦٧ .

(٤٧)

ولـه :

١ ـ ولَرُبَّ عبدٍ في الهوى يستعبِد الحُرَّ المطاعا

محاضرات الادباء : ٣ / ٤٢ .

(٤٨)

ومن شعره :

١ ـ أظهر الكبرياءَ من فرط زهوٍ فتلقَّيْتُه بذلّ الخضوعِ
٢ ـ وحباني ربيع خدّيه بالورد فأمطرتُه سحابَ الدموعِ

نهاية الأرب : ٢ / ٧٦ .

(٤٩)

ولـه :

١ ـ إنْ كان حمدي ضاع في نصحكم فان أجري ليس بالضائعِ

محاضرات الادباء ١ / ١٣٠ .

(٥٠)

ولـه :

١ ـ كنْ في الجماعات حيث كانوا فالموت عرسٌ مع الجميعِ

محاضرات الادباء : ٤ / ٧١٢ .

(٥١)

وله في غلام يلثغ بالراء :

١ ـ وشادن بالكرخ ذي لثغةٍ وانما شرطيَ في اللثغِ
٢ ـ ما أشبه الزنبور في خصره حتى حكى العقرب في الصدْغِ
٣ ـ في فمِهِ دِرياق لدغٍ اذا أحرق قلبي شدة اللدغِ

٤ – إنْ قلتُ في ضَمّي له : أين هُوْ
تفديك روحي ؟ قال : لا أدْغي

وفيات الأعيان: ٥/٣٦٠

(٥٢)

ومن شعره :

١ – أهيف يحكي بقدّه الألفا
يخسر مَنْ لم يكن به كَلِفا

٢ – أحسن من بهجة الخلافة والأمـ
ـن لمن قد يحاذر التّلَفا

٣ – لو أبصر الوجهَ منه منهزمٌ
يطلبه ألفُ فارسٍ وَقفا

المحبوب : ٦٦٦ – ٦٦٧ ونهاية الأرب : ٢/١٠١ .
والثالث بمفرده في ربيع الأبرار : ٣/١٣٦ .

(٥٣)

وله :

١ – اذا ما قنعْنا بالتواصل في الهوى
فلا أنت معشوق ولا أنا عاشقُ

٢ – فلا وصل الّا أنْ يكون تباذُلٌ
ولابذل الا أن يكون تَعانُقُ

٣– اذا لم يتمّ الوصل والبذل في الهوى
فأمُّ الهوى من بعد هذين طالقُ

محاضرات الادباء : ٣/١١٩ .

(٥٤)

ولـــه :

١- وكأنّ ريح صنانِه من نتنه ِ في أنف باكيةٍ سَعوط يُنْشقُ

محاضرات الادباء : ٣/ ٢٨٨ .

(٥٥)

ومما عزِيَ له :

١ - ومـــن طاعتــــي ايــاه أمطــر ناظــري
لــه حين يُبدي مـــن ثناياه لي بــرقــا

٢ - كأن دموعي تبصــر الوصــل هــاربــا
فمن أجْل ذا تجري لتدركه ســبقـــا

٣ - سأستعمــل البقيــا عــلى مَـــنْ أُحبُّــه
وإن كـــان مـــا أبقى عــليّ ولا استبقــى

٤ - فلولا الهوى لم يُمْلَكِ الحــرُّ طــائعــاً
ولولا الهوى لـــم يغلب الباطــلُ الحقّـــا

سمط اللآلي : ١ /١٧٨ و٤٩٧.

وورد البيتان الأولان في أمالي القالي : ١ /٢٠٩ معزوّين لجحظة .

(٥٦)

ولـــه :

١ - من لم يُلاقِ كرامــات الــرجــال له
بالشكر أصبــح فــي طُرق الهــوان لَقَــى

محاضرات الادباء : ٢ /٣٧٨.

(٥٧)

ولـــه :

١ - فنصفاً قناة ونصفاً نَقَا

محاضرات الادباء : ٣ /٣٠٤.

(٥٨)

وله :

١ – مَن يكن يهواه للخلْـ
ـقِ فاني عَبْدُ خُلْقِهْ

٢ – إن حُسن الخُلق أبهى
للفتى من حُسن خَلْقِهْ

يتيمة الدهر : ٢ / ٣٣٨.

(٥٩)

ومن شعره :

١ – ألم يكفني ما نالني في هواكم
الى أن طفقتم بين لاهٍ وضاحكِ

٢ – شماتتكم بي فوق ما قد أصابني
وما بي دخول النار بل طَنْزُ (١٤) مالكِ

يتيمة الدهر : ٢ / ٣٣٩ ووفيات الأعيان : ٥ / ١٣.
وثانيهما بمفرده في ربيع الأبرار : ٣ /٥٦ ومحاضرات الادباء : ١ / ٢٥٤
وورد عجز البيت الثاني – بلا عزو – في التمثيل والمحاضرة : ٣٣١.

(٦٠)

ولـه :

١ – قالوا : تحبُّ فلا تغار ، فقل لهم :
لايمنع الماعونَ عندي مَنْ عَقَلْ

٢– إنْ مَسَّه دَنَسُ الإجارة مرَّةً
فالماء يغسل عذر (١٥) ذاك اذا اغتسلْ

محاضرات الأدباء : ٣ / ٢٣٣ .

(١٤) الطنز : السخرية .
(١٥) كذا في المصدر المنقول منه ، ولعله (قذر) بفتح فسكون .

(٦١)

ولـــه :

١ ـ شكوتُ جلوسَ انسانٍ ثقيـــــلٍ
فجاوَ بَني بمن هو منه أثْقَلْ

٢ـ فكنتُ كمن شكا الطاعونَ يوماً
فزادوه مــع الطـــاعون دُمَّــلْ

اتحاف النبلاء / مجلة عالم الكتب : ٤ / ٠٩٢

(٦٢)

ولـــه :

١ ـ وحســن ينمنم ذاك العـــذارَ
كآثار مسكٍ عــليه غَـــزلْ

٢ ـ كتابٌ مــن الحسن توقيعـــه
مــن الله في خــدّه قــد نـــزلْ

المحبوب : ٠٣٩٧

(٦٣)

ولـــه :

١ ـ ولمّا بدا لي منك ميلٌ مـــع العِــدا
سواي ولم يحدث سواك بديـــلُ

٢ ـ صددتَ كمــا صدَّ الرّذيُّ (١٦) تطاولــتْ
به مــدة الأيــام وهـــو قتيـــل

محاضرات الادباء : ٣ / ٠١٣٠

(١٦) في المصدر المنقول منه : الرزي . والرذي : الجمل الهالك هزالا .

(٦٤)

ومن شعره :

١ – لسان الفتى حتف الفتى (١٧) حين يجهلُ
وكلُّ امرئٍ مابين فكّيْه مقتلُ

٢– اذا ما لسان المرءِ أكثر هذره (١٨)
فذاك لسان بالبلاء موكّلُ

٣ – وكم فاتحٍ أبواب شرٍّ لنفسه
اذا لم يكن قفلٌ على فيه مُقْفَلُ

٤ – كذا من رمى يوماً شرارات لفظه
تلقّتْه نيران الجوابات تشعلُ

٥ -- ومن لم يقيّد لفظه متجملاً
سيُطْلَقُ فيه كلُّ ما ليس يجملُ

٦ – ومن لم يكن في فيه ماءُ صيانةٍ
فمن وجهه غصن المهابة يذبلُ

٧ – فلِمْ تحسبنَّ الفضل في الحلم وحده
بل الجهل في بعض الأحايين أفضلُ

٨ – ومن ينتصر ممن بغى فهو ما بغى
وشرُّ المُسيئَيْنِ الذي هو أوّلْ

٩ – وقد أوجب الله القصاص بعدله
ولله حكم في العقوبات مُنزَلُ

١٠– فإنْ كان قولٌ قد أصاب مقاتلاً
فان جواب القول أدهى وأقتلُ

(١٧) في تاريخ بغداد : خنق الفتى ، وما اثبتناه من بهجة المجالس .

(١٨) في تاريخ بغداد : هزره ، وما اثبتناه من بهجة المجالس .

١١ــ وقد قيل في حفظ اللسان وخزنه
مسائل من كل الفضائل أكمَلُ

١٢ــ ومَنْ لم تُقَرِّبه سلامةُ غَيبِه
فقربانه في الوجه لا يُتَقَبَّلُ

١٣ــ ومَنْ يتَّخذ سوء التخلف عادةً
فليس لديه في عتابٍ مُعَوَّلُ

١٤ــ ومن كثرتْ منه الوقيعة طالباً
بها عزَّةً (١٩) فهو المهين المذلَّلُ

١٥ــ وعدلٌ مكافاة المسيء بفعلِه
فماذا على مَنْ في القضية يعدل

١٦ــ ولا فضل في الحسنى الى من يمنُّها (٢٠)
بلى عند مَنْ يزكو لديه التفضُّلُ

١٧ــ ومن جعل التعريض محصول مزحه
فذاك على المقت المصرح يحصلُ

١٨ــ ومن أمن الآفات عجباً برأيه
أحاطتْ به الآفات من حيث يجهلُ

١٩ــ أعلِّمكم ما علَّمتْني تجاربي
وقد قال قبلي قائلٌ متمثِّلُ

٢٠ــ اذا قلتَ قولاً كنتَ رهن جوابه
فحاذر جواب السوء إنْ كنتَ تعقلُ

٢١ــ اذا شئتَ أن تحيا سعيداً (٢١) مسلَّماً
فدبِّرْ وميِّزْ ما تقول وتفعلُ

---

(١٩) في الأصل المنقول منه : غرة ، وهو من اغلاط الطبع .
(٢٠) في الاصل المنقول منه : الى من يحسها ، ولعل الصواب ما اثبتنا .
(٢١) في معجم الادباء : تحيا عزيزاً .

تاريخ بغداد : ١٣/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ . والأبيات ١ ـ ٣ و٢١ في بهجة المجالس : ١/ ٨٦ و ١ ـ ٣ و ٧ و ٢١ في الكنى والألقاب : ٢/ ١٨٣ ، والبيتان ٢ و ٢١ في معجم الادباء : ١٩/ ٢٢١ ، والبيت ١٨ بمفرده في بهجة المجالس : ١/ ٤٣٩ .

(٦٥)

ولــه :

١ ـ كم أُقاسي لديك قالاً وقيلا
وعِداتٍ تترى ومطلاً طويلا

٢ ـ جمعة تنقضي وشهرٌ يولّي
وأما نيلك بكرة وأصيلا

٣ ـ إنْ يَفُتْني منك الجميل من الفعـ
ـل تعاطيتُ عنك صبراً جميلا

٤ ـ والهوى يستزيد حالاً فحالاً
وكذا ينْسَلي قليلاً قليلا

٥ ـ ويك لاتأمننْ صروف الليالي
انها تترك العزيز ذليلا

٦ ـ فكأني بحسن وجهك قد صا
حتْ به اللحيةُ : الرحيل الرحيلا

٧ ـ فتبدلت حين بدّلتَ بالنو
ر ظلاماً وساء ذاك بديلا

٨ ـ فكأنْ لم تكن قضيباً رطيباً
وكأنْ لم تكن كثيباً مهيلا

٩ ـ عندها يشمت الذي لم تصله
ويكون الذي وصلتَ خليلا

وفيات الأعيان : ٥/ ١٤ .

(٦٦)

ولــــه :

١ ـ فقــــل لمُرَجّــــي معالــي الأمـــور
بغيـــر اجتهـــاد : طـــابتَ (٢٢) المحـــالا

محاضرات الادباء : ١/١٥٦ ، و ٢/٤٤٦ .

(٦٧)

ولــه :

١ ـ تتجنّـــى عَلَـــيَّ ذنبـــاً وتعتـــلْ
ـــلُ بأنْ قـــد رأيـــتَ منّيَ ذِلَّـــهْ

٢ ـ لعـــن اللهُ قربـــةً ليـــس فيهـــا
لفتـــىً يطلـــب التعلَّـــةَ عـــلَّهْ

يتيمة الدهر : ٢/٣٣٩ .

(٦٨)

ولـــه :

١ ـ مالي أُحَـــوِّطُ حـــول دجاجـــة حائطـــاً
لـــولا اعتراض حماقتـــي وفضولـــي

محاضرات الادباء : ٤/٧١٢ .

(٦٩)

ومن شعره :

١ ـ بـــدا الشَّـــعرُ فـــي وجهـــه فانتقـــمْ
لعشّاقـــه (٢٣) منـــه لمّـــا ظلـــمْ

٢ ـ ومـــا سلَّط اللهُ نبـــتَ اللِّحـــى
عـــلى المُـــرد الاّ زوال النِّعـــمْ

---

(٢٢) كذا في احدى روايتي المحاضرات ، وفي الرواية الاخرى : رجوت المحالا.
(٢٣) في النهاية : لعاشقه .

٣ -- توحّشت العينُ في وجهه
وحقّ لها وحشة في الظُّلمْ

٤ -- ولم يعلُ في وجهه (٢٤) كالدُّخا
نِ الاّ وأسنانه كالحممْ

٥ -- اذا اسودّ فاضلُ قرطاسه
فما ظنه بمجاري القلم

المحبوب : ٤٠٩ و نهاية الأرب : ٢ / ٩١ .

(٧٠)

وله :

١ -- أمِنّا اناساً كنتِ قد تأْمنينهم
فزادوا علينا في الحديث وأوهموا

٢ -- وقالوا لنا ما لم نقل ثم كثّروا
علينا وباحوا بالذي كنتُ أكتمُ

محاضرات الادباء : ٣ / ١٠٤ .

(٧١)

وله :

١ -- وكم مذنب لمّا أتى باعتذاره
جنى عذرُه ذنباً من الذنب أعظَما

محاضرات الادباء : ١ / ٢٣٧ .

(٧٢)

وله :

١ -- وحبك ما استحسنت غير مجرّب
عليك اذا لم تنتهك فيه محرما

محاضرات الادباء : ٣ / ٤٥ .

---

(٢٤) في النهاية : في خده .

(٧٣)

ولـــه :

١ ـ إذا لـم يكـن في الوصل رَوْحٌ وراحةٌ
هجرتُ وكـان الهجـر أشفى وأسلما

محاضرات الادباء : ٣ / ٧٣ .

(٧٤)

ولـه :

١ ـ وتعلّمـا ان الحُذَيـّا حَـقٌ مَنْ
أضـحى وزيراً في البـذال (٢٥) وحاكما

محاضرات الادباء : ٣ / ٢٥٦ .

(٧٥)

ولـه :

١ ـ قـد كان في حـال محسـودٍ فأبطره
طغيانُـه فاغتـدى في حـال مرحـومِ

محاضرات الادباء : ٢ / ٥٠٨ .

(٧٦)

ومن شعره :

١ ـ وتَعاتُبُ الاخوان فيمـا بينهـم
بعـثٌ عـلى الإجـلال والإكـرامِ

٢ ـ لـولا اعترافي باعترافك في الـذي
تـأتي وتتـرك مـا أتـاك مـلامـي

بهجة المجالس : ١ / ٧٢٦ .

---

(٢٥) كذا في المصدر المنقول منه .

(٧٧)

ولـــه :

١ ـ وددتُ أنّـــي بكفِّـــــــه قـــلمٌ
أوِ أنني مــدّةٌ عـــلى قَلَمِــــــه

٢ ـ يأخـذنـــي مــرّةً ويلثمنـــي
إنْ علقــتْ منــه شــعرةٌ بفَمِــــه

يتيمة الدهر : ٢ / ٣٣٩ .

(٧٨)

ولـــه :

١ ـ إنْ كان لفظـــي كريهـــاً فاصطبرْ فعلـــى
كـــره العـــلاج يصـــحُّ اللهُ أبدانـــا

٢ ـ لـــولا العوارضُ مـــا طاب العتابُ لنـــا
لـ ولا قصارتنـــا للثـــوب مـــا زانـــا

٣ ـ اني أُعاتـــب اخـــواني وهــــم ثقتـــي
طوراً وقـــد تُصْقَـــل الأســـياف أحيانـــا

٤ ـ هـــي الذنـــوب اذا ما كُشِّفَتْ دَرَسَتْ
مـــن القلـــوب والاّ صِرْنَ أضغانـــــا

بهجة المجالس : ١ / ٧٢٧ .

(٧٩)

وأهدى الشاعر فصّاً الى ابن يزداد والي البصرة ؛ وكتب معـــه :

١ ـ أهديتُ مالو انّ أضعافه مُطَّرحٌ عنـــدك مـــا بانـــا

٢ ـ كمثل بلقيس التي لــــم يَبِنْ اهـــداؤها عنـــــد سليمانـــا

٣ ـ هذا امتحان لك إن تَرضَهُ بانَ لنـــا أنـــك ترضانـــا

وفيات الأعيان : ٥ / ١٦ .

(٨٠)

ولــه :

١ ـ دُرِّيَّة اللون فيه مُشْرَبَةٌ حمرةُ خمرٍ تمازج اللَّبَنَا
٢ ـ كاللؤلؤ الرطب لونُ ظاهِرِهِ وفيه ماء العقيق قد بَطَنَا

المحبوب : ٥٤٠ .

(٨١)

ولــه :

١ ـ اني لفي غربة مذ غبتَ ياسكني وإن ظللتُ أرى في الأهل والوطنِ

محاضرات الادباء : ٣/٦٦ .

(٨٢)

ومن شعره :

١ ـ وكان الصديق يزور الصديقَ لشرب المدام وعزف القيانِ
٢ ـ فصار الصديق يزور الصديقَ لبثِّ الهموم وشكوى الزمانِ

وفيات الأعيان : ٥/١٣ـ١٤ والنجوم الزاهرة : ٣/٢٧٧ .

(٨٣)

ومن عجيب ما قيل في قلة الطعام على المائدة ما أنشدناه ابو أحمد قال : أنشدني نصر بن أحمد لنفسه :

١ ـ من حديثي ان ابنَ بكرٍ دعاني لشقائي فليته ما دعاني
٢ ـ غرَّني منه منظر ولباس وأثاث ومجلس وأوانِ
٣ ـ مجلس كالجنان حسناً ولكنْ قبَّح الجوعُ حُسنَ تلك الجنانِ
٤ ـ فلعمري كان الخوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخوانِ
٥ ـ وجفان مثل الجوابي ولكنْ ليس فيهنَّ ما يُرى بالعيانِ
٦ ـ وغضار(٢٦) الألوان جاءت ولكن ليس فيها روائح الألوانِ
٧ ـ فاذا ما أدرتُ فيها بناني لم أجد ما أمسه ببناني

---

(٢٦) الغضار والغضارة : ضرب من الطين ، والغضار ايضاً : اوان تتخذ منه .

٨ – انني ما ضغ على غير شيءٍ غير صلكٍ الأسنان بالأسنانِ
٩ – ترجع الكفُ وهي أفرغ منها عند مدّي لها فدأبي وشاني
١٠ – لوتراني والجوع يضحك منّي عند غسلي يديَّ بالأُشنانِ
١١ – زادفي السكر (٢٧) مسرفاًمثاماأسْرفَ عند الطعام بالنقصانِ
١٢ – والغضارات فارغات أتتنا وسقانا بالمترع الملآنِ
١٣ – سكرةٌ فوق جوعةٍ تركتني راحماً كل جائع سكرانِ
ديوان المعاني : ١ /٢٩٧ – ٢٩٨ .

(٨٤)

وله :

١ – ومبشري بقدوم مَنْ أهواهُ لازال وهو مُبَشَّرٌ بمناهُ
٢ – عندي له بشرى ولو ملّكته روحي وقلبي قلّ عن بشراهُ
محاضرات الادباء : ٣ /٣٣ .

(٨٥)

وله :

١ – نصباً لعينك لا ترى حسناً الا ذكرت به لها شَبَهاً
محاضرات الادباء : ٣ /٥٦ .

(٨٦)

وله :

١ – خرق يجود بماله وبجاهِه والجود كلُ الجود بذل الجاهِ
محاضرات الادباء : ٢ /٥٦٧ .

(٨٧)

ومن شعره :

١ – بات الحبيبُ منادمي والسكر يصبغ وجنتيْهِ
٢ – ثم اغتدى وقد ابتدا صنع (٢٨) الخمار بمقلتيْهِ

(٢٧) في الأصل المنقول منه : في السفر ، وهو خطأ مطبعي .
(٢٨) كذا في المصدرين المنقول منهما ، واظنه : صبغ .

٣ – وهبتْ لــه عينــي الكرى وتعوَّضتْ نظــراً اليــهِ
٤ – شكراً لإحســان الــزما ن كمــا يساعدنــي عليــهِ

وفيات الأعيان : ٥ / ١٤ .

والأولان في النجوم الزاهرة :٣ / ٢٧٧ .

(٨٨)

ولــه :

١ – فلا تعنَ لتحذيفٍ(٢٩) تَكَلَّفُه لصورةٍ حسنُها الأصليُّ يكفيها
٢ – ان الدنانير لاتُجْلى وإن عتقتْ ولا تُزاد على النقش(٣٠) الذي فيها

أمالي المرتضى : ١ / ٥٧٥ ومعجم الادباء : ١٩ / ٢٢١ .

* * *

والى اللقاء في حلقة اخرى مؤمَّلة من الاستدراك والتخريج والتصويب ؛ إن شاء الله تعالى .

* * *

(٢٩) في معجم الادباء : فلا تمن بتنميق .
(٣٠) في معجم الادباء : على الحسن .

مصـادر الاسـتدراك

اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء / للسيوطي / مجلة عالم الكتب ـ الرياض ١٤٠٣هـ العدد الأول من السنة الرابعة

الأمـالي / للقالي ـ القاهرة ١٣٤٤هـ
الأمالي / للمرتضى ـ القاهرة ١٣٧٣هـ
الأنساب / للسمعاني ـ الهند ١٣٨٥هـ
أنوار الربيع / لابن معصوم المدني ـ النجف ١٣٨٩هـ
بهجة المجالس / لابن عبدالبر القرطبي ـ القاهرة ١٩٦٩م
تاريخ بغداد / للخطيب البغدادي ـ بيروت (طبعة مصورة)
التمثيل والمحاضرة / للثعالبي ـ القاهرة ١٣٨١هـ
ثمار القلوب / للثعالبي ـ القاهرة ١٣٢٦هـ
حماسة الظرفاء / للعبد لكاني الزوزني ـ بغداد ١٩٧٣م
ديوان / ديك الجن ـ بيروت ١٣٨٣هـ
ديوان / طرفة بن العبد ـ دمشق ١٣٩٥هـ
ديوان / المتنبي ـ شرح العكبري ـ القاهرة ١٣٩١هـ
ديوان المعاني / للعسكري ـ القاهرة ١٣٥٢هـ
ربيع الأبرار / للزمخشري ـ بغداد ١٤٠٠هـ
سمط اللآلي / للبكري ـ القاهرة ١٣٥٤هـ
طيف الخيال / للمرتضى ـ القاهرة ١٣٨١هـ
العمدة / لابن رشيق القيرواني ـ القاهرة ١٣٥٣هـ
فهرس مخطوطات الظاهرية ـ الشعر ـ / للدكتور عزة حسن ـ دمشق ١٣٨٤هـ
الكشكول / لبهاء الدين العاملي ـ القاهرة ١٣٠٢هـ
كفاية الطالب / لابن الأثير ـ الموصل ١٩٨٢م
الكنى والالقاب / للقمي ـ صيدا ١٣٥٨هـ
اللباب / لابن الأثير ـ القاهرة ١٣٥٧هـ
لطائف المعارف / للثعالبي ـ القاهرة ١٣٧٩هـ
المثل السائر / لابن الأثير ـ الرياض ١٤٠٣هـ
محاضرات الادباء / للراغب الاصبهاني ـ بيروت (بلا تاريخ)
المحبوب / للسري الرفاء ـ بغداد ١٤٠٢هـ
المستطرف / للابشيهي ـ القاهرة ١٣٦١هـ
معجم الادباء / لياقوت ـ القاهرة ١٣٥٧هـ

المنتظم / لابن الجوزي ـ الهند ١٣٥٧هـ
النجوم الزاهرة / لابن تغري بردي ـ القاهرة (طبعة مصورة)
نصرة الثائر / للصفدي ـ دمشق ١٩٧٢م
نهاية الأرب / للنويري ـ القاهرة (طبعة مصورة)
وفيات الأعيان / لابن خلكان ـ القاهرة ١٣٦٧هـ
يتيمة الدهر / للثعالبي ـ القاهرة ١٣٥٢هـ
يوميات أديب / للباخرزي ـ الموصل ١٩٨٩م

الأثري الانسان والشاعر

الدكتور احمد مطلوب

عضو المجمع

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

(١)

في نيسان ١٩٥٧م دخل عليّ الاستاذ محمد بهجة الاثري مفتش اللغة العربية ، وكنت أتحدث لطلبة السنة الثالثة المتوسطة بثانوية كركوك عن الرصافي وأقرأ بعض أبيات قصيدته « حكومة الانتداب » التي مطلعها :

أنا بالحكومة والسياسة أعرفُ ... أَأُلام في تفنيدها وأعنَّفُ ؟

ومنها :

عَلَمٌ ودستورٌ ومجلس أمةٍ ... كلٌّ عن المعنى الصحيح مُحَرَّفُ

أسماء ليس لنا سوى ألفاظِها ... أما معانيها فليست تُعْرَفُ

وأوجست خيفة لانني كنت قد خرجت من معتقل السعدية قبل ثلاثة شهور من ذلك اليوم وتبسم وقال : استمر في الكلام .

وثابت نفسي اليّ ووجدت فيها قوة وسنداً أمام الرجل الذي ناضل طويلا من أجل عروبته ودينه الحنيف ووطنه العزيز ، ولقي من عنت الحكام ما لقي وزُجَّ في غياهب المعتقلات بعد اخفاق ثورة أيار ١٩٤١م . وقبل أن يخرج من قاعة الدرس طلب مني أن أقابله في غرفة مدير الثانوية الاستاذ فاتح مصطفى ـ رحمه الله ـ وعاد اليّ القلق وسألت نفسي : ماذا يريد الأثري مني وهو لا يعرفني ولم أره من قبل ، وإن تتلمذت على كتبه وشعره وكان

شخصه حاضرا أمامي خلال سنوات طويلة ؟ وانتهى الدرس وذهبت اليه أجرّ الخطى فتلقاني باسما وسمح لي بالجلوس ، ثم بادرني قائلا : لقد عرفت بقصة اعتقالك وارسالك الى كركوك فتألمت كثيرا ، ورغبت في أن أراك ، والآن وقد رأيتك فهل تريد العودة الى بغداد ؟ قلت : هذا منك فضل عظيم •

وهنا تدخل المدير ورجاه أن أكمل العام الدراسي ، فوافق ووافقت ، ولم يكد الصيف يبلغ نهايته حتى بشّرني بالنقل بفضل ما سعى اليه عند وزير المعارف .•

ولم تنقطع صلتي بالأثري ، وأنّى يكون ذلك ، وقد وقف الى جانبي وهو لم يرني إلاّ مرة واحدة ، وكنت أزوره وهو مدير عام للاوقاف وانتفع بنصائحه الصادقة وعلمه الغزير ، وقد طلب مني وأنا في الدراسة العليا أن أدرس الحياة الفكرية في مدينتي تكريت لتكون رسالة لنيل الفاضلية (الماجستير) من جامعة القاهرة ، ولكن رغبتي في التخصص بالبلاغة والنقد وجهتني وجهة أخرى فأخترت « البلاغة عند السكاكي » موضوعا للرسالة • وكان الأثري أول من عقد صلتي بالمجمع العلمي العراقي إذ نشر لي عام ١٩٦٣ بحث « منهج السكاكي في البلاغة » في مجلة المجمع وتوثقت صلتي بهذه المؤسسة الرفيعة حتى أصبحت عضوا فيها وزميلا للأثري ، وإن كنت أنظر اليه نظرة التلميذ المبتدىء الى شيخه الجليل واستاذه الكبير • وهذه الانسانية التي يخفق بها قلبه حركت الشعر في نفسه وهو في العشرين من عمره ، وذلك بعد أن بدأ دراسة اللغة العربية وعلومها بعامين ، وكانت لغته قبل ذلك التركية لانه نشأ في ظل الدولة العثمانية ، وولد في اواخر جمادى الاولى سنة ١٣٢٠هـ

---

(١) قال الاثري في ترجمة حياته المحفوظة في المجمع العلمي العراقي : « بحسب السجلات الرسمية » ثم قال : « واظن الصحيح قبل ذلك في منتصف سنة ١٣٢٠ هـ » والمعلومات الواردة في هذا البحث عنه مستقاة من اضبارته الشخصية في المجمع ولكنه ذكر لي انه ولد في ايلول سنة ١٩٠٢م ، وقد اثبت ذلك في الاصل •

ــ أيلول ١٩٠٢م كما قال لي ببغداد ، وهي ترزح تحت الحكم العثماني وتتنفس لتستاف عبير الحرية بعد قرون من الكبت والقهر والحرمان ، ولترى النور بعد سنوات من الظلام . وأبوه هو محمود بن عبدالقادر بن احمد بن محمود ، وأصله من ديار بكر بن وائل . وكان قد هاجر منها جد الاسرة الاعلى الى اربيل ثم رحل الى بغداد واستقر فيها . وأمه هي السيدة زينب[٢] بنت محمد أمين ، تركية الاب تركمانية الأم من مدينة كركوك ، وكان لها الفضل الكبير في اتقانه التركية لغة البلاد الرسمية يومذاك ، وقد تفوق في هذه اللغة على أقرانه ولايزال يتقنها بعد هذه السنين الطوال ، وما زلنا نلجأ اليه في لجان المجمع للتأكد من لفظة تركية تمر علينا في المصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية فيشرح لنا معناها ، واستعمالها ، ويبين اصلها إن كانت محرفة أو قد مسّها شيء من التغيير . كانت ثقافته الاولى تتصل بما كان سائداً في عهد صباه ، وكانت اللغة التركية تجري على لسانه في قاعات الدرس والامتحان ، وكانت بعض اللغات الاجنبية الفارسية والفرنسية والانكليزية تأخذ طريقها الى لسانه وهو يدرس في بعض المدارس البعيدة عن أثر الحكم العثماني بعد زوال هذا الحكم . وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره اتجه الى دراسة اللغة العربية وعلومها والعلوم الاسلامية وكان في طليعة العلماء الكبار الذين اخذ عنهم علمه العلامة علي علاء الدين بن العلامة أبي البركات بن نعمان خير الدين بن أبي الثناء محمود شهاب الدين المتوفى سنة ١٣٤٠هـ ، ثم محمود شكري الالوسي المتوفى في رابع شوال ١٣٢٢هـ ــ ٨ أيار ١٩٢٤م ، وكان له أثر كبير في توجهه الى الثقافة العربية الاسلامية ، ولايزال يذكره بتجلة واكبار ويتحدث عن علمه الغزير ، وقد نشر بعض كتبه وأصدر في عام

---

(٢) في عصر الاربعاء ١١ جمادى الاولى ١٣٦٠ هـ الموافق ٢٧ أيار ١٩٤٢م وهو في معتقله بضاحية العمارة بشر بمولودة له فسماها « زينب » باسم أمه (ينظر ملاحم وازهار ص ٣٨٤) .

١٩٥٨ كتاب « محمود شكري الالوسي وآراؤه اللغوية » تكلم فيه على عصره وبيئته العامة ، وأسرته وبيئته الخاصة ، ومعالم سيرته ، ومنزلته وأثره في عصره ، ومؤلفاته ، وعنايته باحياء آثار السلف ، ودراسته اللغوية . ويعد هذا الكتاب أهم مصدر عن الالوسي لانه صدر عن أحد تلاميذه الأوفياء الذين سجلوا الحقائق ، وكشفوا عن الحياة الثقافية في مطلع القرن العشرين.

ومضى الأثري في الدرس والتحصيل بعد وفاة أستاذه وكان صيته قد انتشر في العراق لصلته الوثيقة بالالوسي ، ولجرأته ، ولعلمه الذي بدأ يتفتح عن موهبة عظيمة وحافظة عجيبة . وبدأ يكتب المقالات في الصحف ويشتبك في خصومات أدبية ، ومن ذلك نقده لجميل صدقي الزهاوي في موضوع « الشعر المرسل » الذي كان الشاعر من دعاته ، ورده قبل ذلك عليه في نقد قصيدة أحمد شوقي في رثاء (اسماعيل صبري) وكان الزهاوي قد نشر في جريدة العراق بتوقيع « شاعر عراقي كبير » نقداً للقصيدة ، فردّ الأثري كلامه ردا قويا ، وفند اراءه وصحح ما وقع فيه من أخطاء . وأثار هذا النقد رشيد الهاشمي فرد عليه ، وعاد الاثري ورد على الهاشمي . وكان لهذه المقالات والمساجلات التي نشرها الزهاوي والأثري والهاشمي قيمةكبيرة؛ لانها تصور مساجلات النقد الادبي في الربع الاول من القرن العشرين الميلادي، ولانها نقد لقصيدة من قصائد الشاعر الكبير احمد شوقي[٣]وكان لابد لاديب يشق طريقه من أن يبحث عن عمل ينتفع بايراده ويوثق صلته بالحياة فدرّس في ثانوية التفيض الاهلية سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥م ، ثم في الثانوية المركزية ، وفي عام ١٩٣٦م أصبح مديرا لاوقاف منطقة بغداد ثم مفتشا اختصاصيا في وزارة المعارف ، وأسهم في ثورة أيار ١٩٤١ بشعره . وأذاع قصيدة (ثورة أيار) من دار الاذاعة والطائرات البريطانية تحوم عليها وعلى أجواء بغدادلتقلى

(٣) ينظر كتابنا النقد الادبي الحديث في العراق ص ٧٧ ـ ٧٨ .

الرعب وأخففت الثورة وأعاد الانكليز الحكام الى البلاد ففصل الاثري من وظيفته مدة خمس سنوات امتدت الى سبع سنوات وسيق في الثلاثين من تشرين الاول عام ١٩٤١م الى معتقل الفاو ثم نقل الى معتقل سامراء ثم الى معتقل العمارة ، وخرج من سجنه في السابع والعشرين من أيلول ١٩٤٤م[٤] . وفي الخامس من نيسان ١٩٤٨م أعيد الى وظيفته بديوان وزارة المعارف وكان قد انتخب عضوا في لجنة التاليف والترجمة ثم عضوا في المجمع العلمي العراقي بعد صدور نظامه رقم (٤٢) لسنة ١٩٤٧م اذ اختار وزير المعارف أربعة عاملين هم محمد رضا الشبيبي ، ومحمد فاضل الجمالي ، وهاشم الوتري ، ومتى عقراوي ، واجتمع هؤلاء الاربعة فانتخبوا توفيق وهبي — وزير المعارف — ومحمد بهجة الاثري ، وجواد علي أعضاء عاملين ، ثم انتخب هؤلاء الاعضاء السبعة نصرة الفاسي ، ومنير القاضي ، وشريف عسيران . وصدرت الارادة الملكية بهؤلاء الاعضاء في اليوم الرابع من كانون الثاني سنة ١٩٤٨ م[٥] . وانتخب الاثري نائبا لرئيس المجمع في سنة ١٩٤٩ ، ونائبا أول في ١٩٥٥م ، وظل فيه حتى الان يعمل بجد ونشاط ، ويشترك في لجانه العلمية وفي اصدار المجلة ويناقش في المجلس ، وينير كثيرا من القضايا المعروضة برأيه الصائب ونظره الثاقب ، وهو منذ عام ١٩٣١م عضو مراسل في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية بدمشق الان) وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ ١٩٤٨ ، ثم عضو عامل فيه منذ عام ١٩٦١م ثم عضو في مجمع اللغة العربية الاردني في عام ١٩٨٠ وعضو في اكاديمية المملكة المغربية

---

(٤) قال الاثري في الاستخبار الذي نشره الدكتور مصطفى سويف في كتابه « الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة » ص ٢٢١ : « سميت ديواني الاول «ظلال الايام» وديواني الثاني «وراء حسك الحديد» لانني نظمته خلال السنوات الثلاث التي قضيتها معتقلا في معتقلات الفاو والعمارة وسامراء من ١٩٤١/١٠/٢٨ الى ١٩٤٤/٨/٢٧ » .

(٥) ينظر كتابنا حركة التعريب في العراق ص ١٥٩ .

منذ عام ١٩٨٠ أيضا ، وعضو في المجلس الاعلى الاستشاري للجامعة الاسلامية في المدينة المنورة منذ تأسيسها في عام ١٩٦١ الى تغيير نظامها في عام ١٩٧٥م وكان آخر منصب شغله الاثري هو المدير العام للاوقاف في عام ١٩٥٨ ، وهو الان متقاعد يخطو الى التسعين بنشاط كبير ، وهمة عالية ، وقدرة على العمل المثمر البناء ، وقد كرم في عام ١٩٨٩م وحصل على جائزة صدام للانتاج الأدبي الموسوعي كما كرم في عام ١٩٨٦ بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي ، كما حصل على جوائز أخرى داخل القطر العراقي وخارجه تقديراً لما قدّم في سبيل خدمة الثقافة العربية الاسلامية ودفاعه عن العروبة والاسلام والقيم السامية ، ومنحته جامعة بغداد في عام ١٩٩٢ الدكتوراه الفخرية في اللغة العربية •

ألف الاثري كثيراً من الكتب منها :

١ ـ أعلام العراق ـ القاهرة •

٢ ـ المجمل في تاريخ الادب العربي ـ بغداد ١٩٢٧ •

٣ ـ المدخل في تاريخ الادب العربي ـ بغداد ١٩٣١م •

٤ ـ مهذب تأريخ مساجد بغداد وآثارها ـ بغداد ١٩٢٧م •

٥ ـ مأساة الشاعر وضاح اليمن ـ بغداد ١٩٣٥م •

٦ ـ الاتجاهات الحديثة في الاسلام (طبع ببيروت في كتاب العرب والحضارة) ١٩٥١م •

٧ ـ محمود شكري الالوسي وآراؤه اللغوية ـ القاهرة ١٩٥٨ •

٨ ـ الخطاط البغدادي ابن البواب •

٩ ـ ذرائع العصبيات العنصرية في اثارة الحروب طبعه المجمع العلمي العراقي في سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م •

١٠ ـ الرجز والراجز أبو النجم العجلي وأرجوزته (أم الرجز) نشر في مجلة المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق) •

١١ ـ نظرات فاحصة في قضايا نحوية ولغوية وطريقة تدوين تأريخ

الادب العربي ـ بغداد ١٩٩١م •

وهناك كتب أخرى مخطوطة منها :

١ ـ عبدالمحسن الكاظمي •

٢ ـ كتاب المحاضرات •

٣ ـ كتاب المقالات •

٤ ـ الرد على الشعوبية •

٥ ـ معجم الاقاليم •

٦ ـ معجم جغرافية الادريسي •

٧ ـ شرح مقامات الطيب ابن ماري البصري معاصر الحريري وبلديّه •

وحقق بعض الكتب وشرحها ونشرها منها :

١ ـ المختصر في مناقب بغداد لابن الجوزي ـ بغداد ١٣٤٢هـ •

٢ ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ـ طبع في القاهرة وبيروت •

٣ ـ أدب الكتّاب للصولي ـ القاهرة •

٤ ـ بلوغ الارب في أحوال العرب للالوسي القاهرة ـ ثلاث طبعات •

٥ ـ تأريخ نجد للالوسي طبع في القاهرة مرتين •

٦ ـ أرجوزة أبي نواس لابن جني طبعها مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٦م و ١٩٨٠م •

٧ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ قسم شعراء العراق ـ للعماد الاصفهاني ،وقد طبع المجمع العلمي العراقي جزءين منه والتكملة وطبعت وزارة الثقافة والاعلام بقيته وهي أربعة أجزاء •

٨ ـ كتاب النحت للالوسي طبعه المجمع العلمي العراقي سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م •

وله بحوث لغوية وأدبية نشرت في مجلات المجامع العربية ،

١ ـ ملاحم وأزهار ـ القاهرة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م •

٢ ــ ديوان الاثري ــ الجزء الاول ــ بغداد ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م •
٩ ــ كتاب الماء وما ورد في شربه من الآداب للالوسي • طبعته أكاديمية المملكة المغربية .•
١٠ ــ كتاب عين الحياه في علم استنباط المياه لاحمد بن عبدالمنعم الدمنهوري ــ طبعته اكاديمية المملكة المغربية •

ولايزال ــ حفظه الله ــ يتحف المكتبة العربية بتحقيقاته ومؤلفاته وبحوثه ، وهو في كل ما اصدر ونشر ذو نزعة علمية ، يعرض المسائل ، ويناقشها ، ويبدي رأيه فيها •

(٢)

نظم الأثري الشعر وهو في العشرين من عمره ــ كما حدثني ــ[٦] أي بعد اتجاهه الى دراسة اللغة العربية وعلومها بعامين حينما كان يدرس على استاذه العلامة علي علاء الدين الالوسي•قال في ترجمة حياته المحفوظةفي المجمع العلمي العراقي : « وفي أوائل اتصالي بالاول بدأت أقرض الشعر ، ثم في إبان قراءتي على الثاني نزعت نزوعا شديدا الى التأليف والبحث والتحقيق » •

ونشر كثيراً من القصائد في الصحف وأنشد بعضها في المحافل والاجتماعات والاذاعة في العراق وفي خارجه ، ثم جمع بعض شعره في ديوان سماه « ملاحم وازهار » وطبعه في القاهرة عام ١٩٧٤م في ست واربعمائة صفحة وقدم له الشاعر الكبير عزيز أباظة • والديوان في أبواب هي : ينابيع الفيض ، وملاحم، وأمة تتحرر ، وعناوين ومجد ، وعبرات الوفاء والاكبار ، وملامح وظلال ، وقوارير وعطر ، وطبائع ونوازع • وقرر المجمع العلمي العراقي طبع شعر الأثري كله فأصدر في عام ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م الجزء الاول في ثلاث واربعين

(٦) وذلك يوم الثلاثاء ١٨ كانون الاول ١٩٩٠م ــ ٣٠ جمادى الاولى ١٤١١هـ.

وخمسمائة صفحة ، ومعه مقدمة المرحوم عزيز أباظة وكلمة الدكتور عدنان الخطيب . وقد ضم بعض قصائد المجموعة الاولى وغيرها من القصائد الاخرى . والديوان في ثلاثة أبواب هي : ينابيع الفيض ، والفصحى والشعر، وأغاني الحرية وملاحم التحرر ، وفي كل باب أقسام فالأول ضم الالهيات ، والنبويات ، والأمة والوطن ، وحوى الثاني الفصحى والشعر ، وجمع الثالث أغاني الحرية ، وملاحم التحرر ، وفلسطين ، وسورية ، ولبنان ، ومصر ، والجزائر ، والعراق . وهذا تقسيم موضوعي يفتح الطريق للباحث ، وان كان لا يعطي صورة واضحة عن تطور شاعريته إلاّ بعد إعادة ترتيب القصائد زمنيا ، وهو أمر ليس بالسهل لان بعض القصائد غير مؤرخة ، ولكن موضوعاتها قد تحدد الزمن الذي قيلت فيه .

والأثري شاعر نهل من التراث العربي ماشاء الله له أن ينهل ، وهو يجمع بين جزالة القديم وأصالة الحديث الذي أحيا معالمه محمود سامي البارودي ورفع لواءه احمد شوقي وغيره من شعراء الثلث الاول من هذا القرن العشرين الميلادي . وللأثري رأي في الشعر اتخذه مَعْلَماً له في حياته الشعرية ، وقد أوضحه في قصيدته « الشعر كما أراه »(٧) فقال :

الشعْرُ ماروّى النفوسَ معينُه ... وجرت برقراقِ الشعور عيونُه

وصفت كلألاءِ الضياءِ حروفُه ... وَزَهَتْ بوضّاء البيان متونُه

متألقُ القسماتِ فتّانُ الرؤى ... يزهو صبا الفصحى الطرير رصينُه

حرُّ المذاهبِ لا يشوب أصوله ... كَدَرٌ ولا واهي اللغات يشينُه

ويمضي في ايضاح الشعر الرائع ، وهو عنده أن يكون صادقا يروي النفوس ، ويهز المشاعر ، واضحا جليا يزهر بوضاء البيان ، متألقا فتانا لاتشوبه عجمة أو خروج عن الفصحى ، حرا يعبر عن الحقيقة بأجلى صورها،

(٧) الديوان ص ١٦٠ ، ملاحم وازهار ص ٢٦٣ .

صادرًا عن عبقرية فذة وموهبة عظيمة ، غردا ، بديع الايقاع ، معبرا عن الخلجات ومصورا للاحاسيس المختلفة . هذه بعض سمات الشعر عنده ، وهي سمات تجعله خالدا على الزمان :

يمضي وفي التأريخ باقٍ وَسْمُهُ ويظل وهو طريده ولعينه
يزكو ويخلد من سريّ حروفه مأمونه في صدقه وأمينه

ويفنى غير هذا الشعر لانه لا يحمل من سمات الشعر الصادق شيئا :

ويموت مخنوقُ الصدى من فوره مكذوبه ودعيُّه وأفينه

ويحدد الشاعر خصائص الشعر الجديد فيقول :

أين الجديدُ البكْر ليس بضالع مشياً وليس بناصلٍ تلوينه
الواثب الروح الأصيل شعورُه وخياله ونزوعه ويقينه
تمتص من حر البيان عروقه ويجلّه ايقاعه ويزينه
زاهٍ بأبكار التخيل ثوبه لا عوره تنتاشه أو عُونُه
يستنّ سِحْرَ الحسن في أعطافه ويتيه منه رقيقه ومتينه
وكأنما سُقي الرحيقَ مُعَلّلا فتوردتْ وَجَناته وعيونه

والشعر عنده هبة الاله ، ولايلقاه الا ذو حظ عظيم ، فليس كل من نظم قصيدة موزونة مقفاة شاعرا ، وانما الشعر ما نبع من موهبة الهية ، وغداة الشعور الصادق :

الشعر من وهج الشعور ونار أشواق الضميرِ
نَغَمٌ وإيقاع وعاطفة تموّج في الصدور
وتمازج الخلجات في القلب الملوّح والحسير
وبوارق الذهن اللموح شوادر الحسن الغرير(٨)

(٨) الديوان ص ١٧٢ .

والشعر للحياة ، وقد نظـم في أيام صباه قصيدة (الشعر للحياة [٩]) عَبَّر فيها عن موقف الشعر من الحياة فهو ليس غناء بالماضي ، وبكاء علـى الاطلال ، والتشبث بالطرف الكحيل والخد الاسيل ، وانما هو ابتكار المعاني الحديثة وبث المبـادىء الاجتماعية القوميـة ، والنضال من أجل إقامة حياة جديدة :

خـذوا نَهْـجَ الحياة به وسيروا ... طـلائعَ نهضـةٍ وبنـاةَ جيـلِ
الى العليـاء أفقـاً بعـد أُفْـقٍ ... وعـرش العـز والمجـد الأصيلِ

وأوضح في استخبار أجـراه الدكتور مصطفى سويف حقيقة الشعـر فقال : « الشعر عندي في مختلف مناحيه ومعانيه لايخرج عن حدود الانطباعات والانفعالات وثورة النفس • فأنـا لاأقولـه إلاّ اذا جاش صدري وتوافرت حوافزه ودواعيه في الرضا أو الغضب ، وفي الحب أو القلى ، وفي الضحـك أو البكـاء عفـواً من غـير التمـاس وطبعـا من غير تصـنع ، أعنـي أنـه اذا جـاءني استجبت لـه في أي غـرض من الاغـراض مـا دام الشـعور الثـائر المتـوهج هـو الـذي يوجبه ويمليـه ، والاّ تحاميتـه فلا أفكر فيه ولا يعنيني من أمره شيء حتى لكأنه ليس مني ولست منه ، أو ليس بيننا وشيجة من نسب تصلني به وتصله بي » • ثم يؤكد أن الشعر هو ما كان مبعثه الشـعور الصادق الـذي تمتلىء به النفس ويفيض به الطبع • ووصف ساعة الالهام الشعري فقال : « لا عادة لي أمارسها ساعة الكتـابة إلاّ انتحاء المكان الخالي والسكون الشامل حتى لا أحس غير نأمة نفسي ،بل المكان الخالي والسكون الشامل طالما أوحيا اليّ فنوناً من القول لم يتيسر لي مثلها .• وقد تنيقظ الشاعرية عندي في الاماكن التي تكون فيها حركة وأصوات لذلك تراني في هذه الحالة أسرع في البحث عن مكان بعيد عن الحركة والجلبة

(٩) الديوان ص ١٧٣ .

لأنظم قصيدتي تحت تأثير تلك الانطباعات او الانفعالات قبل أن تفتر النفس وتضيع الفرصة » وقال :

« كيف لايشعر الشاعر الذي لايصدر كلامه الا من وحي إحساسه وهياج نفسه وفيض قريحته بوجود صلة بين أحداث حياته الواقعية وبين مايرد في قصائده من أحداث وصور • أنا أشعر أقوى الشعور بوجود هذه الصلة بين حياتي وبين قصائدي » • ثم قال : « أنا في عمل الشعر أجري مع تيار العاطفة التي تستولي عليّ والحالة التي توحي اليّ القول ، فأبدأ بالمطلع وأسلسل الكلام ، قلما أقدم أو أؤخر ، لا أفكر إلاّ في اطراد الشعور وانسجامه واستيفاء المعاني والاخيلة في نسق آخذ بعضه برقاب بعض • أما نهاية القصيدة فأكاد أراها واضحة قبل أن أبلغها وانهي القصيدة فعلا حيث كنت أقدر لها ، وقلما أفعل غير ذلك »[10] • فالشعر عنده عاطفة وشعور ، ولغة رصينة ، وعبارة متينة ، وصور قوية مؤثرة ، وايقاع يهز النفوس ويحرك الضمائر •

وهذه سمات شعر عصر النهضة الحديثة في الوطن العربي ، وهي سمات تأخذ من القديم أصولها ومن الحديث ألوانها ، وهي غير ما شهده النصف الثاني من هذا القرن ، إذ اقتبس الشعر خيوطه من الغرب ، وحاكها نسيجاً يختلف اختلافاً واضحا عما ألفه الشعر العربي القديم •

فالأثري متمسك بأصالة الشعر العربي وملتصق بأحداث المرحلة التي عاش فيها ، فهو قديم حديث ، قديم في بعض لغته وصوره ، وحديث في موضوعاته ومشاعره ، وهو يمثل مرحلة ما بعد شوقي أوضح تمثيل ، ويقف مع معاصريه وقفة تظهر دوره في حركة الشعر الحديث قبل أن تمتد الحداثة بمعناها الغربي الى الشعر العربي في العقود الثلاثة أو الاربعة الأخيرة فتنحو

---

(١٠) الاسس النفسية للابداع الفني في الشعرخاصة ص ٢١٨ ــ ٢٢١ •

به منحى بعيداً عن الشعر العربي القديم ، وتخرجه من سماته التي برزت في أمثلته الرائعة وما حققه الشعراء الكبار كالبحتري وأبي تمام والمتنبي والمعري في العصر القديم ، ومحمود سامي البارودي وحافظ ابراهيم وأحمد شوقي في العصر الحديث .

(٣)

شهد الاثري أواخر الحكم العثماني وعاش في ظل الانتداب البريطاني والعهدين الملكي والجمهوري ، وقد أكسبته حياته تجارب كثيرة ، فهو لم يعش بعيداً عن أحداث الوطن والأمة ، ولم يعكف على ذاته يتغنّى بأحزانه وهمومه كما فعل بعض الشعراء ، وانما خاض غمار الحياة ولقي منها كل عنت وشدة ، ووقف أمام الأحداث بصلابة فلم يهن ولم يخضع إلا لله وسلطان الحكمة والعقل . وانعكست مواقفه الصلبة في قصائده ، وكان شعره مرآة صادقة لحياته وموقفه من الأحداث التي مرّ بها العراق والأمة العربية منذ أن وعى ذاته ، وسعى الى تحقيقها بجد واخلاص ، لايرهبه عدو يتربص ، ولا حاكم يقيد ، ولا قوم يثبطون العزائم ويقتلون الهمم في النفوس . فشعره يصور حياته ونضاله ولاسيما ديوانه الاخير الذي نسقه تنسيقا موضوعيا يفصح عن مقاصده وأغراضه .

وقد ضمّ الباب الاول من الديوان قصائد « ينابيع الفيض » وهي ينابيع تفيض بكل معنى بديع ، وتعبّر عن كل شعور صادق رقيق . ويتضح في « الالهيات » انه مؤمن برب الكون كل الايمان ، فهو يناجيه ويسبح باسمه العظيم الذي غمر الكون بنوره فاذا هو مشرق تزهو فيه الحياة . ويتجه الى الله بقلبه الذي لم يسبّح الا باسمه ولم يرفّ شغافه بغيره :

قلبي بغـيرك لم يَـرِفْ شـغافه ... يـاربّ فاجنبْ حبـيَ الاخطـارا
عن كل وجـهٍ قد صرفـتُ عبادتي ... وعبدتُ وجهكَ وحدَهُ مختارا[11]

وايمانه برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عظيم ، فقد ولد النور يوم مولده ، وعمّ الكون كله ، وكان نبي الرحمة للعالمين ، وقد عاش في ظل رسالته العالم في أمن ودعة واطمئنان ، وبنى العرب والمسلمون بفضل دينـه أرقى حضارة شهدتها الخليقة ، وكان خاتم رسـل الله :

محمد نَضَّـر الخـلاّق سـيرته ... وزانه بجـلالِ الشـأن والعظـمِ
والى النبيين قول الحـق واختتمت ... به الرسالات حقـاً خير مختتمِ[12]

وكان ملاذا لكل من مسّ الايمانُ قلبه ، واهتدى بهديه ، واتبع رسالته• والاثري كغيره من المؤمنين بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلـوذ بـه ، ويلجأ اليه ، ولا تطيب له الحياة الا بالاسلام :

يا من تجلّى على الدنيا سناً وشـذاً ... ورحمةً وهدًى للعـرب والعجـمِ
طابت بدينك دنيـايَ التي حسنت ... وراق طبعـيَ في راووقـه ودمـي
فلا أسـامر الا النبـلَ في كلمـي ... ولا أراود في فعاي سـوى الكرمِ
أجلو بنـورك في فعـلي وفي كَلـمي ... مايعتري الحقّ من ظُلْـم ومن ظُلَمِ
كما سننت سأستنُّ الهـدى رغبـاً ... فيالخير ماعشتُ عمري ثابتَ القدمِ[13]

والشاعر ، وهو العربي نسباً وايماناً ، يعتز بأمته كل الاعتزاز ويرتبـط بها كل الارتباط ، لانها كيانه الذي يسعى بها وذاته التي تسمو ، وعزّها عزه وعلاها عـلاه :

---

(١١) الديوان ص ٥٣ ، ملاحم وازهار ص ٢٩ .
(١٢) الديوان ص ٨٥ ـ ٨٦ .
(١٣) الديوان ص ٨٨ .

أيـن لا أيـن أمـتي في العوالـم° أمة العـز والعلـى والعزائم°[١٤]

والوطن أغلى ماعند الانسان المؤمن بأرضه ، المعتز بترابها ولولا الوطن لضاع الانسان وأصبح طريدا في أرض الله الواسعة ، أو ذليلا تتمزق نفسه حسرات على ما فرط بحق وطنه ، ولا عجب اذا سكب الشاعر دمه في سبيل وطنه ، وضحى من أجله ، وبات في غياهب المعتقلات سنين عدداً بعد إخفاق ثورة أيار ١٩٤١ م :

منه دمـي ولـه ساسـكبه حـين النـداء يـرن صـاخبه
حـين الغريـب يضرّ تـاركه وو‌راءه تجـري أكـالبه
وهواي أن يحيـا وسـؤدده عـالٍ ولا عـادٍ يغـالبه[١٥]

لقد تغنّى الأثري بوطنه العراق وضحى من أجله وبارك حركات التحرر فيه ، وكان للجيش العراقي نصيب كبير في شعره ، ففي عام ١٩٣٣ تلقّى الشاعر وهو في مصطاف بحمدون بلبنان كتابا يحمل البشارة بظفر الجيش في شمالي العراق بالدخلاء المخربين الذين منّاهم الانكليز باقامة وطن قومي لهم • وهزته هذه البشرى واعتكف من فوره في غرفته ليعقد اكليلا يقدمه الى الجيش فكانت قصيدة « اكليل الى الجيش الظافر »[١٦] وفيها يقول :

انشروا الـوردَ ونـورَ الياسـمين أقبَـلَ الظـافرُ وضّاحَ الجبين
وافرشـوا الـدرب الـذي يسلكه قطـعَ الديبـاج والخـز الثمـين
وضعـوا الغـار عـلى مفرقـه مجلس الشمس على هـام السـنين
احتفـال الشـعب في اسـتقباله احتفـال الحـق بالنـصر المبـين

(١٤) الديوان ص ٩٤ •
(١٥) الديوان ص ١٠٥ •
(١٦) تنظر في الديوان ص ٣٦٥ ، وملاحم وازهار ص ٦٧ •

ووقع انقلاب التاسع والعشرين من تشرين الاول ح١٩٣م وطوّح بوزارة ياسين الهاشمي الوطنية ، ولم يدم الانقلاب طويلا إذ قتل قائده في الحادي عشر من آب ١٩٣٧ م وكان الشاعر في دمشق فجاشت قريحته فألهمته « ملحمة الانقلاب الشعوبي »[١٧] التي كانت صرخة مدوية بوجه الارهاب ، ودموعاً حارة سكبها على روح الزعيم ياسين الهاشمي الذي ظل اسمه رمزاً للوطنية والثورة على الاستعمار واذنابه ، والدعوة الى الوحدة العربية :

يا ناشدَ الوحدة الكبرى يعبئها ... حلفاً لحلف وأقطاراً لأقطارِ
زكا غراسك واخضرّت خمائله ... حسن المرائي الى إيناع أثمارِ
تجاوبَتْ في نواحيها عنادلها ... سجعاً بسجع وأشعاراً بأشعارِ

وحُرم رفات الهاشمي من أن يدفن في وطنه الذي عمل من أجله بصدق واخلاص ، ولكن رفاته حظي بمجاورة قبر السلطان المجاهد العظيم صلاح الدين الأيوبي :

لئن حُرِمْتَ ثرى بغداد تنزله ... وما كمثل ثراها طيب أبشارِ
لقد نزلت ثرى أهلٍ ذوي رَحِمٍ ... كرفرف الخلد لم يَدْنس بأوطارِ
زاكٍ ثوى السمحاءُ الطاهرون به ... من كل خَيِّرِ قومٍ وابنِ أخيارِ
من نازليه صلاحُ الدين أيّ فتى ... صان الحمى من صليبيين ختار

وقام الجيش والشعب بثورة أيار ١٩٤١ م ووقف الشاعر يندد بالمستعمرين وأذنابهم ويؤيد الثورة ويباركها ، ويصور بطولة الجيش الذي لم يسكت على الضيم فثار ثورته المباركة :

غمزوا إباءك فاضطرمت اباءا ... وحشدت جندك والثرى والماءا

---

(١٧) الديوان ص ٣٧٢ ، ملاحم وازهار ص ٧٣ .

راموك للذلّ المقيم وقد مضى   دهر تُسام به الشعوب سباءا[18]

وانتكست الثورة وتفرق قادتها وأعدم بعضهم ، وشرد الوطنيون أو اعتقلوا وكان نصيب الشاعر أن يقضي ثلاث سنوات في معتقلات الفاو وسامراء والعمارة ، وأن ينظم كثيرا من القصائد يتحدث فيها عن النكسة والخونة وأذناب الاستعمار ، ويندد بالارهاب الذي عَمّ العراق بعد اخفاق الثورة . ولم ترهبه المعتقلات وظل صلب العود قويا لايهاب السلطة ولا ليالي المعتقل الباردة المظلمة أو الحارة الرطبة وهو النحيف الذي يؤذيه البرد والجو الرطب ، يقول في قصيدة « مرحباً بالنفي »[19] :

مبلغي نفيي الى الفاوِ الشطيرِ   مرحباً بالنفي والسجن الضريرِ
شرفٌ أوضاحه لمح السنا   ونواميه أفاويه العبيرِ
ووسامٌ يتمناه الضحى   وصدورٌ من ملوك وصدورِ
مطمح الثائر آفاق السما   وكذا مطمح رواد النسورِ
أتراه إنْ هوى يضرعه   نبأُ السجن وايغالُ المسيرِ
في سبيل الله ما ألقاه من   عَنَتِ الجور ، وفي المجدِ الخطيرِ

لقد اعتقل الشاعر ولم يحمل السلاح ، ولكنه أيد الثورة بقلبه ولسانه ، اذ كان شعره حمما يقذفها على الحكام الجائرين وعبيد الاستعمار ، وهو شعر صادق لايشوبه نفاق أو رجاء من لايستحق أن يرجى ، إنه شعر من أجل الأمة والوطن ، والحرية والاستقلال :

كان شعري في مآسي أمتي   عن أمانيّ رسولي وسفيري
بين أيديها تغنّى وغدا   بلسم الجرح ومسلاة الصدورِ

(١٨) الديوان ص ٣٩١ ، ملاحم وأزهار ص ٨٤ .
(١٩) الديوان ص ٤١٦ ، ملاحم وازهار ص ٩٣ .

وثأر الجيش لقادته الذين أعدموا ، ومقاتليه الذين أوذوا ، فقام بثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ ، وفرح الشاعر وتغنى بهذه الثورة ونظم نشيد « صباح الامل المنشود أو نشيد ١٤ تموز ١٩٥٨م »[٢٠] ومقطوعة « يا عيد تموز »[٢١] .

وظل الجيش العراقي يحمي الوطن ، ويصون القيم العليا ، وبقي أمل الاحرار في كل حين ، ففي أيلول ١٩٨٠ شنت ايران حربا ظالمة على العراق ، ووقف الجيش يصد العدوان ، ويدفع الأذى ، ويصون البلاد . وتغنّى الشعراء ببطولته ، ووصفوا المعارك الحاسمة التي خاضها وخرج منها مظفرا منصورا . وقد أسهم الأثري في المعركة من فوره بقصائده المتدفقة كتدفق القذائف على الاعداء ، ونظم عدة قصائد عبرت عن اقتدار الجيش العراقي على صد العدوان واحراز النصر ، ومجدت البطولة والبذل والفداء . وكان سباقا الى المشاركة في المعركة بقصائده ، وقد اذيعت قصيدته « القادسية الجديدة »[٢٢] من دار الاذاعة العراقية في التاسع والعشرين من أيلول ١٩٨٠م ولعلها كانت أسبق قصائد الشعراء في هذه الحرب ، وغنّى للجيش في أعوامه الثمانية التي خاضها لردع العدوان ، فكانت قصيدة « جيش العراق الشامخ في عام القادسية السابع »[٢٣] وقصيدة « ملحمة شهداء القادسية الجديدة »[٢٤] وقصيدة « الى جيش العراق العظيم »[٢٥] الذي حرر الفاو في غرة شهر رمضان المبارك ١٤٠٨هـ الموافق للسابع عشر من نيسان ١٩٨٨م ، وأنزل القارعة الصاخة على رؤوس البغاة المعتدين وجاءت قصيدته الاخيرة « معلقة

(٢٠) تنظر في الديوان ص ٤٦٠ ، ملاحم وازهار ص ١١٦ .
(٢١) تنظر في الديوان ص ٤٦٣ .
(٢٢) تنظر في الديوان ص ٤٧٥ .
(٢٣) تنظر في الديوان ص ٤٨٨ .
(٢٤) تنظر في الديوان ص ٤٩٣ .
(٢٥) تنظر في الديوان ص ٤٨٦ .

النصر العزيز والفتح المبين »[٢٦] غناءً بالنصر العظيم والسلم الصادق الذي عم العراق بعد أن ألقى العدو يد السلم صاغراً ذليلا في الثامن من آب ١٩٨٨م. وقد هتف الشاعر في هذه القصيدة مُحيياً شعب العراق العظيم ، ومباركاً لجيشه نصره الكبير :

عِشْ ظافراً ولك العلياءُ والقيمُ ... وانت بين الشعوب المفرد العَلَمُ
عالٍ على الأرض والأعداءُ خافضةٌ ... باقٍ على الدهر والعادون قد هُزموا
والعزُّ عزكَ مرهوباً ومحتشماً ... والنصرُ نصركَ معقوداً به السَّلَمُ

لقد عاش الشاعر في خضم الحياة ، وأسهم في نضال العراق ، وكانت له قصائد جياد في قضايا الوطن ولم ينسه العراقُ وطنَه الكبير ، فهو شاعر عربي يؤمن بالوحدة العربية ويدعو الى تحقيقها لتصون الامة من عبث الحكام المتسلطين ودسائس الاستعمار والطامعين وكم تمنىّ أن يرى الوحدة العربية تجمع شمل الاقطار المتفرقة لتكون قوة يهابها أعداء الله والانسانية :

يا نعم عينيَ لو أحيا الى أمدٍ ... يريني الوحدةَ الكبرى وما تلدُ
فأشهدُ العلم الخفاقَ مزدهياً ... يعانق الافق منه مشهدٌ وَحَدُ
وأبصر الشمل والعلياءَ تحضنه ... وعزّه وهو موهوبُ السطا صعدُ
والارض قد عمرت والسن قد ضحكت ... والخير قد فاض والأملاء قد سعدوا
يا يوميَ الحاضر الماضي ألاعِدَةٌ ... بطيّبٍ إنَّ عيدي أن يطيب غدُ[٢٧]

والوطن العربي كله أرضه وبلاده :

وطني بلاد الضاد حيث هفا به ... نُطْقٌ ، وبغداد العلى ميلادي
إنـي أوقع صك تفديتـي لها ... بدم وآنف خطه بمدادِ[٢٨]

(٢٦) تنظر في الديوان ص ٥٠٧ .
(٢٧) الديوان ص ١٥٩ .
(٢٨) الديوان ص ٢١٦ ، ملاحم وازهار ص ١٢٧ .

ويربط بين العروبة والاسلام لانهما لا ينفصلان ، فقد أعز الله ــ سبحانه وتعالى ــ العرب بالاسلام وكلف العرب حمل رسالة السماء ، فكان العرب والمسلمون أخوة مؤمنين متضامنين :

ألا فاسلكوها وحدةً عربيةً   لها من هدى الاسلام روحٌ ومظهرُ[٢٩]

وليس هناك شعوب عربية ولكن أمة عربية واحدة ، وَحّدها الله حينما بعث محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ هادياً وبشيراً :

يكذب المرجفون ما ثم الا   أمة وحّدت هوى وسبيلا[٣٠]

وكانت أقطار العروبة كلها وطنه ، وقد غنى لفلسطين ، وسورية ، ولبنان ، ومصر ، والجزائر والمغرب والجزيرة العربية ، وسكب حبه على هذه الاقطار وهي في حربها وفي سلمها ، وكان عاشقا لها يتغنّى بجمالها وربيعها ويشيد ببطولاتها ومواقفها القومية وصراعها مع الغزاة المحتلين • ويتجلّى في قصائده التي غنى بها للاقطار العربية وصفه البديع لها وهيامه بجمال طبيعتها وسحرها الأخاذ ومفاتنها الساحرة ، يقول في دمشق :

أي المفاتن في دارِ النعيم خلت   منها مشقُ وأي الربرب العِينِ
خميلة الله ما اهتز الثرى طرباً   بمثل ما طاف فيها من تزايينِ
كلّ ضحوك على ضاحي مشارفها   زهر السماء وأزهار البساتينِ
كأنما الجو إذ يندى بها عبقاً   لطيمة نثرت من عطر دارينِ[٣١]

ويقول في مصر :

شهد الله أنّ في مصر سِحْراً   بابليّ الفتون يسبي العقولا

(٢٩) الديوان ص ٣٠٢ ، ملاحم وازهار ١٩١ .
(٣٠) الديوان ص ٣٣٦ ، ملاحم وازهار ص ١٨٩ .
(٣١) الديوان ص ٣٠٦ ، ملاحم وازهار ١٩٤ .

رُبَّ مستوفز دعته فأنسته هواه ونفسه والرحيلا
أخت بغداد روعةً ورواءً وأديماً ووادياً ومسيلا
قِفْ على النيل وقفةً تتنور في محياه دجلةً والنخيلا
ومروجاً كاللازورد تلالا فوقها الشمسُ بكرةً وأصيلا
وقصورا لوامعا كالدراري يرجع الطرف عن ذراها كليلا
والدوالي في هدأة الفجر تزجي من صباباتها الحنينَ الرسيلا
والسواقي هوامساً يتناغين كصبٍّ يحاول التقبيلا
وخفاف الزوارق البيض تجري صُعُداً تارةً وأخرى نزولا
تتعالى ألحانها وهي أحلى من عتاب الخليل ناجى الخليلا[٣٢]

واللغة العربية من أهم مقومات الوحدة التي آمن بها الشاعر ، فهي « سيدة اللغات » وهي « لغة مدت الظلال على الارض » وهي « لغة القرآن » وهي « اللغة المهندسة المنغمة » وهي « رباط الوحدة الكبرى »[٣٣] وقد أحبها حب نفسه :

أحببتها حُبَّ نفسي والهوى غَرِدُ وحبُّها الروحُ والريحانُ والرغدُ
وضيئة شاق زهو الورد زاهرها والورد أنفسُ ما يشتاقه الخلدُ
رفيعة القدر أخت الشمس عالية يُرى لها فوق عرش الشمس مقتعد[٣٤]

وكان للوجدان نصيب في شعر الاثري ، وقد بث مشاعره وعواطفه الوطنية والقومية والانسانية في القصائد السياسية والاجتماعية ، وفي القصائد التي عبر فيها عن مواقفه . وهناك قصائد كثيرة ضمها «الديوان» و« ملاحم »

(٣٢) الديوان ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ، ملاحم وازهار ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .
(٣٣) تنظر هذه القصائد في الديوان ص ٢١ وما بعدها ، ملاحم وازهار ص ٢٥٩ .
(٣٤) الديوان ص ١٥١ .

وأزهار» تفـردت بالتعبير عن هذه النزعـة التي هي أساس كل شعر صادق اصيل • ومن ذلك قصائده التي نظمها بعد اخفاق ثورة أيار ١٩٤١ م أو نظمها في المعتقل مثل قصائد « نجوى الحرية » و « وصال الحرية » و«بعد النكسة» و « من أسباب النكسة » « سوء المنقلب » و « مرحبا بالنفي » و « هتاف العزة من أعماق السجن في المنفى السحيق » و « مأساة ديك الفاو » و « أنا والعلى ومطامح التشبيـد » و « وعيـد القاسطين » و « العبيد وسادة العبيد » و « صور من عهود القاسطين » و « أريد حياتهم ويريدون قتلي » و« ليـالي المعتقلات » و « عهد وايمان » و « ياوطني » و « وسأغني وأغني »[٣٥] وهي قصائد تمتزج فيها الذاتيـة والعاطفـة بهموم الوطن والأمة • وهناك قصائد خلصت للذات والوجدان وتملي محاسن الطبيعة وما أبدع الله من جمـال، وما أودع في القلوب من حب يسمو على الشهوات ، وما أعظم الحب الطاهر حينما يكون لقباً يحيا به العشاق :

حَيِّـه من شـاعر في الغابـرين	عاش حيـاً في قلـوب العاشـقين
شـاعر الحـب ومـا أعظمـه	لقبـاً يحيـا بـه في الخـالديـن
شـاعر الحـب وما الدنيـا سوى	نغـم الحب وشـعر المغـرمين[٣٦]

وما أرق الشاعر حينما يهزه الجمال هزا ، ويأخذ عليه مسالكه :

وانـي ولـوع بزاهـي الجمـال	ومعنـاه في الصـور الـراقيـه
رأيـت كثـيراً ومـا شـاقني	كمعنـى الجمـال بأوطـانيه[٣٧]

---

(٣٥) ينـظر الديـوان ص ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٦ ، ٤٢١، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ١٠٩ ، ٤٥٦ ، ١٠٦، ١٠٩ ، ملاحم وازهار ص ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٤ •

(٣٦) ملاحم وازهار ص ٢٠٥ •

(٣٧) ملاحم وازهار ص ٢٩٤ •

ويرى الشاعر « أندلسية في قصر الحمراء »[٣٨] فيهفو قلبه ، ويتحرك لسانه ، ويخط قلمه ، فاذا بالقصيدة تنبض بالحياة ، معبرة عن شوق عظيم الى الحب والجمال ، واعتزاز كبير بالعرب والمسلمين وماتركوا في ربوع الاندلس من آثار حية تنطق بمجد العرب ، وتذكر بالماضي المشرف الزاهي :

وافَتْ فشاقت سالياً فاضطرم ... وبات من شجو الهوى لم ينمْ
حسناء تزهو مثلَ رأْدِ الضحى ... ما أضوأَ الحسْنَ بها ما أتمْ
ممشوقة هيفاء مجدولة ... جدل العنان حلوة المبتسمْ
انسانةٌ مذ لامست ناظري ... أنسيت غزلانَ الفلا والعجمْ
لقيتها والشمس رَأْد الضحى ... تغاير الشمس بنور أتمْ
في غرفِ الحمراءِ طافت معي ... وسحرها ينقلني لا القدمْ
طافت معي تنفث سِحْرَ النهى ... كطيب معسول لماها كلمْ
تذكي بي الشجو ولولا الهوى ... يمسكني ذاب فؤادي سَدَمْ
بالقلب ما تنفثُ لي سامع ... بالروح ما تنثر لي التهم
حيران ما بين دواعي الهوى ... وروعة من حولنا مقتسمْ
لحظ الى الحمراء بي شاخص ... وآخر بناظريها انخطمْ
هام النهى بين الاسا والهوى ... وما الاسا والحب إلاّ قسمْ
سحر على سحر فليت الهوى ... دام وليت الوصل لم ينصرمْ
وليت برقاً خاطفا مَرَّ بي ... عاود موصول السنا وانسجمْ
خفت عن الحمراء عمارها ... فهل لزور عابر لا يهمْ
أودعتُ إذْ ودّعتها خافقي ... فوق ثراها وافيا بالذممْ
شَطْرُ لحسناء رَعَتْ ذمةً ... حباً وشَطْرٌ للتراث الاشمْ

---

(٣٨) ملاحم وازهار ص ٣٠٥ .

ومثل هذا النبض الوجداني كثير في شعر الأثري ، ومنه قصائد الرثاء التي عبر فيها عن حبه ووفائه للراحلين كأبيه ، والطيارين ، والشهيد عمر المختار ، وأحمد تيمور ، وأحمد شوقي ، وشكيب أرسلان[39] . وهذا يدل على أن الانسان يحيا بقلبه وعقله لا بعقله وحده ، والشاعر انسان رقيق حساس ، يثيره الجمال ، ويهزه السحر ، وتصبيه العيون الفواتن والقدود المائسة ، وماكان الشيخ الأثري بعيدا عن هذا كله وهو الذي ألهم الشعر الهاما ، وأرسله صادق النبضات رقيقاً في مواقف الشوق والجمال ، عنيفاً في مواقف البأس والشدة ، وقد ضمت قصائده هذين اللونين فكان شاعرا مجيدا اهتزت لشعره المنابر ، وهتفت به العنادل .

(٤)

ولغة شعر الأثري عربية أصيلة استقاها من فصيح الكلام وبليغه وعلى رأسه كتاب الله العزيز ، فهو متأثر بألفاظه ومعانيه وصوره ، مقتبس منه اقتباساً يدل على اعتزازه بكلام الله وايمانه العميق به ، وقد سمّى العربية « لغة القرآن » أو « سيدة اللغات » :

تنزّلَ قرآنٌ بها ما تلوته	صحوتُ على معنى أغرَّ عظيمِ
تكرم بالوحي الامين مبينه	وعز بمعطاء الحياة كريمِ
تملأ منه بالرواء محمد	وآتى به الدنيا أريج شميمِ
سرى يفغم الآفاق مسكاً وعنبراً	ويُحيي من الارواح كلَّ رميمِ[40]

ومن المعاني القرآنية وصوره :

يرمى به باطلا منه فيدمغه	يا طالما دفع الحقُّ الاباطيلا[41]

(٣٩) ينظر ملاحم وازهار ص ٢٢٥ ـ ٢٥٦ .
(٤٠) الديوان ص ١٢٢ ، ملاحم وازهار ص ٢٦٠ .
(٤١) الديوان ص ٢٤٠ ،ملاحم وازهار ص ١٦٦ .

وهو من قوله تعالى : « بل نَقْذِفُ بالحقّ على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق »[٤٢] .

ويروي النذر الكبرى بيوم الفزع الاكبر[٤٣]

وهو يوميء الى قوله تعالى : « لايحزنهم الفزعُ الاكبر »[٤٤] .

وإنني عربي غير ذي عِوَجٍ لي بين قومي مكان الشامخ العلم[٤٥]

وهو يشير الى قوله تعالى : « قرآناً عربياً غير ذي عِوَجٍ لعلهم يتقون »[٤٦] .

صعق العملاق أبناء الصلف ودهي من حيث لم يحتسبوا[٤٧]

وهو من قوله تعالى : « فأتاهم الله من حَيثُ لم يحتسبوا »[٤٨] .

فأتى من حيث لا يحتسبون وكذا يأخذ ذا البغي الاثيم
وبأيديهم وأيدي المؤمنين أصبحت حين تنادوا كالصريم[٤٩]

والبيت الاول قريب من الآية السابقة ، والبيت الثاني يشير الى قوله تعالى : « فأصبحت كالصريم . فتنادَوا مُصْبِحين »[٥٠] .

---

(٤٢) سورة الانبياء ، الآية ١٨ .
(٤٣) الديوان ص ٢٥٨ ، ملاحم وازهار ص ١٧٧ .
(٤٤) سورة الانبياء ، الآية ١٠٣ .
(٤٥) الديوان ص ٢٦٨ .
(٤٦) سورة الزمر ، الآية ٢٨ .
(٤٧) الديوان ص ٢٧٢ .
(٤٨) سورة الحشر ، الآية ٣٠ .
(٤٩) الديوان ص ٢٧٥ .
(٥٠) سورة القلم ، الآيتان ٢٠ ــ ٢١ .

ويـرى الأسـوة ذِكْـراً حسـناً والمثالَ المحتـذى للمؤتسـي[٥١]

وهو قريب من قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسـول الله أُسْـوةٌ حسنة » [٥٢] وقوله : « قد كانت لكم أسـوة حسـنة في ابراهيـم والذين معه » [٥٣] وقوله : « لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »[٥٤] .

وركـدنـا فـرجعنـا القهقـرى « ليس للانسان إلاّ ما سعى »[٥٥]

وهو اقتباس من قوله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى »[٥٦] .

فـــــاذا أراد ارادة قُضـيت كلمـح بالبصـر[٥٧]

وهو اشارة الى قوله تعالى : «وما أمرُنا إلا واحدة كلمح بالبصر»[٥٨] .

أيـــن الـزعـامـة والنفـــو ذ لكـــل خـــوانٍ أشـر[٥٩]

وفيه تلميح الى قوله تعالى « أ ألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذّاب الاشر »[٦٠] .

---

(٥١) الديوان ص ٢٨٢ .
(٥٢) سورة الاحزاب ، الآية ٢١ .
(٥٣) سورة الممتحنة ، الآية ٤ .
(٥٤) سورة الممتحنة ، الآية ٦ .
(٥٥) الديوان ص ٣٤٤ .
(٥٦) سورة النجم ، الآية ٣٩
(٥٧) الديوان ص ٣٥١ ، ملاحم وازهار ص ٥١ .
(٥٨) سورة القمر ، الآية ٥٠ .
(٥٩) الديوان ص ٣٥٣ ، ملاحم وازهار ص ٥٣ .
(٦٠) سورة القمر ، الآيتان ٢٥ ــ ٢٦ .

نشـــقى وهــــم يتمتعـــو ن أليـس ذا إحـدى الكبـر[٦١]

وهو إشارة الى قوله تعالى : « انها لاحدى الكبر » [٦٢]

لا تحسبن الله مُخْلـِفَ وَعْدِه رُسُلاً وتاركَ أخـذه بوعيد[٦٣]

وفيه إشارة الى قوله تعالى : « فلا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وعْـدِه رسلَه » [٦٤]

إنَّ ربي نـور السـماوات والار ض يضيء القلوب والأحداقـا [٦٥]

وفيه إشارة الى قوله تعالى : « الله نور السماوات والارض » [٦٦]

ومـن يعلـق لـه بالله حَبْـلٌ يجئـه النصرُ وهو عليه وقْفُ[٦٧]

وفي الشطر الاول اشارة الى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »[٦٨] .

أن هـذه النفحـات القـرآنية أضـفت جمـالا وقـوة ووضوحـاً على شعر الأثري ، وجعلته يزهو بفصاحته ، ويسمو ببلاغته وبيانه . ولا عجب في ذلك فالشاعر مؤمن بكتـاب الله ونبوة محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ كل الايمان ، وقد نبعت ثقافته الاصيلة من نور القرآن ورسالة السماء ، وكان له دور كبير في حركة نشر الثقافة العربية الاسلامية ، والحفاظ على سـلامة العربية التي هي لغة القرآن الكريم .

وتُظهر جزالة شعره ارتباطه بالشعر العربي الاصيل ، فقد أحب التراث

---

(٦١) الديوان ص ٣٥٤ ، ملاحم وأزهار ص ٥٤ .
(٦٢) سورة المدثر الآية ٣٥ .
(٦٣) الديوان ص ٤٤٠ ، ملاحم وأزهار ص ١١٠ .
(٦٤) سورة ابراهيم ، الآية ٤٧ .
(٦٥) الديوان ص ٤٦٧ .
(٦٦) سورة النور ، الآية ٣٥ .
(٦٧) الديوان ص ٤٩٢ .
(٦٨) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .

حباً جماً وذاد عنه وحماه ، ونشر بعضه ، ولكنه لم يستسلم للقديم وانما دعا الى التجديد ، والى أن يعيش الشاعر في مجتمعه ليكون عضوا نافعا ، فالشعر للحياة ، وليس للوقوف على الاطلال والبكاء على الماضي والهرب من الحياة ، انه ابتكار للمعاني الجديدة ، وبث للمبادىء الاجتماعية القويمة. وعلى الرغم من أصالة شعر الاثري فانه لايخلو من الاشارة الى شعر قديم او حديث. ومن ذلك :

غدا الوحيُ في أرجائها متنزلا ... عليه وجبريل يروح ويغتدي[69]

وفيه اشارة الى قول احمد شوقي :

والآي تترى والخوارقُ جمةٌ ... جبريل رَوّاحٌ بها غدّاءُ

ومنه :

كلما لاح بارقٌ في سماءٍ ... أتبعوا سيره العيون الشوائم[71]

وفيه اشارة الى قول بشارة الخوري :

أفحتم عليَّ إرسالُ دمعي ... كلما لاح بارقٌ في محيا[72]

ومنه :

قد شكرت السحابَ جاد نداه ... كل أرض ولم يخصّ ويبخل[73]

(٦٩) الديوان ص ٦٨ ، ملاحم وازهار ص ٣٢ .
(٧٠) الشوقيات ج١ ص ٢٢ .
(٧١) الديوان ص ٩٧ .
(٧٢) الهوى والشباب ص ٣٣ ، شعر الاخطل الصغير ص ١٤٣ .
(٧٣) الديوان ص ١٠١ .

ومنـــه :

لا خَصَّـني غيـثٌ بنـاطفة لم تنتظـم وطـنى حوالبـه[٧٤]

وهما اشارة الى قول أبي العلاء المعري :

فلا هطلـت علـيَّ ولا بـأرضي سحائب ليس تنتظـم البـلادا[٧٥]

ومنـــه :

شَهِـدَ الله لم تغـب عن ضميري عند نأيي ولم تفـارق عيـاني[٧٦]

وفيه اشارة الى قول شوقي :

شَهِـدَ الله لم يغب عن جفـونى شَخْصُه ساعةً ولم يخل حسي[٧٧]

ومنـــه :

مُلْكنا مُلْـكُ عـزةٍ وجـلالٍ من عراقِ العلى الى تطـوانِ[٧٨]

وفيه اشارة الى قول عُبيد الله بن قيس الرقيات :

مُلْكه مُلْـكُ قـوةٍ ليس فيـه جَبَرُوتٌ ولا بـه كبريـاءُ[٧٩]

ومنـــه :

---

(٧٤) الديوان ص ١٠٥ .
(٧٥) شروح سقط الزند ــ القسم الثاني ص ٤٦٥ .
(٧٦) الديوان ص ١٢٥ .
(٧٧) الشوقيات ج٢ ص ٥٥ .
(٧٨) الديوان ص ١٢٧ .
(٧٩) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ص ٩١ .

يا دين قلبيَ منها والهوى قَـدَرٌ وخافقي ببهـاءِ الحسن متحدٌ[٨٠]

و« الهوى قدر » عبارة شعرية جاءت في قول شوقي :

يا لائمي في هواه والهوى قَـدَرٌ لو شفّك الوجد لم تعذل ولم تَلُمِ[٨١]

ومنــه :

أيهـا المبعـوثُ بالأمـر العظيـم جلَّ باري النـور ماذا أطلعـا[٨٢]

وهو قريب من البيت القديم :

أيّهـا المبعـوث فينـا جئـت بالأمـر المطـاع

ومنــه :

يستنهـضُ الوادي على دخّـاله من كل أصهب راتع في الوادي[٨٣]

وفيه اشارة الى قول شوقي :

ركزوا رفـاتك في الرمـال لـواءا يستنهض الوادي صباحَ مساءا[٨٤]

ومنــه :

لننصب الحـرب حتى يستقادَ لنا فطالمـا كشفت بالحرب غمـاءٌ[٨٥]

وفيه اشارة الى قول الاخطل :

---

(٨٠) الديوان ص ١٥٤ .
(٨١) الشوقيات ج١ ص ٢٤٠ .
(٨٢) الديوان ص ٢٠٦ ، ملاحم وازهار ص ١٥٩ .
(٨٣) الديوان ص ٢١٥ ، ملاحم وازهار ص ١٢٦ .
(٨٤) الشوقيات ج٣ ص ١٧ . علق الاستاذ الاثري على ذلك بقوله « القصيدتان قيلتا في وقت واحد ولم اكن قد اطلعت على قصيدة شوقي » .
(٨٥) الديوان ص ٢٢٧ ، ملاحم وازهار ص ١٤٨ .

شُمْسُ العداوة حتى يستقادَ لهم   وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا[٨٦]

ومنــه :

اذا أجمل البرقُ الخفوقُ حديثَها   فلي من وراء الغيبِ في شرحه خبر[٨٧]

وفيه اشارة الى قول شوقي :

لحاهــا الله أنبـــاءٌ توالــتْ   على سَمْعِ الوليّ بمـا يشــقُّ
يُفصّلهـا الى الدنيـا بريـــدٌ   ويُجْملها الى الآفاقِ بَــرقُ[٨٨]

ومنــه :

وَمَــنْ طلب اســتقلاله بلســانه   كمن خَطَبَ الحسنا وماعنده مهر[٨٩]

وهو بخلاف قولهم : « ومن خطب الحسناء أغلى لها المهرا » .

ومنــه :

أجمعــوا أمــرهم فمــا ثَــمَّ إلاّ   ما يسرُّ العلــى ويُرضي القبيلا[٩٠]

و « أجمعوا أمرهم » يشير الى بيت الحارث بن حلزة :

---

(٨٦) ديوان الاخطل ص ١٠٤ . قال الاثري : « هذا تعبير عربي لغوي يجري على كل لسان وكل اديب له بالفصاحة صلة » .

(٨٧) الديوان ص ٢٩٧ .

(٨٨) الشوقيات ج٢ ص ٨٩ . قال الاثري : « مختلفان لغة ومذهبا » .

(٨٩) الديوان ٢٩٨ .

(٩٠) الديوان ص ٣٣٢ ، ملاحم وأزهار ص ١٨٧ .

أجمعـوا أمـرهم بليـلٍ فلمـا   أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ[٩١]

ومنـه :

اني ابتليتُ بدجاليـنَ قد جمعوا   خُلْقَ الثعالي وأفعالُ السراجينَ[٩٢]

والعبارة الاولى من البيت تذكر بقول المتنبي :

إني نزلْـتُ بكـذابينَ ضيفُهم   عن القِرى وعن الترحال محدودُ[٩٣]

وقول الرصافي :

إني ابتليتُ بقـومٍ يعـرون على   أعقابهم واذا عَنَّفْتهـم ثلطوا[٩٤]

ومنـه :

يصـلح الأمـر بالسراة ولا يصد   لـح بالساقطين والناس فوضى[٩٥]

وفيه اشارة الى قول الافوه الاودي :

لا يصلح الناسُ فوضى لاسراةَ لهم   ولا سراةَ اذا جهالهـم سادوا[٩٦]

ومنـه :

وللشـرف الرفيـع سـنا وطهـراً   ودون مساسـه حَتْفٌ وخَسْفُ

---

(٩١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٤٥٢ وقد روى : اجمعـوا امرهم عشاء . قال الاثري : « تعبير لغوي يجري على السنة الادباء عامة».
(٩٢) الديوان ص ٤٠٩ .
(٩٣) ديوان المتنبي ج٢ ص ٤١ . قال الاثري : « لاعلاقة لهذا بكلام المتنبي ».
(٩٤) ديوان الرصافي ص ٤٠٦ .
(٩٥) الديوان ص ٤٧٣ .
(٩٦) ديوان الأفوة الأودي (الطرائف الادبية ص ١٠) .

وللحرية الزهراء تزهى بزهرتها الحياة وتستشف[97]

وفي البيت الاول اشارة الى قول المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم[98]

وفي الثاني اشارة الى قول شوقي :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق[99]

وهناك أشطر مضمنة وضعها الشاعر بين قوسين[100] ؛ لانه لم يتصرف بها كما تصرف في تأثره غير الملموس بالمعاني والصور الأخرى .

وجاءت هذه الملامح والاشارات من حفظ الشاعر لآيات الذكر الحكيم ، والشعر العربي الرفيع ، وتعمقه في دراسته . وقد تكون المعاني والصور الشعرية توارد خواطر ، فكثيرا مايتفق الشاعران في عبارة أو بيت من غير أن يعرف أحدهما كلام الاخر أو يطلع عليه ، وفي كتب الأدب العربي ونقده بعض الاخبار التي تروي الاتفاق بين شاعرين أو أكثر ، ولا يضير ذلك الشاعر لان التأثر لا بدمنه ، وما من جديد إلا له أصل قديم يقوم عليه ويستند اليه في بناء نفسه وتفرده وتجدده . وكان لاهتمام الشاعر بالنصوص الرفيعة والوقوف عليها وقفة العالم المتبحر ، أثر في صفاء لغته وفصاحتها وابتعادها عن العامي المرذول والسفساف الساقط والاجنبي الشائن ، فليس في شعره كلمة

---

(٩٧) الديوان ص ٤٨٩ .

(٩٨) ديوان المتنبي ج ٤ ص ١٢٥ . قال الأثري : « الشرف الرفيع ليس من مبتكرات المتنبي وانما هو من الكلام الشائع ، والمأخذ يجب أن ينصب على جملة الفكرة وصياغتها » .

(٩٩) الشوقيات ج ٢ ص ٩١ .

(١٠٠) ينظر الديوان ص ٢٠٨ ، ٢٥٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٣١١ ، ٣٨٧ ، ملاحم وازهار ص ٨١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ .

ساقطة أوعامية أو دخيلة الا ما اقتضاه السياق على سبيل التطرف كاستعماله ، مثل « الروك أندرول » في قوله :

يريد دؤبل أن يغـري اليهود بهـم   أن يرقصوا لليهود الروك أندرولا[١٠١]

وقد اقتضى المعنى أن تأتي هذه العبارة أو الكلمة الدالـة على رقصـة خليعة من مبتدعات رعونة الغرب • وكان لتعلقه بأصالة الكلمة العربية أثـر واضح في غرابة بعض الالفاظ ولكن غرابتهـا تذهب بالنظر في تفسـيرها في الحواشي أو في المعجم • ولعل الاثري يريد أن يبرهن على أن المعجم العربي كنز ذهبي ثمين يستطيع الشاعر أن ينهل منه ، وأن يُحيي في شعره ما ظنـه بعضهم أنه ميت لا روح فيه • وقد أعاد الشاعر الحياة الى مئات الالفاظ التي اختفت في الشعر الحديث ، ودلل على ان العربية لغة شاعرة مطواعة لمن دقـق النظر فيها وتعمق في دراستها ، وان معظم الالفاظ تصلح للشعر اذا وجـدت الشاعر الموهوب الذي هذبته الثقافة الواسعة وصقلته الممارسة الطويلة ، وكان ذا احساس مرهف وذوق رفيع • وعبارة الاثري متينة كأنها البنيان المرصوص، فليس فيها قلق أو هلهلة أو ضعف ، وقد جاءت هذه السمة من النظر في أساليب البلغاء والتمعن فيها وتمثلها • وتشتد القصائد القومية والوطنية صلابة وسبكا لما للتجربة الشعرية من أثر في اختيار الالفاظ وصياغتها •

ففي قصيدة « كابوس الاستعمار »[١٠٢] وهي من بواكيره تتجلى الصياغة المتينة والسبك الرصين منذ المطلع :

نفى النومَ هَمٌ بـين جنبيَّ ماثلُ   فلا خافقي يهدا ولا السُهدُ راحلُ
أريد له السـلوى وأنّى أنـا لهـا   واستدفع البلـوى وهمـيَ قاتلُ

(١٠١) الديوان ص ٢٤٩ ، ملاحم وازهار ص ١٧١ .
(١٠٢) الديوان ص ١٩٤ .

وأَنّى لي السلوى وهميَ عارمٌ وجرحيَ نضّاحٌ ودهريَ غائلُ
إذا شِمْتُ برقاً في دجى الليل وامضاً فما هو إلاّ خلّبُ اللمح باخلُ
يمر علينا اليوم أسوان حائلا فأرجو الذي يأتي وإذ هو جائلُ
وكائنْ من الايام أرجو فأنثني وفي النفس منه كالمواسي طوائلُ

هذه جمل وعبارات صاغتها ثورة الشاعر على الاستعمار والظلم والاستبداد ، وهي ثورة عارمة متدفقة عنيفة لايليق بها التركيب المهلهل ولا النظم الرقيق .

وترق الصياغة في غير هذا الموقف وتلين العبارة حينما تهدأ نفس الشاعر ويعيش في جو آخر ، ويتجلى ذلك في قصيدة «السلام شريعة الاسلام»(١٠٣).

نَهَضَتْ والعلى الأربْ حرةٌ تصنع العَجَبْ
تُنْشِيءِ المجدَ طارفاً يصل التالدَ المَحّبْ
ثابتَ الأصل في الثرى شامخاً عاليَ القُبَبْ
والذُّرى مَعْقَدُ اللحا ظ بل الشمْسُ والشهُبْ
تَصِلُ السيرَ بالسُّرى وهوى العزةِ الطَّلَبَ

ولعل خفة الايقاع سبب هذه الرقة والسهولة والصياغة التي تنساب انسياب الماء الرقراق من الينبوع الصافي النمير . وجرى الشاعر في بناء قصائده مجرى الشعراء القدماء والمحدثين الذين احتفظوا بوحدة البيت والقافية ، ومعظم قصائده موحدة الروي إلا بعض القصائد التي نهج فيها نهج الموشحات ، أو القصائد التي تقوم على المقاطع وتغير الروي مع الاحتفاظ بروي واحد يتردد في مقاطع القصيدة كلها ، وهو ماشاع في الشعر العربي منذ مطلع القرن العشرين وهام به شعراء المهجر وبعض شعراء الوجدان .

(١٠٣) الديوان ص ٥٣٥ .

والقصائد التي لم يلتزم فيها رويا موحدا هي : «في هوى الوطن» و «نشيد العرب» و «فتاة الحرية» و «نجوى الحرية» و «الامة العربية في مواجهة العواصف» أو «الامة العربية في مهاب الريح» و «رقصة الثأر» و «طلائع الفتح في معركة التحرير» و «النصر آتٍ لاجرم» و «شهداء الامة شهداء الحق» و «صباح الامل المنشود أو نشيد ١٤ تموز ١٩٥٨» و «القمرية المسهدة» و «عروس الشرق» و «نحن في حلم»(١٠٤) . والتزم أصول العروض العربي ولم يخرج عنه ، وطاف في معظم البحور المعروفة وكان للبحور المشهورة كالطويل والبسيط والكامل والخفيف والرمل حضور كبير .

(٥)

ان الأثري شاعر كبير يمثل عمود الشعر خير تمثيل ، وهو لم يتمسك بالقديم كل التمسك ولم يأخذ بالحداثة كل الاخذ ، وانما كان بين ذلك قواما، اذ جمع بين أصالة القديم وحداثة الجديد ، وتتجلى الاصالة في تمسكه باللغة الفصيحة لفظا وصياغة ، وفي حفاظه على روح العربية فجاء شعره وعاءً للغة القرآن الكريم ، وفصيح كلام العرب وبليغه . وتتضح الجدة في معانيه وصوره ، فهو قد طرق موضوعات معاصرة عاش في أحداثها وتفاعل معها وذاق حلوها ومرها ، وظل يتغنى بأمجاد الامة والوطن أكثر من نصف قرن ، ويثير الهمم ، ويدعو الى الخير والعمل الصالح ، وبناء المجتمع بناءً قويما تسوده المحبة ، وترفرف عليه العدالة والسلام . فالشاعر حلقة وسطى بين الموغلين في القديم والغارقين في الحديث أي أنه يمثل المرحلة الشعرية التي جاءت في

(١٠٤) ينظر الديوان ص ١١١ ، ١١٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٥٥ ، ٢٩٢ ، ٣٤١ ، ٤٦٠ ، ملاحم وازهار ص ٢٠١ ، ٤٧٢ ، ١٥١ ، ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١١٦ ، ٢٧٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ .

أعقاب النهضة العربية الحديثة وقبل حركة الشعر الجديد التي يمثلها رواد الشعر الحر . ولا يعني هذا أن الشاعر ظل واقفا على أعتاب النصف الثاني من هذا القرن الذي كانت السيادة فيه لدعاة الحداثة ، وانما سار في طريق الشعر ، وواكب الحياة ، وفي ديوانه الاخير قصائد جديدة استمدها من أحداث العراق الاخيرة وهي الاحداث التي أثارتها الحرب العراقية الايرانية ، وصورتها بطولة الجيش والشعب في تصديهما للعدوان وفرض السلام على المعتدي الاثيم .

وقصيدتا « معلقة النصر العزيز والفتح المبين » و « السلام شريعة الاسلام » اللتان ختمتا الجزء الاول من الديوان تمثلان هذه المرحلة ، فقد قيلتا بعد حلول السلام في الثامن من آب ١٩٨٨م . فالشاعر لم يُلْقِ السلاح طوال عقود من الزمان ، وظل يتغنى بالشعر حتى اليوم بروح عالية ، وعزيمة ثابتة ، وشمم عظيم ، واباء كبير . ويبقى شعر الأثري مَعْلَماً من معالم الشعر العربي في القرن العشرين وإن وجد فيه النشء الجديدة صعوبة في اللغة ومتانة في التعبير ، ولكنه سيعود اليه حينما يشتد عوده ، ويتسلح بالثقافة العربية الأصيلة ، ويتسع أفقه وزاده ، اللغوي ، وحينئذ سيجد فيه أكثر مما في هذا البحث الذي كتب تحية للشاعر بمناسبة صدور الجزء الاول من ديوانه في عام ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م ، بعد أن صدر له ديوان «ملاحم وأزهار» في عام ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م ، وبعد أن يكون شعره قد صدر كله ليكون شاهداً على أصالة الشعر في هذا القرن العتيد [١٠٥] .

---

(١٠٥) قرأ الاستاذ محمد بهجة الأثري هذا البحث قبل نشره واضاف اليه ما يتصل بنشاطه الفكري ومؤلفاته ، وعلق على بعض الأبيات الشعرية وقد اثبت ذلك في الحواشي اعتزازا بارائه ، وتقديرا لعلمه ، واحتراما لنزهته التحررية .

المصـــادر :

١ ـ الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ـ الدكتور مصطفى سويف . الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧٠ م .
٢ ـ الاضبارة الشخصية للاستاذ محمد بهجة الأثري المحفوظة في المجمع العلمي العراقي .
٣ ـ حركة التعريب في العراق ـ الدكتور احمد مطلوب . الكويت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م .
٤ ـ ديوان الأثري ـ محمد بهجة الاثري . بغداد ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .
٥ ـ ديوان الاخطل . نشرة الأب انطوان صالحاني اليسوعي الطبعة الثانية ـ بيروت .
٦ ـ ديوان الأفوة الأودي . (ضمن كتاب الطرائف الادبية لعبدالعزيز الميمني). القاهرة ١٩٣٧ م .
٧ ـ ديوان الرصافي ـ بيروت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .
٨ ـ ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ـ تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم . بيروت ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م .
٩ ـ ديوان المتنبي ـ تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م .
١٠ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ ابو بكر محمد بن القاسم الانباري . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .
١١ـ شروح سقط الزند . القاهرة ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م .
١٢ـ شعر الاخطل الصغير ـ بشارة الخوري . بيروت ١٩٦١ م .
١٣ـ الشوقيات ـ احمد شوقي . القاهرة .
١٤ـ ملاحم وأزهار ـ محمد بهجة الأثري . القاهرة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .
١٥ـ النقد الأدبي الحديث في العراق ـ الدكتور احمد مطلوب ـ القاهرة ١٩٦٨ م .
١٦ـ الهوى والشباب ـ بشارة الخوري (الأخطل الصغير) القاهرة ١٩٥٣ م .

كنوز المصطلحات العربية

الدكتور علي محمد المياح
عضو المجمع

تمهيد

شغف العرب بحب العلم وطلبوه رغبة وإيمانـاً ، حتى اذا وطّأ الله لهم أسباب الفتح وضرب الاسلام بجرانه بعيداً عن حدود جزيرتهم ، اقبلوا على ما وجدوا من معارف ينهلون النافع منها ، ولم ينقض على ذلك قرن من الزمن حتى ازدهرت حضارتهم واينعت ثمار علومهم ، وكانوا من شدة اعتزازهم بالعلم أن أصبح ثراء الانسان يقاس بمقدار مايقتني من كتب ومخطوطات[1] .

وجمع ابن النديم في كتابه تفاصيل ما ألّفوه في الفلسفة والفلك والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والطب وغيرها ، ولم يقف العرب عند اكتساب العلم وتحصيله ، بل عمدوا الى استنباته وتوطينه لغويا ولذلك عنوا بتعلمه وتعليمه ونشره باللغة العربية ، وهي لغة حية أحبها الناس وأقبلوا على دراستها والكتابة بها في كل مكان لانها لغة القرآن الكريم ، فما من لفظ أعجمي الا ووجدوا له لفظاً عربياً ، فقد أطلق العرب في عصر الرشيد والمأمون ، مثلاً ، أسماء عربية على النجوم والكواكب عندما ترجموا أعمال الفلكي (برخس الزفني) ودليله الذي نقحه بطليموس ، حتى أصبحت معظم اسماء الكواكب الثابتة ، فيما بعد ، اسماء ذات مصدر عربي[2] .

---

(١) زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، نقله عن الالمانية ، فاروق بيضون وكمال دسوقي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٣٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

ويذكر قدري طوقان قائمة مطولة نذكر منها :

الرّاعي	El - Rai
العَقْرب	Acrab
النسر الطائر	Altair
فم الحوت	Famul - hout
الواقع	Vega
الدَبران	Aldebaran
الناطح	El - Natih
النظير	Nadir
الغول	Algol
الجدي	Algedi
القائد	Alkaid (٣)

وبقي التراث العلمي العربي في هـذا العلم قائما الى يوم الناس هذا ، بحيث أطلقت أسماء عربية على بعض أحواض القمر ومنخفضاته مثل السكون والظلمات ، واهتدى العرب الى هذه التسميات من صور النجوم واشكالها وخصائصها كما تبدو للراصد ، وتزخر كتب التراث العربي بالفاظ ومصطلحات علمية تعبر عن حركة الفكر العربي وتكشف عن قدرة اللغة العربية على استيعاب متطلبات الحضارة ومجاراة تقدمها فهي لغة متطورة قابلة للاتساع والنماء ، ويبدو أن المصطلح العربي ، في جميع الاحوال ، قد صاغته عقلية علمية عربية تبعث في أبناء الامة روح الاصالة والانتماء وتلحقهم بركب

(٣) قدري حافظ طوقان ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار الشروق ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٧ .

العصر الذي يعيشون فيه . وكان حسن النقل ووضوح الدلالة ودقة التعبير من أبرز سماته . فهو ، كغيره من الكلمات اللغوية ، يشير الى شيء حسي أو معنوي لابد من ايضاح مفهومه باديء الامر حتى لابن اللغة نفسه . فبدون ذلك لا يمكنه إدراك مفهومه . وعليه فأن البحث عن المصطلحات العلمية معناه في الحقيقة بحث اللغة وإمكاناتها في تعابير الحضارة .(٤) ومما يلفت النظر ان هذه المصطلحات قد حظيت بقبول جمهور علماء العرب وموافقتهم ، وتناقلوها في كتبهم ومؤلفاتهم جيلا بعد جيل . وكان ذلك باعثاً على يسر الدراسة وسهولة الاطلاع ووحدة الشعور والفكر والتعبير . وتزخر كتب التراث بكنز من الالفاظ والمصطلحات في مختلف حقول المعرفة لاتزال صالحة للافادة منها على مر الايام . وعليه فأن إستقراء التراث العربي وجلاء ما رسخ من مصطلحاته العلمية يعين العاملين على تعريب العلوم والمشتغلين بوضع المصطلحات ، فكراً ومنهجاً ولفظاً ، على اداء عملهم . ويعيد الصلة قوية بين ماضينا وحاضرنا . وهذه دعوة نطق بها علماء العرب وأكدوا عليها . وكان آخرها (مشروع الذخيرة العربية) الذي تقدمت به جامعة الجزائر الى مؤتمر التعريب السادس الذي عقد في الرباط عام ١٩٨٨م .* ويمثل هذا البحث خطوة أولية على هذا الدرب يعرض من خلالها جملة مصطلحات علمية عربية متباينة تلائم مصطلحات علمية أجنبية ، يجهد المعنيون أنفسهم في البحث عنها . وبذلك تفتح طريقاً ثانياً يتبعه العاملون في تعريب العلوم خلافاً لمنهجهم المعتاد . ولعل هذه التجربة تكشف عن حقائق تجنبهم بعض ما يعانون من مشقة اختيار اللفظ الملائم والتسمية السليمة لكثير من المصطلحات الاجنبية .

---

(٤) خير الدين حقي ، امكانات العربية ، اللسان العربي ، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ، الرباط ، المجلد ١٢ ، ج ا ــ ٢ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٦ .

* لقد عقدت ندوة قومية في الجزائر تناولت أبعاد هذا المشروع بين ٢ــ٤ حزيران ١٩٩١م .

حب العلم والاستزادة منه جهد عربي متصل يتعاظم ويتسارع أحيانا ويضمر ويتباطأ احيانا اخرى • ويدل ما نقله العرب من علوم الاخرين عبر السنين على حيوية هذه الامة والتعبير عن قوتها وإرادة استقلالها • وقد شهد هذا القرن عنفوان الارادة العربية في النمو والتقدم ، وتزايدت جهود العاملين في نقل المعارف والعلوم وتعريبها • واتسمت هذه الحركة بتحول بارز في العقود الاخيرة • إذ لم يعد التعريب عملية ينهض بها أفراد متباعدون ، بل أصبح نشاطاً جماعياً وطنياً وقومياً • كما اتسع نطاق عملية التعريب حتى شملت العلوم والفنون كافة • فكثرت المصطلحات التي أخرجتها المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية العربية ، وتعددت العلوم والفنون التي عنيت بها • ولكن رغم هذه الكثرة فقد بقيت ألفاظها بعيدة عن قبول المعنيين واجماعهم وظل الاختلاف يشوبها من قطر لآخر • وحاول الباحثون ان يتبينوا مواطن الخلل حرصا على وحدة التفكير والتعبير • وقد عزا البعض ذلك الى أن المشتغلين بوضع المصطلحات من ميادين علمية متباينة لا يربط بينهم رابط ، لذلك ظهر الاضطراب عليها وتعددت الفاظها من قطر عربي لآخر •[٥]

وتكمن صعوبة المشكلة ، كما يراها الغير ، في إختيار كلمة عربية واحدة تقابل المصطلح الاجنبي تكون مقبولة لدى المعنيين في الأقطار العربية • ويرى هؤلاء أن الاختلاف الجوهري لا يتعدى عدداً محدوداً من الكلمات يمكن الاتفاق على غالبيتها بسهولة •[٦] ويذهب آخرون الى أن اختلاف ترجمة

---

(٥) خير الدين حقي ، امكانات العربية ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ص ٢٦ •

(٦) محمود الجليلي ، الطريقة العلمية في التعريب ، مؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٦٢٨ •

المصطلح الأجنبي يرتبط باتساع اللغة العربية ، والى ترك الامر للاجتهاد الشخصي والمواصفات اللغوية الاقليمية .[7]

وهكذا تتباين أقوال الباحثين وتتشعب بهم سبل التبرير . ومما لا شك فيه أن هذه الاقوال لا تخلو من بعض الحقائق وإن اختلفت المبررات . ولكن الذي لابدّ من قوله هو أن التعريب يختلف إختلافا جذريا عن الترجمة . فالتعريب عملية تحرير فكري تحرر اللفظ العربي من إرتباطه بالفكر الذي صدر عنه . أي أنه ليس مجرد نقل لفظي من لغة الى أخرى . إذ يشترط ان يدل اللفظ دلالة واضحة على معاني الاشياء ومفاهيمها وفق فكر وحس عربي لا ترجمة عامة لمسمّاتها الاجنبية . فاللفظ العربي يتضمن فكرة ودلالة وصيغة قلّ أن يقابله لفظ في لغة أجنبية .

إذ يُعْرِب كل لفظ عربي عن ظاهرة محددة لها خاصيّة تسبغ عليها معنى لا يتكرر . يقول الجرجاني : الترادف ما كان معناه واحدا واسماؤه كثيرة ، وهي ضد المشترك .[8] ويمكن أن نتبين ذلك من قول الثعالبي في القوافل إذ يقول : « إذا كانت فيها جِمال قد تخللتها حمير تحمل المِيرة فهي العِير ، فاذا كانت راجعة فهي القافلة لا غير ، فاذا كانت تحمل أزواد قوم خرجوا للمحاربة أو غارة فهي القيروان ، فاذا كانت تحمل البزّ والطِيب فهي اللطيمة » .[9] في حين انها بالانجليزية لفظ واحد (Caravan) لا غير . وفي ترتيب الامطار يقول الثعالبي :« رش" وطش" ، ثم نضح" ونضخ"

---

(٧) محي الدين صابر ، كلمة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مؤتمر التعريب السادس ، الرباط ٢٦ ـ ١٩٨٨/٩/٣٠ (غير منشور) .

(٨) علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ، كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢١٠ .

(٩) عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، فقه اللغة واسرار العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ـ ، ص ٢٢٣ .

ثم هطل وتهتان ، ثم وابل وجَوْد » .[10] وهذه الفاظ تختلف معانيها في وصف حجم قطر المطر ، والمساحة التي يصيبها ، وغزراته ومدته . ومثل هذا يقال عن الفَرَح والسرور والغبطة والسعادة والابتهاج والمرح . إذ يدل كل لفظ من هذه الالفاظ على خلجات نفسية معينة تختلف عن الاخرى في معانيها وملامحها وتعبيراتها النفسية وسلوكيتها . فالغبطة ، مثلا حسن الحال . وهي عبارة عن تمني حصول النعمة لك كما كان حاصلا لغيرك من غير تمني زواله.[11] وسئل اعرابي : ما الغبطة قال : الكفاية ولزوم الاوطان والجلوس مع الاخوان .[12] والفرح لذة في القلب لنيل المشتهى .[13]

وتختلف العربية عن غيرها من اللغات بان كل لفظ ، كما ذكرنا ، يدل على شيء معين ، في حين يكثر التعبير في غيرها باكثر من كلمة واحدة . فالعوامل تعني ما يستخدم من الابل والبقر في العمل . واذا نقلت الابل الماء فهي الروايا. والناجية الناقة السريعة التي تنجي راكبها من اعدائه . وهذه في الانجليزية حيوانات الجر draft-animals مهما اختلفت أعمالها . ويلاحظ ان الانجليزية تبقي على هذه الحيوانات صفتها ، في حين أن العرب استعملوا صيغة العاقل لغير العاقل ، بحيث ان كلمة الروايا تسبغ على ناقلات الماء من الأبل لمسة انسانية يندر أن تجدها في لغة أخرى . وهو أمر لايصدر الا عن أمة موغلة في حضارتها وعمق انسانية ثقافتها .

والى جانب ذلك يتميز اللفظ العربي بدقة وصف الشيء الذي يدل عليه. وهذه صفة لاغنى عنها في أي عمل علمي . فدقة الوصف ضرورة لازمة لصدق التحليل . فلاعجب أن أصبحت بعض الالفاظ العربية مصطلحات علمية عالمية

(10) المصدر نفسه ، ص ٢٨١ .
(11) الجرجاني ، التعريفات ، ص ٩٤ .
(12) كتاب في المطالعة .
(13) الجرجاني ، التعريفات ، ص ١٧٣ .

في عصرنا الحاضر • يقول (لوبك) استاذ (علم الأرض) في جامعة كولومبيا، نحن أخذنا من لغات أخرى أغنى من لغتنا كلمات تميز اشكال سطح الأرض المختلفة وتصفها بدقة • فقد أخذنا عن العربيــة كلمات مثل wadi (مجرى نهر جاف) و hammada (صحاري صخرية) و barakhan (كثبان رملية هلالية الشكل)[١٤] •

ويتحدث (كيث مور) عن أسس جديدة في تقسيم مراحل نمو الجنين فيقول ان تقسيم هذه المراحل في علم الأجنة (Embryology) لابد وان يأتي وفق ماجاء في القرآن الكريم•[١٥] قال تعالى في محكم كتابه المبين : ((١٢) ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (١٣) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين(١٤) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) •[١٦]

ولن يجد العلماء تقسيماً أفضل ولا ألفاظاً أدق مما جاء في القران الكريم• وبناء على دقة الألفاظ القرانية ومطابقتها لمراحل تطور الجنين مطابقة تامــة ، فان (كيث مور) يدعو لان تصبح الالفاظ القرآنية (السلالة والنطفة ، والعلقة، والمضغة) مصطلحات معمول بها في علم الأجنة لأنها تمثل أدق تمثيل مراحل تطور الجنين •

---

(١٤) A.K. Lobeck, Geomorphology, Mc Graw — Hill Book Co. Inc, New York, 1939, P. 17.

(١٥) كيث مور Keith Moore مؤلف كتاب (Clinically Oriented Anato my)
شارك في المؤتمر الطبي الاسلامي الاول ـ الاعجاز العلمي في القــرآن ، الذي عقد بمبنى جامعة للدول العربية في القاهرة بين ٢٣ ـ ٢٦/٩/١٩٨٥ والقى محاضرتين الاولى (تطور الجنين) والثانية (الجهة الامامية للدماغ) ـ محاضرات مسجلة .

(١٦) سورة المؤمنون : آية ـ ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

وجـاء في مشروع الذخيرة العربيـة ، الانف الذكر ، أن جرد الألفاظ العربية التي استعملت في العلوم اللسانية ، وخصوصاً في الصوتيات ، انطلاقاً من كتب العلماء العباقرة الأولين أمثال سيبويه والخليل ــ وما روي عنهما ــ ومدرسة ابن السراج وابن جني والاطباء العرب مثل ابن سينا وغيره ، مـن الموسيقين العرب ، قد مكن من اصلاح كثير من المسوخ التي دخلت في استعمال بعض الافراد ودونت في معجم اللسانيات فكلمة صفاق الشَّجر° ، مفرج الفم ، التي يستعملها ابن سينا في كتاب « اسباب حدوث الحروف » مثلا ، تعـد تسمية جد لائقة لما يقابلها بالفرنسية (voile du palais) واستعمل العرب لمفهوم اخر هو variant او allophone كلمة (الوجه) من وجوه الاداء • وقول الجاحظ المخارج لا تحصى •[17] وعلى هذا الدرب جاءت خطوات هذا البحث لعله يكشف عن قبس يهتدي به المعنيون بعد أن تكدست المصطلحات العلمية انتظارا لتعريبها •

منهج البحث وشواهده

إن البدء باللفظ العربي ومحاولة ايجاد ما يقابله من مصطلح أجنبـي ، جهد يسير باتجاه يخالف ما دأب عليـه المختصون في تعريب المصطلحـات • فالمألوف عندهم الألتزام بمفردات قاموس أجنبي والبحث عما يقابلها من لفظ عربي • وأحياناً يوفق هؤلاء الى اختيار اللفظ العربي الفصيح الـذي تناقله العرب ، وفي كثير من المرات يتحول جهدهم الى ترجمة حرفية بما في ذلك من مآخـذ أشرنا اليها • ولذلك انصبت أولى خطوات هذا البحث على مراجعة مجموعة من المعاجم اللغوية وكتب التراث العلمي العربي واختيار مجموعة مصطلحات منها • ومن ثم إثبات ما يقابلها أو يتلاءم معها من مصطلحات أجنبية بصـورة لا يمكن الاختلاف عليها قدر الامكان •

---

(١٧) عبدالرحمن الحاج صالح ، مشروع الذخيرة العربية ، ص ٦ •

ودفعاً لأي تعقيد أو لَبْس رتبت حصيلة هذه المصطلحات وفق ماجرت عليه عادة المختصين بالتعريب وطريقتهم في نشر المصطلحات المعرّبة • والغرض من ذلك سهولة مقارنة ما جاء في معاجم المصطلحات مع تتاج هذا البحث ، أو وضع مصطلحاته في مكانها بين المصطلحات المنشورة إن لم تكن مدونة معها • ولعل من الملائم ، إيفاءً لغرض هذا البحث ، عرض هذه المصطلحات على النحو الاتي :ــ

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
حَرِيمُ النهرّ ــ مَلقى طينـه •[1] أما اللفظ الشائع في كتب الجغرافيا وغيرها فهو (السهل الفيضي) •	alluvial plain
الهَوْجَلُ ــ الحجر الذي يُثَقَّلُ به الزورق والمركب • ويكثر قـول (المِرساة) تعبيراً عن ذلـك •[2] والأنْجرَ اسم عـراقي لمِرسـاة السفينة •	anchor
العَلزُ ــ قَلَقٌ وخِفة وهلع يصيب المـريض والأسـير والحـريص والمحتضر •[3] أما لفظ القلـق فحسب فلا يفي بكامل المعنى •	anxiety

(١) انظر : أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم ، (ت ١٨٢هـ) كتـاب الخـراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ ، الطبعة الثانية ، حريم النهـر ، وحريم البئر ، وحريم الزرع .
(٢) الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، فصل اللام ــ باب الهاء .
(٣) المصدر نفسه ، فصل العين والغين ــ باب الزاي .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
البَوْلُ ـ الحوت العظيم[٤]	baleen
أرضٌ بَراح ـ الواسعة الظاهرة وقيل التي لا نبات فيها ولا عمران[٥] .	barren land
هَضْبَةٌ خَلْقاء ـ ملساء مُصْمَتة لا نبات فيها . أما الهَضْبَة فهي الجبل المنبسط على الارض .[٦]	barren plateux
المَجْلُ ـ أن يكون بين الجلد واللحم ماء ، أو المَجْلَةُ قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل . وهي النَّفْطَةُ في المعاجم الطبية ، أي قَرِحَتْ عملا أو مَجِلَتْ .[٧]	blister
الرِّضام ـ صخور عظام أمثال الجزر (واحدتها رَضَمَة)	boulders
العَلْقُ ـ إذا رعت السائمة ورق الشجر واطرافه .	browsing

(٤) المصدر نفسه ، فصل الباء والتاء ـ باب اللام .

(٥) ابن سيده الاندلسي (ت ٤٥٨هـ) ، السفر العاشر ، باب الارض الواسعة المطمئنة .

(٦) الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لم تذكر السنة ، ص ٢٩٤ .

(٧) الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، فصل الميم ـ باب اللام ، وفصل النون ـ باب الطاء .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
الدَّنَفُ ـ المرض الملازم ويقال (مرض مزمن) على وجه العموم.	chronic illness
الفَدَعُ ـ اعوجاج الرسغ من اليد او الرِّجل حتى ينقلب الكف أو القدم الى إنسيَها ، أو هو المشي على ظهر القدم ، أو إرتفاع أخمص القدم .[٨]	clubfoot clubhand
وهو (حَنَفُ القدم) في المعاجم الطبية .	
البَليلُ ـ الرياح التي فيها بَرد وندى .	cold, damp winds
الصِّراد ـ الرياح الباردة من الشمال	cold north winds (polar winds)
القَرور ـ الماء البارد .	cold water
مُعْتَرَك الرِّياح ـ حيث يلتقي بعضها ببعض . في حين ان مايكتب في كتب الجغرافيا فهو (منطقة التقاء الرياح) .	convergence zone
الحِقْفُ ـ ما أعوّج من الرَّمل والجمع أحقاف وحقوف .[٩]	cresent shaped sand dunes

(٨) المصدر نفسه ، فصل العين والفاء ـ باب العين .
(٩) الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، ص ٢٩٩ .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
أرضٌ قراح ـ إذا كانت مهيـأة للزراعـة وهي الحَقل والمشـارة والدَّبرة ،[١٠] والا فهي بَراح •	cultivated land
جال ـ جانب الجبل •	cuesta
الجَعْد (للشعر) ـ	curly hair
نَهرٌ ـ قَعير ـ عميق	deep river
الرَّدَبُ ـ الطريق الذي لاينفذ •	dead-end street
الدَّحْلُ ـ نقب ضيّق فمه متسـع أسفله حتى يمكن المشي فيه •	* dolines
الهَجوم ـ الـريح التي تشـتد حتى تقتلع الشجر والبيوت •	devastating winds ** (hurricane)
الطَّلُ ـ المطر الضعيف ، أو أخـف المطر وأضعفه •	drizzle
القَحْطُ ـ إحتباس المطر •	drought
الوَسْمِي ـ المطر المبكر أول الموسم	early seasonal rain
الصَّبا ـ وهي القبول •	easterly winds
الاعتـدال ـ	equinox
الاعتدال الربيعي ـ حوالـي (٢٠ آذار)	vernal equinox

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ •
= dolines * كلمة سلافية .
** hurricane كلمة من لهجات هنود امريكا وتعني « رياح الشيطان »

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
الاعتدال الخريفي ــ حوالي (٢٢ أو ٢٣) أيلول	autumnoal equinox
دائرة معدل النهار ــ اذا جـازت عليها الشمس استوى الليل والنهار في جميع أنحاء الارض ‎•‎(١١) وهي إحـدى الدائرتين العظيمتين التي تتقاطع بصورة عمودية عنـد القطبين •	equinoctial colure
الصَفْصَفُ ــ الفلاة ــ العَفو من الأرض ، التي ليس فيها آثار ‎•‎(١٢)	fealureless land
الدَّرمَكُ ــ التراب الناعم	fine earth
الصَّوان ــ الحجـارة الصّـلبَة الواحدة صوانة •	flint
رَجُل" جُنُب" ــ من قوم أجانب	foreigner
السَهكُ ــ ريح" كريهة"	foul wind
الجَعْدُ (من الشعر) خلاف السَّبِطُ	frizzle
القُنَّةُ ــ الجبل المنفـرد والمستطيل في السماء ، الجبل القرن المنفرد(١٣)	inselberg
الزَّعازِع ــ الريح العاصفة	gale strom
الفـتـوَة ــ	gallantry

(١١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ١٥ .
(١٢) ابن سيده ، المخصص ، السفر العاشر ، باب الفلوات والفيافي .
(١٣) المصدر نفسه ، السفر العاشر باب نعوت الجبال .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
الفوّارة ✱	geyser
الرِّواق ــ	gallary
الرَّهْجُ ــ ويحرّك ــ الغبـــار والسحاب بلا ماء .	haze, dust
العُراقُ ــ الغَيثُ الغزير	heavy rain
المحجّةُ ــ الطريق الواضح البين ــ الجادة	highway
ضَغِنَ الأنسان ضَغَناً ــ حنّ الى وطنه .(١٤)	homesick
الحَمّةُ ــ نبع ساخن	hot spring
الحَلِيتُ ــ الجليد والصقيع والبَردُ	ice, frostand cold
البُور ــ إذا لم تهيأ الأرض للزراعـة قبل ان تصلح للزرع ، أو التـــي	idol land
تُحَجَّمُ سنة لتزرع من قابل	fallow land
السَّرسُ ــ العنين	impotent
المعجم الطبي ــ العِنانةُ	impotence
الأُوار ــ شدة الحرارة	intence heat
الأَلْغَازُ ــ طرق تلتوي وتشـــكل على سالكها .	labyrinth

★ الفوارة منبع الماء المندفع صعدا . يقول علي بن الجهم الشاعر العباسي :

وفـوارة ثأرهـا فـي السماء فليسـت تقصـر عن ثارهـا
تراها اذا صَعّدَت في السماء تعـود علينـا بأخبارهـا

(١٤) المصدر نفسه ، السفر الثاني عشر ، باب الاغتراب والنزوع والبعد .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
المالَقُ والمِملَقَةُ ــ خشبة عريضة تجرّها الثيران وقد أُثقلت لتستوي على آثار السِنَّة فتتَلَمَّأُ على الحَب(١٥)	land plane
الحَتَامَةُ ــ ما يبقى على المائدة من طعام	leftover
الماشية ــ تقع على البقر والضّانية والماعزة	livestock
القَطْلُ ــ قطع الشجر ، إذا ضربتها من أصلها	lumbering
القَطْلُ ــ المقطوع من الشَّجر	lumber
القَدُّ ــ الشَّق طولا	longtudinal cut
الآرام ــ حجارة تنصب أعلاماً	marking stones
المَرْج ــ أرض واسعة فيها نبت كثير تمرح فيه الدواب ، أي ترعى حيث تشاء .	meadow
عاقولُ النهر ــ ما اعْوجَّ منه ، وكُلُّ مَعْطِفِ وادٍ عاقول .(١٦)	meander
نهر عَوِيص ــ يجري كذا وكذا من العَوص وهو الالتواء	meandering river

(١٥) المصدر نفسه ، السفر العاشر ، باب آلات الحرث والحفر .
(١٦)المصدر نفسه ، السفر العاشر ، الانهار .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
المِصْر ـ مركز الاقليم ومقر السلطة، منه تصدر الاوامر السياسية والمالية الى الوحدات الادارية الصغرى .(١٧)	metropolis
النَّصَفُ ـ من كان متوسط العمر يقال رجل نَصَفٌ	middle age
الهاذِلُ ـ وسط الليل	midnight
الفَخْتُ ـ ضوء القمر	moonlight
السَّراة ـ بالفتح ، هي الجبال المنقاد بعضها تلو بعض كفقرات الظهر	mountain chain
النِّقابُ ـ الطريق الضيّق في الجبل	mountain trail
القَطِينُ ـ جماعة القطّان	natives
النَّكباءُ ـ رياح بين الصَبا والشمال ويقال : نكَبت تَنكُبُ نكوباً	north eastern winds
الصَّبا ـ ريحُ الشمال	north winds
الرِّهمة : المطر الصغير القطر مع دوامه الرِّهمة : ان تطبق السماء على الأرض ليالي ذوات عدّة بأمطار وضرّ شديد ليس فيها برق ولا رعد .	occluded front
اللَّوصُ ـ اللَّمْحُ من خَلَلُ	peeking

(١٧) المقدسي ، (ت ٣٩٠هـ) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
الباب . اما ما جـاء في (المورد) فهو ترجمة حرفية .	
اللَّعْسُ ـ عظام السُّلامي وعظـام البراجم في الاصابع.وهي السّلامي كما جاء في المعجم الطبي .	phalangeal
الذُّعاف ـ السَّمُ أو سَّم ساعة	poison
رَمل" نَقْح" ـ إذا كان خالصاً من الحصى والتراب .(١٨)	pure sand
العُجْلُ والعُجالَةُ ـ ما استُعْجِل به من طعام ، وقيل هو ما تزود به الراكب مما لا يتعبه أكله .(١٩)	quick lunch
مِحْراد" ـ سنة لا مطر فيها .	rainless year
الشِحّاحُ ـ شعاب صغيرة لو صببت في إحداهن قربة أسالتها	rills
الأنهار المُطّرِدة ـ الجارية	running rivers
السَّبخةُ ـ	salt flat
المُزارَعَةُ والمُساقاة ـ المزارعة فيما يزرع من الحبوب والمساقاة تكون في النخل والشجر.وعن ابن عباس	share-cropping

بريل ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٤٧.

(١٨) الثعالبي ، فقه االلغة وسر العربية ، ص ٤٥ .

(١٩) ابن سيده ، المخصص ، السفر الرابع ، باب أسماء الطعام من قبل اوقاته.

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
قال : « دفع رسول الله (ص) خيبر ـ أرضها ونخلها ـ الى أهلهـا مقاسمة على النصف » .[20] وهي المحاصّة في المغرب العربي .	
بيت الأطبّا ـ	sauna (steam bath)
الغاقُ ـ طائر مائي (النورس) وهي على أَلْسِنَة الناس في العراق وغيرهم من العرب .	sea gull
السِّيف ـ ساحل البحر ، جمعه أسياف ، والعراق سيف البحر وبه سُمِّي العراق ـ وقيل العراق شاطىء البحر طولا .[21]	sea coast
الصِّرة ـ شدة البرد	sever cold
الحَريدُ ـ السمك المُقَدَّد	sliced fish
القَضَضُ ـ الحصى الصغار[22]	small pebbles
السُّلفَةُ واللُّهنَةُ ـ الطعام الذي يُتعَلَّلُ به قبل الغداء .[23]	snack

(٢٠) ابو عبيد القاسم بن سلام ، (ت ٢٢٤هـ) ، كتاب الاموال ، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٨٦ ، ص ٢٢ .
(٢١) ابن سيده ، المخصص ، السفر العاشر ، أسماء ساحل البحر .
(٢٢) المصدر نفسه ، السفر العاشر ، نعوت الصخر من قبل صغرها .
(٢٣) المصدر نفسه ، السفر الرابع ، أسماء الطعام من قبل اوقاته

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
الدُمَّق ـ الثلج مع الريح يغشى الانسان حتى يكاد يقتله •	snow blizzard
الوَكْعَةُ ـ قرحة في باطن القدم من مشي الحفا • والوكع في الأصل إقبال على السبابة من الرجل حتى يرى أصله خارجاً كالعقدة • وهو أوكع وهي وكعاء •(٢٤)	spot
القُبَّة ـ دائرة وسط فلك البروج وهي التي ترسمها الشمس بسيرها الخاص من الغرب الى الشرق •	solistial colure
السَّبط (الشعر) ـ نقيض الجَعْد	straight hair
القَتْرُ والتَقْتيرُ ـ الرُمْقَةُ من العيش	subsistance life
الوَمْحَةُ اثر الشمس على الوجه	sun tan
نهرٌ منصَلت أو العَربة ـ شديد الجرية •	swift river
القارَةُ ـ أصغر من الجبل وجمعها قُور •	table mountain
الحَيلَةُ ـ حجارة تتحدر من جانب الجبل الى أسفله • وهي غير التِلاع فهذه سواقي الأودية • وربما	talus

(٢٤) الفيروزابادي ، فصل الواو ـ باب العين .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـــذي يقابله
سميت القطعة من الارض تلعة •	
إنساعَ الجَمَدُ ـ ذاب ، والسَّيعُ ما سال على الأرض من جَمـــد ذائب ونحوه •	thawing
يُقال للنهر الكبـير الذي تحمـل السواقي منه الأم .•	trunk river
وتسمى سواقيه الرواضـع لانهـا حملت من الأم وارتضعت	branch rivers
حَجِنَ الصبي ـ ساء غذاؤه .• وجاء في المعاجم الطبية قلة الغذاء•	under nutrition
الكِظامَةُ ـ القناة تحت الارض •	under ground channel
الشَّجنْ ـ جمعها شواجن ـ أعالي الوادي •	uppers of the valley
الجَرْمُ ـ الأرض الشديدة الحر	very hot erea
حباب الماء ـ فقاعاته التي تعلوه	water bubles
الطَّبقُ ـ المطر العام الـذي يطبـق الأرض •	general rain
الدَّبور ـ رياح غربية •	westerly winds
الطِراف ـ من أدم ـ بيت سماؤه[٢٥]	* wigwam

(٢٥) المصدر نفسه ، السفر السادس ، باب الابنية من الخباء وشبهه .

* خيمة او كوخ يتخذه الهنود الحمر في امريكا الشمالية مـن الجلـود او الحصر أو لحاء الشجر . واللفظة ماخوذة من كلامهم . اما قامـــوس (المورد) فقد قال (كوخ بيضوي أو مستدير الشكل عند الهنود الحمر). اي أن القاموس اكتفى بذكر الشكل .

المصطلح العربي	اللفظ الاجنبي الـذي يقابله
من أدم ، له كِسران وليس لـه كِفاف .	
يَوم" راح" ـ راحَ اليوم يَراحُ ريحاً ـ كان شديد الريح . يقول علي بن الجهم : والغيث يحصُرُه الغَمامُ فما يُرى إلا ورَيّقِةٌ يَراحُ ويرعدُ	windy day
المَسْهَجُ ـ ممر الريح	wind track
الرَّيْدُ ـ ناحية الجبل المشرف على الهواء ، وجمعه ريود .[26]	
الرُّكْحُ ـ ناحية الجبل المشرف على الهواء وجمعه أركاح وركوح .	windward side
الرَّباب ـ السحاب الأبيض .	white cloud
النَّقا ـ الرمل الأبيض .	white sand

ان هذه المجموعة القليلة من المصطلحات العربية تكشف عن جواب مهمة حري بالمعنيين الالتفات اليها تسهيلا لامرهم . وايضاحاً لذلك سوف نجعلها في خاتمة البحث .

(٢٦) الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، ص ٢٩٥ .

خاتمة البحث

لم يكن هذا البحث الا جهداً متواضعاً غرضه البحث في كنوز المصطلحات العربية ووضع ما يقابلها من ألفاظ أجنبية ، أي السير في طريق يغاير مايسير عليه المختصون في التعريب ووضع المصطلحات • وكانت حصيلة هذا الجهد مجموعة مصطلحات عربية محدودة تنوعت بين كثير من حقول المعرفة ، في الفلك والطب والزراعة وعلم الأرض والانواء ، وكثرة من ألفاظ الحضارة • وبقيت كثرة كاثرة منها في علوم أخرى تنتظر جهد الباحثين • ومهما يكن فان أي مصطلح من هذه هو مصطلح علمي ان لم يدخل تحت هذا العلم وجد مكانه في ميدان علم اخر • وكانت هذه الحصيلة ، على قلتها ، مثالا كشف حقائق كثيرة من بينها ما يأتي : —

١ — ان كنوز العربية لاتزال عامرة بألفاظ تعين المختصين في عملهم وتيسر لهم أمرهم وتجمع رأيهم دون خلاف • وكيف يختلف هؤلاء على لفظ مثل الرَّيْدُ والعَلَزُ والبَليل والقَرور والرَّدَبُ والهَجوم وغيرها • وهي مصطلحات عربية تصف بدقة معنى الشيء الذي يبحثون عنه • وقد تناقلها العرب على مر الايام وأثبتوها في تراثهم العلمي • ولكن رغم الجهود المضنية التي بذلت فان هذه المصطلحات التي ذكرت وغيرها مما لم تذكر لاتجدها مدونة في معاجم المصطلحات المعربة •

٢ — لم يلتفت الباحثون الى ما ذكرنا من مصطلحات عربية لان عملية التعريب تعتمد ، في جميع الحالات ، قاموساً أجنبياً وتسير على ما جاء فيه • وليس في هذه القواميس ، بالضرورة ، مايوازي كنوز الألفاظ العربية ويسايرها • بل ان الذين ينقل عنهم المعنيون في التعريب أخذوا بعض المصطلحات العربية

وجعلوها من مفردات لغاتهم . وهكذا جاءت هذه الجهود خلواً من مصطلحات عربية تيسر عملهم وتؤدي الى الاسراع فيه .

٣ ــ ان اتساع العربية وغنى ثروتها اللفظية لايترك مجالا للاجتهاد الشخصي أو يوجد صعوبة في أختيار كلمة يتفق عليها الجميع كما قيل . فاللفظ العربي، كما ذكرنا ، يدل دلالة تامة على معنى الشيء ولاترادف بين معنيين. ولكن الصعوبة تنشأ ، كما يبدو ، من محاولة نقل مآخذ فقر اللغة الاجنبية وقلة مفرداتها الى غنى اللغة العربية التي تبزها لفظاً ومعنى . وفي شواهد البحث أكثر من دليل على ذلك .

٤ ــ ان الذي يتابع تعريب المصطلحات يجد ان الترجمة تغلب على عملية التعريب . ولذلك فقدت هذه الجهود جزءاً جوهريا من غايتها في بعث روح الانتماء والأصالة ووحدة الفكر والتعبير بين ابناء الأمة . اذ يظل اللفظ المترجم أسير الفكر الذي ارتبط به وصدر عنه . ولاتعبر هذه الالفاظ ، في بعض الحالات ، عن المعاني المطلوبة تماما ، ان لم تذهب بعيدا عنها. وعليه فان الاطلاع على مصطلحات التراث العلمي العربي والأحاطة بها تبعد الباحثين عن مثل هذه الهفوات . فشتان بين النَّصَف ومتوسط العمر أو بين الوكعة والبقعة . ومثلها الفارق بين الومحة ولفحة الشمس .

٥ ــ ان التوسع في دراسة المصطلح العربي يكشف عن الاساس الذي صدر عنه . فقد ذكرنا أن العرب نقلوا بعض ظواهر بيئتهم وجعلوا منها مسميات للكواكب والنجوم . كما أخذوا مسميات الأشياء من وظائفها وصورها واصواتها والوانها وتكويناتها ومواقعها الهندسية وهكذا ... وفي كل هذا تبصرة وفائدة للمعنيين في تعريب المصطلحات .

٦ ــ لما كانت هذه المهمة تتطلب عملا جماعياً ، لذا فان من واجب المجامع

اللغوية والمؤسسات العلمية العربية النهوض بها • ويقتضي ذلك أن تعنى لجان التعريب ، ابتداء ، بجرد كنوز المصطلحات العلمية العربية ووضعها في مكانها من القواميس المعتمدة • حتى اذا عز الطلب وكان لابد من العودة الى المصطلح الاجنبي وجد المختصون أمامهم كثيراً من السبل ممهدة وميسرة •

والله ولي التوفيق

تقرير عن أعمال هيئة التأليف والترجمة والنشر

اعد هذا التقرير الدكتور محمود الجليلي عضو المجمع مقرر هيئة التأليف والترجمة والنشر في المجمع العلمي العراقي عن أعمال الهيئة حتى نهاية ١٩٩١ ، وتلي في جلسة المجمع المنعقدة في ٢٤/١٢/١٩٩١ •

١ ـ تتألف منشورات المجمع العلمي العراقي من :

(١) انتاج اللجان فيه •

(ب) ما يكتبه السادة اعضاء المجمع •

(ج) ما يقدمه الباحثون والكتّاب للنشر •

٢ ـ تنظر هيئة التأليف والترجمة والنشر في الكتب التي تقدم باللغة العربية الى المجمع لغرض النشر ، اما الكتب المؤلفة باللغة الكردية او السريانية فتنظر فيها الهيئة المختصة •

وليكون الكتاب ضمن منشورات المجمع يشترط فيه ان يهدف الى تحقيق أحد الاغراض التالية (كما جاءت في المادة الثانية من قانون المجمع العلمي العراقي رقم ١١٣ لسنة ١٩٧٨) :

أ ـ تنمية اللغة العربية ووفائها بمطالب العلوم والآداب والفنون •

ب ـ إحياء التراث العربي والاسلامي •

جـ ـ دراسة تاريخ العراق وحضارته وتراثه •

د ـ تشجيع التأليف والترجمة ونشر البحوث الاصيلة في الاغراض المذكورة •

٣ ـ لقد تمّ نشر ٦٦ كتاباً منذ اعادة تكوين المجمع في اواخر سنة ١٩٧٩ ، في عشر دورات مجمعية ، ويوجد كتابان تحت الطبع • ولقد تمت الموافقة على طبع ثلاثة كتب اخرى ، ولم ينشر ٣٩ كتاباً آخر ، فيكون مجموع الكتب التي نظر فيها ١١٠ كتب •

ويمكن تصنيف الكتب المنشورة كما يأتي :

أ ــ مصطلحات علمية اعدتها اللجان المختصة في المجمع ، نشر ثمانية منها ، والتاسع في المطبعة .

ب ــ المعاجم المتخصصة وفهارس المخطوطات ومصادر المعرفة وعددها ١٤ كتاباً .

جـ ــ كتب تبحث في النحو والصرف واللغة وعددها ١١ كتاباً ، منها ٦ كتب محققة .

د ــ كتب تبحث في الادب والشعر والتراجم الادبية وعددها ١٣ كتاباً منها ٦ كتب محققة .

هـ ــ كتب تبحث في تاريخ العراق وحضارته وعددها ١١ كتاباً .

و ــ كتب تبحث في التاريخ والحضارة العربية الاسلامية وعددها ٩ كتب .

ز ــ وهذه الكتب العشرون التي تبحث في التاريخ والحضارة ، منها ٩ كتب مؤلفة ، و٣ كتب محققة و٨ كتب مترجمة . والكتب التي تبحث في اللغة والادب ومجموعها ٢٤ كتاباً ، منها ١٢ كتاباً مؤلفاً و١٢ كتابا محققاً .

٤ ــ لقد قام باعداد هذه المؤلّفات اعضاء المجمع العلمي منفرداً او في لجان ، وغيرهم من المؤلفين والمحققين والمترجمين ، وعددهم كالآتي :

اعضاء المجمع العلمي العراقي	٤٦ كتاباً	٧٠٪
اعضاء المجمع بالاشتراك مع غيرهم	٦ كتب	٩٪
من غير اعضاء المجمع	١٤ كتاباً	٢١٪
	٦٦ كتاباً	

ان مما يسرّ ان تكون النسبة العليا لمساهمة اعضاء المجمع الموقرين .
ثم ان وجود نسبة جيدة من غير اعضاء المجمع يشير الى الصلة الثقافية

القوية مع الاوساط العلمية والادبية •

٥ ـ ولاعطاء فكرة كاملة عن انتاج المجمع العلمي، من الواجب الاشارة الى :

أ ـ المجلات التي ينشرها وهي تصدر باستمرار بمجلدات ضخمة ، ويطبع منها مُستلاّت بشكل كتب مستقلة • وهي :

مجلة المجمع العلمي العراقي ، وتشرف عليها لجنة خاصة ، ويصدر عادة منها ٤ أجزاء بالسنة •

مجلة هيئة اللغة الكردية •

مجلة هيئة اللغة السريانية •

ب ـ وكذلك الكتب التي تنشرها هيئة اللغة الكردية وهيئة اللغة السريانية في المجمع •

جـ ـ مؤلفات الاعضاء التي يقرر مجلس المجمع اعادة طبعها •

د ـ الندوات التي يقيمها المجمع •

٦ ـ يحال الكتاب ـ من غير مؤلفات اعضاء المجمع ـ على خبير لبيان الرأي في جدارته للنشر ضمن منشورات المجمع ، ويكون الخبراء عادة من أعضاء المجمع• ويقوم الخبير عادة بدراسة شاملة للكتاب ، ويبين جدارته للنشر أم لا ، ويذكر عددا من الملاحظات أو التصليحات التي تزيل بعض الهفوات او تزيد من قيمة الكتاب • وتطلع اللجنة على ملاحظات الخبير وتقرر اما الاعتذار عن عدم نشر الكتاب،او تقرر ارسال ملاحظات الخبير الى المؤلف أو المترجم أو المحقق دون ذكر اسم الخبير ، وعادة يستجيب المؤلفون الى الملاحظات التي ترسلها اليهم اللجنة ، وينشر الكتاب بعد تقويمه •

ولا بد من شكر الخبراء الافاضل الذين كان لهم فضل واضح في المحافظة على المستوى المناسب للكتب ، وربما وصلت جهودهم الى المراجعة العملية للكتاب •

اما مؤلفات السادة اعضاء المجمع او ما يترجمونه او يحققونه فلا

تحال على الخبراء .

ان مستوى الكتب التي تم نشرها ينسجم مع المستوى المجمعي المطلوب ، ومما يدعو الى الغبطة . كما ان كيفية الطباعة والتصحيح الدقيق المتكرر والاعتناء البين بالمطبوعات جعلها واجهة متميزة .

٧ ــ اما الكتب التي قدمت للنشر ولم يتم نشرها فهي ثلاثة انواع :

أ ــ لم تنشر عشرة كتب بناء على تقارير الخبراء .

ب ــ لم ينشر ٢٣ كتابا آخر لانها لاتدخل ضمن ماينشره المجمع او لا تتوفر فيها الشروط المطلوبة مثل كونها رسالة للشهادة الجامعية العليا ، أو انها مطبوعة سابقا او تبحث في مواضيع لاتدخل في اغراض المجمع .

و ــ وهناك ستة كتب اخرى سحبها المؤلفون بعد احالتها على الخبراء .

فيكون مجموع الكتب التي قدمت للمجمع ولم تطبع فيه ٣٩ كتابا. ولا بد ان نذكر ان هناك مؤسسات اخرى تقوم باعمال النشر في العراق يمكن ان تقوم بنشر بعضها ، مثلا الجامعات فيما يختص برسائل الشهادات العليا .

٨ ــ تقرّر اللجنة كذلك مكافئات المؤلفين والمترجمين والمحققين والخبراء على ضوء التعليمات المقررة لهذه الاغراض ، وتقرر كذلك أسعار الكتب استناداً الى الكلفة والحجم ، مع العلم ان الغرض الاساسي هو ثقافي .

وكان يطبع عادة ٣٠٠٠ نسخة من الكتاب ، ولكن أصبح عدد المطبوع أقل من ذلك في السنوات الاخيرة بسبب الظروف السائدة . أما المصطلحات العلمية فكان يطبع منها مجموعتان ، مجموعة توزع وتتضمن العلوم المختلفة ، ويحتفظ بالمجموعة الاخرى في المجمع بحيث يمكن جمع مصطلحات العلم الواحد التي سبق ان نشرت متفرقة في كتاب واحد بعد ان يتم انجازها، أو أن تضمّ الى علم آخر مقارب في كتاب واحد. وتوزع منشورات المجمع داخل العراق وخارجه ، وتهدى الى

المؤسسات والعلماء المهتمين بما ينشر وكذلك على سبيل التبادل •
وكانت تعرض للبيع بواسطة الدار الوطنية ، ولكنها في الوقت الحاضر
تعرض للبيع بواسطة بعض المكتبات •

٩ ـ أما فيما يخص بالدورة المجمعية ١٩٩١/١٩٩٢ فلقد قررت هيئة التأليف والترجمة والنشر أن تولي اهتماماً خاصاً للامور الآتية :

أ ـ فيما يختص بنشر أعمال المجمع • تعطى الاولوية للمصطلحات العلمية بعد انجازها •

ب ـ طبع انجازات اللجان الاخرى في المجمع المعدّة لغرض النشر •

جـ ـ العمل على تحقيق عدد من المخطوطات المهمة مما له صلة بأغراض المجمع ، مع ملاحظة صعوبة معرفة مايجرى تحقيقه أو نشره في مؤسسات أخرى في الاقطار العربية ، أو مايقوم به بعض المحققين بصفة فردية •

د ـ الاهتمام بترجمة ما يخص تاريخ العراق من المنشور باللغات الاوربية والشرقية •

هـ ـ الاهتمام بترجمة مايخص التراث العلمي العربي من المؤلفات باللغات الاوربية المعاصرة •

و ـ طبع الكتب التي تقدم الى المجمع من المستوى المجمعي المناسب مما له علاقة بأغراض المجمع •

ز ـ العمل على طبع بعض المخطوطات المهمة الجيدة الخط بعد التأكد من صحتها بطريقة التصوير (أوفست) مع وضع مقدمة مناسبة وقائمة بالاختلافات المهمة بين النسخ وفهارس تفصيلية •

ح ـ إعداد قائمة بالمواضيع التي يجدر ان تؤلف أو تترجم فيها كتب يؤلفها أو يترجمها مختص أو اكثر بالمستوى المجمعي اللائق •

١٠ـ ولابد من الاشارة الى ان اللجنة كانت قد سجلت سابقاً الاهداف وسبل تحقيقها بنظرة متكاملة ، وفيما يلي خلاصة لذلك :

(١) المصـــادر :

أ ـــ اقتناء الفهارس التي تذكر المطبوعات الحديثة في البلاد العربيـــة بخـــاصة .

ب ـــ جمع كتب فهارس المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات في العراق ، وكذلك المنشورة في الدوريات .

جـ ـــ العمل على جرد ماينشر حديثاً من مخطوطات ويترجم من كتب .

د ـــ ايجاد فهرس شامل في المجمع للمصادر المهمة الموجودة في بعـــض المكتبات الاخرى ، مثل مكتبة المتحف العراقي ومكتبات الجامعات ومكتبة متحف التاريخ الطبيعي ، والعمـــل على ايجـــاد صـــور لبطاقات المصادر المهمة توضع في مكتبة المجمع ليسهل الاطـــلاع على المصادر ومحل وجودها .

هـ ـــ دراسة اســتعمال الحسَّابة في مصـــادر المخطوطـــات ووضـــع المصطلحات ومدلولات الالفاظ . ولكن لم يتسنَّ تنفيـــذ ذلـــك لعدم انجاز الفهارس في المجمع للكتب باللغات الاجنبية ، وبعض المكتبات الاخرى ، وعدم الحصول على جهاز لطبع البطـــاقات ، وعدم توفر الحسَّابة ، بسبب الظروف الخاصة .

(٢) المخطوطـــات :

أ ـــ اختيار بعض المخطوطـــات المهمـــة الجديرة بالتحقيـــق والنشر ، وتكليف بعض المتمكنين من المحققين باعدادها للنشر باسلوب مفيد، مع إعداد الفهارس اللازمة لها .

ب ـــ العمل على الحصول على مصوَّرات المخطوطات المهمة . وقـــد أنجِز الكثير في هذا الشأن .

(٣) التأليف :

أ ـــ تكليف بعض الاعضاء والباحثين المقتدرين بوضـــع البحـــوث أو الكتب التي يمكن ان تصدر حلقة من سلسلةأو اكثرمن منشورات

المجمع ، أو بوضع كتب تبحث موضوعاً واحداً من جهات متعددة يعدّها مختصون حسب خطة متكاملة •

ب ـ اعداد قوائم مراجع لبعض المواضيع المهمة ، وقد نشرت عدة كتب من ذلك • وكذلك أعِدّت قوائم بالوثائق الاجنبية عن العراق •

إن مسألة التكليف تكتنفها صعوبات كثيرة • وعندما ظهرت في المجمع رغبة بالاتجاه الى تكليف بعض المؤلفين والمحققين بالاعمال التي تدخل ضمن أغراضه ، قُدّمت طلبات لتحقيق أو ترجمة أو وضع فهارس لكتب من اختيار مقدّميها من دون معلومات كافية تساعد على تكوين فكرة واضحة عما سينتهي اليه العمل • فصار الرأي ان يُنظر في إقرار طبع الكتب بعد أن تقدم حسب القواعد المعمول بها •

(٤) الترجمة :

أعِدّت قائمة بالكتب الاجنبية التي من المفيد ترجمتها ، ولم يترجم غير كتابين من ١٤ كتاباً لصعوبة ايجاد المترجمين الذين لديهم المجال الكافي للترجمة • أما بقية الكتب المترجمة وعددها ستة فكانت من اختيار المترجمين •

(٥) اللهجات العربية القديمة :

العمل على ابراز التشابه والتقارب بين اللهجات العربية القديمة ، وكذلك بينها وبين الفصحى وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم والحضارة •

١١ ـ الاتجاه العام في التأليف :

كانت الكتب التي تم النظر في طبعها ضمن منشورات المجمع موثّقة بالمصادر المتوفرة لدى الباحثين باللغة العربية ـ مؤلفة بها أو مترجمة اليها ـ وفي بعض الاحيان مصادر بلغات اجنبية • ولم يكن فيها دراسة ميدانية أو تجارب عملية ، وذلك لطبيعة المواضيع التي كانت تطرقها هذه الكتب • ولهذا فلابد من تقييم دقيق للمصادر نفسها ، فقد تقع أحيانا في بعض المؤلفات هفوات او أخطاء يصعب ايجاد تبرير لها • ولنذكر

امثلة على ذلك من مؤلفات لم يقم المجمع بنشرها .

فلقد وصف آثاري معروف مسكوكات مهمة في احد المواقع الاثرية العراقية سنة ١٩٧٤ فذكر الطبقة الارضية التي وجدت فيها مع تفاصيل كثيرة ، ولكنه لم يذكر وزن المسكوكات أو قطرها .

وفي دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ ذُكِرَت ثلاثة أرقام مختلفة لمساحة الجريب في ثلاثة مواضع تعادل ١٠٣٧٤م٢ أو ٣٣٩٠م٢ أو ١٣٨٤م٢ ، ورقمين مختلفين لمقدار الدونم مرة يعادل ١٠٠٨م٢ واخرى ٢٥٠٠م٢ . ويبدو أن هذه المقاييس نقلت من الدليل الصادر سنة ١٩٣٦ دون تمحيص ، أذ انها مشابهة لها ، وفي التحويل بين المتر والياردة سمّى الياردة ذراعا واعتبرها ٩١ر٤ سم بينما يذكر الذراع في موضع آخر أنه يقدر طولها بزهاء ٢٧ بوصة تعادل ٥٨ر٦٨ سم .

وفي المادة الخاصة بالذراع في دائرة المعارف الاسلامية باللغة الانكليزية ــ الطبعة الجديدة ــ يذكر الكاتب طول الذراع الشرعي وغيرها مستندا الى حسابات تعتمد على مقياس النيل كونه يعادل ذراعا معينة اعتبرها ٢٤ اصبعا بينما هي ٢٧ اصبعا كما تذكره المصادر القديمة ، فادى ذلك الى قيم اطول من الحقيقة . ان هذه الامثلة توجب التدقيق الكثير عند الاعتماد على المصادر .

ولابد في الختام ان نذكر ان في ما نشره المجمع الموقر مدعاة للرضا من حيث المستوى والنوعية والكمية مع انه انجز في ظروف غير اعتيادية ، ويرجح اذا ما قورن بما تنشره المؤسسات المماثلة في الاقطار العربية .

كانون الاول ١٩٩١

الدكتور محمود الجليلي

عضو المجمع العلمي العراقي

مقرر هيئة التأليف والترجمة والنشر

الفهرس

الصفحة

JOURNAL
of the
IRAQ ACADEMY

Volume 41
Part (3)

PUBLISHED BY
THE IRAQ ACADEMY



BAGHDAD
1413 — 1992